شمس لن تغيب

ملف خاص عن الإمام الحجة المنتظر (عجّل الله تعالى فرجه الشريف)

سَألَ جابرُ الأنصاري النبيّ ﷺ عَن غَيبةِ الإمام المهدي (عجَّلَ اللهُ فرَجهُ)، فقالَ: «يا رسولَ اللهِ فَهلْ ينتفعُ الشيعةُ بهِ في غَيبتِهِ؟

فقالَ ﷺ: إي وَالذي بَعثني بالنبوةِ إنَّهم لَينتفعونَ بهِ. يَستَضيؤونَ بنورِ ولايتِهِ في غيبتِهِ كانتفاعِ الناسِ بالشمس، وَإن جَلّلها السَّحابُ. يا جابرُ هذا مكنونُ سرِّ اللهِ، ومخزونُ علمهِ، فاكتمهُ إلّا عَن أهلِهِ».

بحار الأنوار ٣٦/ ٢٥٠

محتويات الملف

قصيدة: في ميلاد الإمام الحجة المنتظر
عبد الغني الشيخ باقر الجابري ٤ـ ٥
أسس التماسك الشيعي في زمن الغيبة الكبرى
سماحة السيد علاء الموسوي ٦ـ ١٤
حقائق عن الإمام المهدي المنتظر
توفيق مرتضى الوائلي ١٥ـ ١٨
المهدوية في عصر الإمام الرضا عليه السلام
علي سعد النجفي ١٩ـ ٢١
المهدي المنتظر كما عرفه علماء الغرب
حسين جهاد الحساني ٢٢ـ ٢٩

في ميلاد الإمام الحجة المنتظر*

عبد الغني الشيخ باقر الجابري •

أملَ الهدى يدعوك عصرٌ ينشُدُ ... وبفجرك الموعودِ نورٌ يرقُدُ
أكرم بيومِك يا وريثَ محمدٍ ... في مثل هذا اليوم طابَ المولدُ
يا طلعةَ الأمجاد يعبَق يومُها ... يا بهجةَ العلياءَ يندبها الغدُ
وبعهدك الموعود نورُ محمدٍ ... علَمُ الهداةِ مع الزمان مُخلّد
فإليك تُرفَع في رحابك صرخةٌ ... أدرِك عيالَك غالَها مسترصدُ
عصفَتْ رياحٌ يكفهرُّ لها القضا ... طرقتْ حِمانا واستبدَّ الأوغدُ
رمقتك شاخصةُ الحشود صريخُها ... أرواحنا تهفو إليك وترغُدُ
ماذا نقول وأنت مفزعُ أمةٍ ... فلقد أَناب إليك جدُّك أحمدُ
هذي جموع العالمين تباشرت ... ببهيج عهدك يا مغيثاً يُقصَدُ
زُمَرٌ تجرُّ إلى حياضك زَحفَها ... تتهافَت الآمال حولَك توفَدُ
فوئيدُ زحفِك والغضابُ جنودُه ... يمضي هديراً ليس تُثنيه يدُ
لُحْ في سماء العصر شأنك منقذاً ... تمضي على سُنَنِ الأمين وتنشُدُ
واعصِفْ فقد عَبثت بقايا عارِها ... عبثاً تصول وكيدُها يتوعّدُ
واكشف ستارَ الغيبِ عنك بطلعةٍ ... عصماءَ تسحقُ كلَّ بغيٍ يُفسِدُ
وبسيفِك الموتور جَدَّ قضاؤه ... يهوي على هام الطغاة ويحصد

* * * * *

إنّا بني الهفوات نشكو عصرَنا ... والعابثاتُ السودُ فينا تشهَدُ
غارت علينا العادياتُ ببغيها ... فتهاوتِ الأركان صرعى تُرقَد
وتناثرتْ غُرَرٌ تهيم على المدى ... زَفَراتها تَغلي جَوىً لا يخمدُ
يا مولدَ الأملِ العظيم فإننا ... حسرى على أعتاب عهدك سُجَّدُ

* منتقاة من ديوان الشاعر (ديوان الولاء).

تتحـدّرُ الأرتـالُ شـطرَكَ حُشّـداً ... مُـذ لاحَ بارقُـك الوضـيء الأمجـدُ
عجلـى تجـرُّ بزحفِهـا ووئيدِهـا ... ميعادُهـا يـومَ البشـارة أسـعدُ
يـومَ الأمانـي الغُـرّ هيّـا مُسـرِعاً ... ضاقـتْ حواضرنـا وطـال الموعِـدُ
آمـاقُ جنـدك قـد أَلَـمَّ بهـا القـذى ... أودى بهـا قَتَـرٌ وعَيـشٌ أَنكَـدُ
يتربّصـون جحافـلاً لا تنثنـي ... فيهـا العزائـم عصفُهـا يتوجَّـدُ
أُسـدُ الوغـى عنـد الكريهـة ثأرُهـا ... حُمَـمٌ غضـاب وَجدهـا يتوقّـدُ
يـا مَولـدَ الغـوثِ الصريـخ حياضُنـا ... قـد غـالَ فيهـا عابـثٌ مُتمـرِّدُ
أَدرِكْ حمانـا يـا بشـيرَ محمـدٍ ... فلقـد أُبيـح وليـسَ غيـرُك يُنجـدُ
صالـت علينـا العابثـاتُ بمكرهـا ... تبـاً لمسـعاها ومـا قـد أوقـدوا
غِيلانهـا الطاغـوتُ صـان قِلاعهـا ... عَبَثـاً تولّـى بالفنـاء يُهـدّدُ

* * * * *

هـذي وفـودك قـد أَلَـمَّ بهـا الجـوى ... والرابضـون علـى طريقـك حُشَّـدُ
عجباً لحلمك مُذْ حُجبْتَ عن الورى ... عجبـاً لصبـرك كيـف ذا يَتَجلَّـدُ
يـا باعـثَ المجـدِ التليـد سَـماحةً ... مُسـتضعفون وبـابُ غوثـك مُوصَـدُ
يـا مُنجـدَ الحـق الهضيـم وغوثـه ... هُرِعَـتْ إليـك خلائـق تتوجَّـدُ
أَضحَـتْ محارمنـا تُبـاحُ فرائسـاً ... زُمَـرُ الثعالـب حولَهـا تتصَيَّـد
وتجهمَّـت عشـواء ترعـى وحشَـها ... فـي الآمنيـن كلابهـا تتـردَّدُ
هـذي غوائلُنـا تصـولُ كواسـراً ... فَتَكـتْ بنـا نَكَـداً وهـامَ مُشَـرَّدُ
قد أَوشـك الصبرُ الجميلُ على البلى ... جـزع يطاردنـا وعيـل تجلـد
ندبتُـك يـا تِـربَ الزمـان جراحُنـا ... أَم مَـن يجيـبُ الفازعيـن ويُنجـدُ
هـذا الوجـودُ إليـك يشـكو داءَهُ ... لِـمْ لا تعالجُـهُ وأنـت المرشـدُ
أَدرِك محارمَنـا فقـد بلـغ الزُبـى ... خبـطُ العتـاةِ وسـادَها المتوعِّـدُ

* * * * *

يـا طلعـةَ الفجـر التليـدِ تحيـةً ... هـلّا توافينـا وأنـت المـوردُ
فمتـى يطالعنـا الإلـهُ بوعـدِهِ ... نصـرٌ مـن الله العظيـم يُـرَدَّدُ
فطلائـع الأمجـادِ دَقَّ وئيدُهـا ... قـد لاحَ بارقُهـا وحـان الموعِـدُ

أسس التماسك الشيعي في زمن الغيبة الكبرى

سماحة السيد علاء الموسوي •
أستاذ في الحوزة العلمية

بتاريخ لم يكد ستار الغيبة الكبرى ينسدل على شخص الامام الثاني عشر عليه السلام الا وكانت الترتيبات التي تضمن بقاء جماعة الشيعة وتماسكها عقائديا وسلوكيا.. تامة محكمة. وذلك طبق برنامج الهي بدأه أئمة الهدى عليهم السلام وختمه الامام الثاني عشر صلوات الله عليه وبقي مشرفا على اجرائه وقائما على سلامة تطبيقه. ذلك البرنامج الذي غفل عنه الظالمون وانشغلوا بطلب الدنيا والسلطة والجاه عن ملاحظته وتتبع خطواته. رغم حرصهم الشديد على مراقبة أهل البيت عليهم السلام والتجسس على اوضاعهم الخاصة ونشاطاتهم العلمية

والاجتماعية. مما جعل ذلك البرنامج ناجحا بكل المقاييس، وسببا تاما لبقاء الجماعة الصالحة وحملة الرسالة النقية. كما جعله الضمانة الاولى لسلامة الدين بموازينه وكافة أصوله وقواعده. رغم ما ارتكبه فريق الحكام من جرائم في حق حملة الحق وأتباعه.

فما هي تلك الترتيبات؟

وما هي تلك الضمانات التي وفرها ذلك البرنامج الالهي لنجاح تلك الخطة ولاستمرارها؟

وما هي النتائج الملموسة في يومنا هذا لتلك الخطة؟

ماذا أراد فريق الحكم:

من الواضح لمن تتبع أحداث السقيفة وما تلتها من أمور جسام، أن أربابها لم يكونوا ليكتفوا باستلام السلطة فقط، بل أرادوا الاستحواذ على صلاحية التشريع في دين الاسلام أيضا، وبعبارة حديثة، لم يكتفوا بالسلطة التنفيذية بل طمعوا بالسلطة التشريعية أيضا. ليكون الخليفة مصدرا من مصادر التشريع في أقواله وأفعاله وقراراته، كما كان رسول اللهﷺ بالضبط.

هذا ما صرح به عبد الرحمن بن عوف حينما عرض الخلافة على أمير المؤمنينَ عليه السلام مشترطا عليه العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين ابي بكر وعمر[1]، في خطوة واضحة لجعل سنة الخلفاء في عرض القرآن الكريم وسنة رسول الإسلام، ومصدرا ثالثا من مصادر التشريع للإسلام. ليكون ذلك تمهيدا لجعل سيرة الخلفاء مصدرا من مصادر التشريع الأمر الذي لن يقتصر على أبي بكر وعمر، بل سيسري الى بقية خلفاء فريق الحكم، فان الخليفة (وان كان مثل معاوية أو يزيد أو الوليد) هو خليفة على كل حال، وله بحسب منصبه تلك الصلاحية التي كانت للخلفاء من قبله[2]. ونتيجة لذلك.. ونتيجة لتعاقب الخلفاء وتفاوتهم في مستوى التدين والألتزام بأحكام الدين، أو قل

---

(١) روى احمد بن حنبل في مسنده ١ / ٧٥ عن عاصم عن أبي وائل قال قلت لعبد الرحمن بن عوف كيف بايعتم عثمان وتركتم عليا رضي الله عنه قال ما ذنبي قد بدأت بعلي فقلت أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما قال فقال فيما استطعت قال ثم عرضتها على عثمان رضي الله عنه فقبلها.

وجاء في كتاب (نظرية الإمامة) للدكتور احمد محمود صبحي ص ١٦، نقلا عن كتاب (الوشيعة) لموسى جار الله ما نصه: نحن فقهاء أهل السنة والجماعة نعتبر سيرة الشيخين الصديق والفاروق أصلا تعادل سنة النبي الشارع في إثبات الأحكام الشرعية في حياة الأمة وإدارة الدولة. وان الخلافة الراشدة معصومة عصمة الرسالة.

(٢) يقول معاوية: المال مال الله وأنا خليفة الله إن شئت أعطيت وإن شئت منعت. ووردت روايات موضوعة كثيرة تصف الحاكم بهذه الصفة وتعطيه هذه المنزلة ومنها: إن السلطان ظل الله في الأرض وأمينه على عباده أطيعوه ولو كان جائراً يقول شاعرهم:

من لم يكن بأمين الله معتصماً ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع

إذا رفعت امرئاً فالله يرفعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع

في مستوى التهتك والاستهتار بأحكام القرآن[٣]، لن نحصل بعد برهة قصيرة من الزمن، الا على صورة شريعة تسمى بالإسلام، وهي ليست سوى آراء واجتهادات وأفعال للخلفاء الذين تعاقبوا على كرسي مغتصب، لا تصدر الا عن هوى أصحابها وجهلهم بالاحكام ونزواتهم الجامحة وشهواتهم المخجلة.

وهذا ما لخصه الأمام الشهيد أبو عبد الله الحسين عليه السلام حينما دعي الى بيعة يزيد اذ قال: (فعلى الإسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع كيزيد)[٤].

هذا هو بالضبط ما أراده القوم.. السيطرة على الحكم وعلى تشريع القوانين والأحكام، ليقلبوا الإسلام بتشريعاته وقوانينه وثقافته.. رأسا على عقب.

ماذا أراد أهل البيت عليهم السلام ؟:

في إزاء ذلك.. كان أهل البيت عليهم السلام، يدركون تماما أبعاد المؤامرة على

---

(٣) في شرح مسلم، النووي ج٢ ص٥٢: قال أبو عثمان لما ادعي زياد لقيت أبا بكرة فقلت له ما هذا الذي صنعتم أنى سمعت سعد بن أبي وقاص يقول سمع أذناي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول من ادعى أبا في الإسلام غير أبيه فالجنة عليه حرام فقال أبو بكرة أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فمعنى هذا الكلام الإنكار على أبى بكرة وذلك أن زيادا هذا المذكور هو المعروف بزياد بن أبي سفيان ويقال فيه زياد بن أبيه ويقال زياد بن أمه وهو أخو أبى بكرة لأمه وكان يعرف بزياد بن عبيد الثقفي ثم ادعاه معاوية بن أبي سفيان وألحقه بأبيه أبي سفيان وصار من جملة أصحابه بعد أن كان من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه فلهذا قال أبو عثمان لأبى بكرة ما هذا الذي صنعتم وكان أبو بكرة رضي الله عنه ممن أنكر ذلك وهجر بسببه زيادا وحلف أن لا يكلمه أبدا ولعل أبا عثمان لم يبلغه إنكار أبى بكرة حين قال له هذا الكلام أو يكون مراده بقوله ما هذا الذي صنعتم أي ما هذا الذي جرى من أخيك ما أقبحه وأعظم عقوبته فان النبي صلى الله عليه وسلم حرم على فاعله الجنة. وقد أشار لهذه القصة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في كتاب له إلى زياد جاء فيه: (ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه: (وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك، ويستفل غربك، فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستلب غرته، وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس، ونزعة من نزعات الشيطان لا يثبت بها نسب، ولا يستحق بها إرث والمتعلق بها كالواغل المدفع والنوط المذبذب). فلما قرأ زياد الكتاب قال: شهد بها ورب الكعبة، ولم تزل في نفسه حتى ادعاه معاوية).

ينظر تفصيل القصة في: الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي ج٢ ص٩٢٥، الغدير، الشيخ الأميني ج١٠ ص ٢٢٦-٢٢٧، الخصال للشيخ الصدوق ص١٨١-١٨٢.

(٤) قال ابن أعثم في كتاب الفتوح: ٥ / ١٦: وأصبح الحسين (عليه السلام) من الغد خرج من منزله ليستمع الأخبار، فإذا هو بمروان بن الحكم قد عارضه في طريقه، فقال: أبا عبد الله ؛ إني لك ناصح، فأطعني ترشد تسدد. فقال الحسين (عليه السلام) وما ذلك ؟ قل حتى أسمع. فقال مروان: أقول إني آمرك ببيعة أمير المؤمنين يزيد، فإنه خير لك في دينك ودنياك؛؛ فاسترجع الحسين (عليه السلام) وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وعلى الاسلام السلام إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد؛؛ ينظر: اللهوف في قتلى الطفوف، السيد ابن طاووس ص١٧-١٨، تاريخ ابن عساكر (ترجمه الإمام الحسين): ٢٠٠.

الإسلام، وأن السقيفة التي بدأت بالاستيلاء على السلطة لن تقف عند حد السلطة والحكم، بل ستمتد الى أصل الشريعة وستحاول تحريفها وتشويه حقائقها بل والتلاعب حتى بالكتاب العزيز.

فكان لاهل البيت عليهم السلام برنامجهم الالهي في مواجهة ذلك الكيد القرشي الجاهلي. ويمكن تلخيص ذلك البرنامج في نقاط:

أولا: اعراضهم عن السلطة وعدم جعلها هدفا بنفسها، إلا بقدر اقامة العدل، وحين توفر شرائطها.. قال أمير المؤمنين عليه السلام: (لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر... لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكاس أولها، ولوجدتم خلافتكم هذه أهون عندي من عفطة عنز)[٥].

الأمر الذي وفر جهودهم وجهود شيعتهم وركزها في طلب العلم والحفاظ على الشريعة والصون للآثار النبوية وحمل ثقافة الاسلام بشكل تام وأمين.

هذا مع التأكيد في المناسبات المختلفة أن الحكم هو حقهم الخاص بهم والمتعين فيهم بنصب من الله تعالى ونص من نبيه[٦]. وإن عدم تصديهم للمطالبة انما هو بسبب تخلف الامة عن نصرتهم، وأنهم لو وجدوا أنصاراً لم يقعدوا ساعة عن القيام بالعدل بين الناس.

ثانيا: السعي الحثيث الى فصل الشرعية عن السلطة في أنظار المسلمين، سدا للطريق عليها في استغلال الحكم لفرض الأحكام المحرفة في الإسلام، وهذا ما حققه الامام الحسين عليه السلام بثورته وشهادته، إذ حطم الشرعية التي كان يتقمصها الخليفة ويستخدمها في التلاعب بالتشريعات والأحكام. ولم يعد بعد ثورة الحسين عليه السلام للخليفة أي وجه أمام المسلمين يتمكن به من فرض أو حذف حكم شرعي، بل عاد مضطرا الى أن يجعل الى جنبه مفتيا أو قاضيا من بطانته ليتكلم الى الناس بالاحكام ويفتي في أحكام الدين، الأمر الذي يعني بوضوح أنه فقد تلك الصلاحية التي كانت على عهد ابي بكر وعمر.

كما أنه عاد يعني عند عموم الناس، أن الخليفة لم يعد مصدرا من مصادر التشريع بل ولا مصدرا حتى للفتوى العادية التي قد يتمتع بصلاحيتها مثل عبد الله بن عمر مثلا.

وأصبح الناس يبحثون عمن يأخذون عنه دينهم وتكاليفه الشرعية. مما فتح المجال أمام حركة الفقهاء وعاد أمر الفتوى شأنا من شؤون أهل العلم

---

(٥) نهج البلاغة، خطب الإمام علي (ع): ١ / ٣٦.

(٦) روى أحمد بن حنبل في مسنده بإسناده إلى زاذان قال: سمعت عليا في الرحبة وهو ينشد الناس: من سمع النبي وهو يقول ما قال ؟ فقام ثلاثة عشر رجلا فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. ينظر: بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ٣٧ / ١٨٨.

والتحصيل لا من شؤون الخليفة كما اراد له فريق السقيفة.

حينذاك.. انفتح أمام أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم المجال واسعاً للدخول الى المعترك العلمي واثبات الفقاهة والجدارة العلمية دون أن يحسب ذلك منافسة للسلطة وسعيا الى التعدي على صلاحية من صلاحيات الخليفة، بما يكفي ليكون مبررا للوقع تحت الاجراءات القمعية الحكومية، ومن الواضح آنذاك أن أئمة الهدى عليهم السلام تمكنوا في فترة وجيزة من اثبات مرجعيتهم العلمية لكافة طوائف الامة وعلمائها على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم. فكان الجميع يتشرف بالتلمذة على الامامين الصادقين عليهما السلام، ويتبرك بالرواية عنهما. هذا مع بقاء أجواء السلطة متحركة ضاغطة في هذه الحلبة العلمية أيضا[٧]، اذ لم يكن من مصلحة السلطة أن تبقى الاجواء العلمية خالية من تاثيرها وصافية لأهلها من أهل العلم والبحث، ولذا زرعوا فيها أو اشتروا منها ضمائر رخيصة ارتبطت بالسلطة وعادت هي الجهة الرسمية التي تعترف بها السلطات كمصادر للإفتاء[٨].

الا أن المحصلة النهائية لهذه المسألة هي الهزيمة المنكرة للخلفاء أمام الشرعية العلمية للاسلام المتمثلة بأئمة الهدى عليهم السلام.. إذ تمنكوا من سلب الخلفاء ما تقمصوه من رداء التشريع ظلما وعدوانا. وتمكنوا من تحويل الصراع على التشريع من صراع بينهم وبين فريق السلطة.. الى خلاف بين تلامذتهم وربيبي مدرستهم من جهة، وبين فقهاء فريق الخلافة من جهة أخرى.

---

(٧) حتى وصل الأمر في بعض الأزمنة أن يكني الراوي عن اسم الإمام علي عليه السلام بأبي زينب فيقول حدثني أبو زينب ولم يجرؤ أن يصرح باسمه، قال الشيخ المفيد في الإرشاد - ١ / ٣١٠ في فصل ومن آياته عليه السلام وبيناته التي انفرد بها ممن عداه، ظهور مناقبه في الخاصة والعامة؛ وفيما انتهى إليه الأمر في دفن فضائل أمير المؤمنين عليه السلام والحيلولة بين العلماء ونشرها، ما لا شبهة فيه على عاقل، حتى كان الرجل إذا أراد أن يروي عن أمير المؤمنين رواية لم يستطع أن يضيفها إليه بذكر اسمه ونسبه لم تدعوه الضرورة إلى أن يقول: حدثني رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، أو يقول: حدثني رجل من قريش، ومنهم من يقول: حدثني أبو زينب. راجع: شرح نهج البلاغة ٤/ ٧٣.

(٨) جاء في شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٣٦١: إن معاوية أعطى سمرة بن جندب أربعمائة ألف درهم من بيت المال على أن يخطب في أهل الشام بأن الآية (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥ إنها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام وإن الآية (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله) نزلت في ابن ملجم قاتل أمير المؤمنين علي عليه السلام أخرج الطبري من طريق محمد بن سليم قال: سألت أنس بن سيرين: هل كان سمرة قتل أحدا ؟ قال: وهل يحصى من قتل سمرة بن جندب ؟ استخلفه زياد على البصرة وأتى الكوفة فجاء وقد قتل ثمانية آلاف من الناس، فقال له معاوية: هل تخاف أن تكون قد قتلت أحدا بريئا ؟ قال: لو قتلت إليهم مثلهم ما خشيت، أو كما قال. قال أبو سوار العدوي: قتل سمرة من قومي في غداة سبعة وأربعين رجلا قد جمع القرآن.

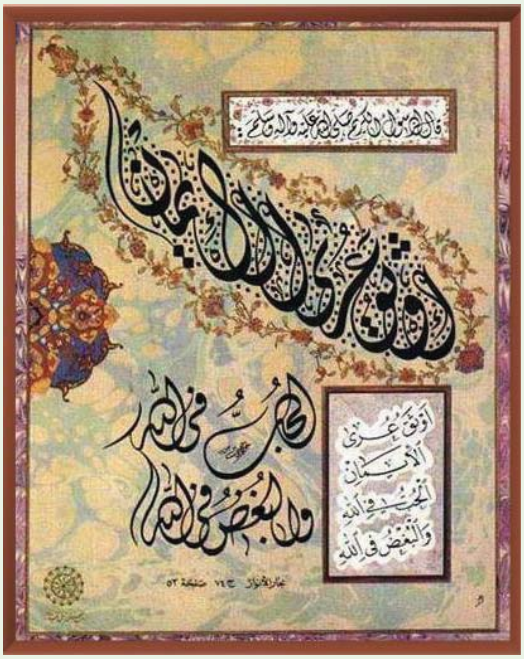

إن إخراج الصراع من تلك الدائرة الى دائرته الفعلية. وان كان يبدو أنه لم يغير الكثير من الأمر، فإن فقهاء الخلافة لم يهنوا في التحريف والاضلال لأتباعهم تمشيا مع رغبة الحكام[٩]، الا أننا نقول: إن الفقيه منهم حتى مع كونه فقيه سلطة وعالم بلاط، لن يستطيع تعدي موازين معينة درج عليها أهل العلم وتداولتها الايدي كابرا عن كابر، الأمر الذي لا يمكن لأحد مهما كان متهتكا وتابعا للسلطان أن يتجاوزه ويهمله. وإذا حصل أن تجاوز أحدهم تلك الحدود المرسومة بين العلماء المخالفين (والتي ساهم أهل البيت عليهم في رسمها وتكونها) فلن يعود نافعا للسلطان، ولن يعود مجديا للسلطة، فعالم متهتك لا يتبعه العوام ولا يحترمه العلماء، هو أشبه بالورقة المحروقة.

ثالثاً: الانصراف بكل إمكاناتهم، إلى بث علوم الشريعة بين الناس ضمن دوائر ثلاث:

الأولى: الدائرة العامة التي تشمل مخالفيهم سياسيا وعقائديا. إذ بذلوا من علومهم بين عموم الناس بلا تفرقة بين عارف للحق أو منكر. ما جعل

---

(٩) لقد أشار الإمام الصادق عليه السلام في حديث له حول تأثير خطط الفريق الحاكم على فقهائهم وما حصل من تحريف وتشويه لأصول الشريعة ففي تفسير العياشي ج٢ ص٣٣١ من رواية طويلة أنه قال: (يظن هؤلاء الذين يدعون أنهم فقهاء وعلماء أنهم قد أثبتوا جميع العلم والفقه في الدين مما تحتاج هذه الأمة إليه وصح لهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعلموه ولفظوه، وليس كل علم رسول الله علموه ولا صار إليهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله ولا عرفوه، وذلك أن الشيء من الحلال والحرام والأحكام يرد عليهم فيسألون عنه ولا يكون عندهم فيه أثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ويستحيون أن ينسبهم الناس إلى الجهل، ويكرهون أن يسألوا فلم يجيبوا الناس فيطلبوا العلم من معدنه فلذلك استعملوا الرأي والقياس في دين الله وتركوا الآثار ودانوا الله بالبدع، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (كل بدعة ضلالة) فلو أنهم إذ سئلوا عن شيء من دين الله فلم يكن عندهم منه أثر عن رسول الله ردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم من آل محمد عليهم السلام، والذي منعهم من طلب العلم منا العداوة والحسد لنا).

مدرسة الامام الصادق عليه السلام تغص بطلاب العلم من جميع المشارب الفكرية والسياسية[١٠].

ان مثل هذا الاهتمام من الأئمة عليهم السلام كان منشأ للتقليل من الفجوة الحاصلة بين المذاهب الفكرية والفقهية من جهة، وبينها وبين المذهب الحق من جهة أخرى.اذ جعل أكثر أهل العلم من تلك المذاهب أما من المستفيدين مباشرة من مدرستهم وعلومهم، أو على الأقل من المتأثرين والمراعين للموازين التي أسستها تلك المدرسة. مما جعل موازين العلم والفقه محكومة بشكل وبآخر، بضوابط عامة لا يستطيع الفقهاء مهما اختلفوا أن يفارقوها بالكلية. لأن الأئمة عليهم السلام فرضوا على أجواء المذاهب الاسلامية، بقوة شخصيتهم العلمية، جملة من تلك الضوابط التي تعد صمام أمان لعملية الاستنباط الفقهي ولعملية النتاج الفكري العقائدي.

من تلك الضوابط مثلا، عدم تجاوز نصوص القرآن الكريم، وعدم الاجتهاد في مقابل النص الواضح، كما كان يرتكب في زمن عمر، حيث كان يجعل لنفسه ـ تبعا لسلفه ابي بكر ـ الحق في مخالفة صريح الأوامر النبوية[١١]، ونصوص الكتاب الكريم[١٢]. حتى اذا مضى أكثر من قرن من الزمان، عاد

(١٠) جمع أصحاب الحديث الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف رجل. المفيد: الإرشاد ص ٢٧٠. وعدد الطوسي في رجاله ص ١٤٢: ٣٠٤٠ رجلا من أصحاب الصادق الذين رووا عنه. وروى الأصبهاني في حلية الأولياء ٣ / ١٩٨: أن من حدث عن جعفر الصادق من الأئمة الأعلام: مالك بن أنس وشعبة بن الحجاج وسفيان الثوري وابن جريج وعبد الله بن عمرو وروح بن القاسم وسفيان بن عيينة وسليمان بن بلال وإسماعيل بن جعفر كما روى عنه الشافعي وأحمد بن حنبل وعمرو بن دينار وذكر ابن شهرآشوب أن أبا حنيفة كان من تلامذة الصادق.

وينظر: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر، و المبادئ العامة للفقه الجعفري لهاشم معروف الحسني.

(١١) ومنها ما أخرجه ما أخرجه البخاري بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عن ابن عباس. قال: لما حضر رسول الله صلى الله عليه وآله وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب. قال النبي صلى الله عليه وآله: « هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده. فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتابا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول: ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: قوموا عني قال عبيد الله بن عبد الله بن مسعود: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم.

راجع: صحيح البخاري ٧/ ٩ و٨/ ١٦١ وصحيح مسلم في آخر كتاب الوصية ٥/ ٧٥ ط ومسند أحمد ٤/ ٣٥٦ ح٢٩٩٢.

(١٢) أخرج البخاري ومسلم في التيمم من صحيحيهما عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي عن أبيه: أن رجلا أتى عمر فقال: إني أجنبت فلم أجد ماء فقال: لا تصل ـ وكان عمار بن ياسر إذ ذاك حاضرا ـ فقال: عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمعكت في التراب وصليت، فقال النبي صلى الله عليه وآله: إنما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثم تنفخ ثم تمسح بهما وجهك وكفيك. فقال عمر: اتق الله يا عمار. قال: إن

علماء فريق الحكم الى تأويل ما ابتدعه عمر وأحدثه وصاحبه في أحكام الإسلام، وتخريجه على الأدلة القرآنية وعلى أحاديث النبي ﷺ. وهم يؤكدون أن ما أتى به عمر لم يكن اجتهادا في مقابل النص ولا مخالفة صريحة للقرآن الكريم، بل كان تأولا لبعض الآيات أو الروايات النبوية[١٣]. وهذا ما يعد تراجعا واضحا عن خطط الطبقة الأولى من فريق الحكم، التي خططت لجعل تشريعات الخلفاء في عرض السنة والكتاب. لا مفسرة لهما ولا في طولهما.

وإذا بفقهاء هذا الفريق بعد أكثر من قرن من الزمان أو أكثر يعودون ليلتمسوا لأصحابهم الاوائل الأعذار والمبررات في مخالفة الأحكام القرآنية والنبوية، ويحاولون بكل ما أوتوا من بيان وقدرات عقلية تخريج أفعال وأقوال الخلفاء الأوائل على مخارج تنسجم مع الالتزام بالكتاب والسنة ومع مبدأ: (أنه لا تشريع الا ما كان من الكتاب والسنة النبوية. ولا مجال لبقية البشر أن يتدخلوا في ذلك).

وهكذا عادت للكتاب والسنة مكانتهما الطبيعية في التشريع الإسلامي. مع أن التحريفات المرتكبة من قبل فريق الحكم، لم يتم ازالتهما نهائيا ولا جزئيا من الفقه الإسلامي، إلا أن تخريج تلك التحريفات اختلف اختلافا كبيرا هو في النتيجة لصالح الكتاب والسنة، وكم سيكون الفرق كبيرا بين أن يتم الالتزام بتلك التحريفات بما أنها آراء للخلفاء، وبين أن يتم الالتزام بها بما هي فهم للخلفاء للكتاب والسنة. الأمر الذي سيحفظ موقع هذين المصدرين المقدسين للشريعة من أن يضاف اليهما

شئت لم أحدث به!. فقال عمر نوليك ما توليت.

وهذه مخالفة صريحة للآية: (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه).

راجع: صحيح البخاري ١/ ٨٧، لمسلم صحيح مسلم كتاب الطهارة باب التيمم ١/ ١٩٣، الطرائف لابن طاووس ص٤٦ عن الجمع بين الصحيحين، سنن أبي داود ١/ ٥٣، سنن ابن ماجة ١/ ٢٠٠، مسند أحمد ٤/ ٢٦٥، سنن النسائي ١/ ٥٩ و٦١، سنن البيهقي ١/ ٢٠٩، الغدير ٦/ ٨٣.

(١٣) ومنها راجع: مناظرات القاضي عبد الجبار المعتزلي مع السيد المرتضى في كتاب الشافي.

عنصر غريب دخيل لا يمكن السيطرة عليه ليكون في عرضهما وقد يكون أحيانا مقدما عليهما بذريعة مصالح الزمان والمكان.

إن ما نراه الآن من مشتركات بين المذهب الحق وبين المذاهب المختلفة، إنما هو من ثمرات جهود الائمة الاطهار عليهم السلام في بث الحقائق في أوساط علماء الطوائف المختلفة وابقائهم ضمن الدوائر المعقولة التي يحفظ معها أصل عقائد الاسلام والتوحيد، وعدم تركهم سدى ليشطوا في الخلاف.

وقد ورد في الرواية عن الامام الصادق (صلوات الله عليه) أنه ما من حق في ايدي الناس الا وكان أصله من علي بن أبي طالب، وما كان من باطل فهو منهم[١٤].

الثانية: دائرة الشيعة بالمعنى الأعم، الذين كانوا يؤمنون بامامتهم وفرض طاعتهم، ولكنهم على مستوى لا يتحمل أكثر من بيان الأساسيات، فكانوا يخاطبونهم على قدر استيعابهم وبقدر ما يصلح دينهم ودنياهم، دون أن يكلفوا حفظ الامانة العلمية التي تتطلب مستوى خاص من القابلية والاستيعاب والإيمان. إلا أن هذه الطبقة حملت مسؤولية خطيرة من نوع آخر، وهي مسؤولية الدفاع عن ثوابت الدين والمذهب، بالمال والنفس. وقد أثبتت هذه الطبقة استعدادها الدائم للتضحية في مقاطع تاريخية عديدة. منها ما كان يجري من فتن طائفية في بغداد في القرن الخامس الهجري، كانت تطال مساجد الشيعة وعلماءهم، كالتي جرت في زمن الشيخ الطوسي رحمه الله. حيث كانت هذه الطبقة هي المدافع الأساسي عن الوجود العلمي والاجتماعي للشيعة.

الثالثة: دائرة مواليهم وأتباعهم المؤمنين بفرض طاعتهم والمقرين لهم بالمنزلة الخصيصة. فكانوا صلوات الله عليهم يختصون جملة منهم - ممن يحمل القابلية الذهنية والنفسية الكافية لتحمل أعباء العلم - بالعلم الموروث عن النبي الكريم صلى الله عليه وآله. ولا شك أن ما كان يحصل عليه أولئك الخواص من علم كان في الدرجة العالية من الوضوح والدقة والشمول. إذ لم يكن بينهم وبين هذه الطبقة من الاصحاب أي حاجب من تقية أو غيرها، من العوامل التي قد توجب الاجمال في البيان أو الاعراض عن بيان بعض التفاصيل.

فاستطاعوا (صلوات الله عليهم) أن يربوا أجيالا من حملة الفقه النبوي الصحيح نقلت الأمانة كابراً عن كابر. ويكفي أن تراجع ما ذكره الكشي رحمه الله عن طبقات أصحابهم الذين وصفهم الامام الصادق عليه السلام بأنهم أمناء الله على حلاله وحرامه ■

---

(١٤) ونص الرواية كما في بصائر الدرجات:ص ٥٣٩: عن محمد بن مسلم قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول أما انه ليس عند أحد علم ولا حق ولا فتيا إلا شيئا اخذ عن علي بن أبي طالب عليه السلام وعنا أهل البيت و ما من قضاء يقضى به بحق وثواب إلا بدا ذلك ومفتاحه وسببه وعلمه من على و منا فإذا اختلف عليهم أمرهم قاسوا وعملوا بالرأي وكان الخطاء من قبلهم فإذا قاسوا وكان الصواب إذا تبعوا الآثار من قبل علي عليه السلام.

حقائق عن المهدي المنتظر

(عجل الله تعالى فرجه الشريف)

توفيق مرتضى الوائلي •
باحث وكاتب

المحور الأول

ينابيع

أحاديث النبي صلى الله عليه وآله الشريفة عند أهل السنة:

يقول الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه:

ولما رأيت الناس قد ذهبت بهم
مذاهبهم في أبحر الغي والجهل
ركبت على اسم الله من سفن النجا
وهم أهل بيت المصطفى خاتم الرسل
وأمسكت حبل الله وهو ولاؤهم
كما قد أمرنا بالتمسك بالحبل
أبوهم أبو السبطين أول ذحلهم
وخاتمه المهدي في آخر الوصل

إن أحاديث المهدي عليه السلام متواترة عند فرق المسلمين، ورواتها من أئمة المنقول

وحفاظ السنة، وقد دونوها.

يقول ابن خلدون في مقدمته وفي الفصل الخاص بـ(الفاطمي المنتظر): (اعلم أن في المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار أنه لابد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت...).

أما الأحاديث التي دونها أهل الثقة من رجال المنقول فهي كثيرة أعرض لبعض أعدادها عند المذاهب الأربعة فيما يأتي:

١ـ أربعون حديثاً خرّجها الحافظ أبو نعيم في كتابه (ذكر نعت المهدي)، وقد رواها الإربلي في كتاب (كشف الغمة).

٢ـ ثمانية وثلاثون حديثاً ذكرها ابن خلدون في مقدمته لينقدها.

٣ـ سبعون حديثاً خرّجها الحافظ الكنجي محمد بن يوسف في كتاب (البيان).

٤ـ مائة وعشرة أحاديث رواها صاحب كتاب (كشف المخفي في مناقب المهدي).

٥ـ مائة وخمسة وستون حديثاً في كتاب (غاية المرام).

٦ـ في (ينابيع المودة) ما يتجاوز المائتي حديث.

أما العلماء الذين شهدوا بتواترها فهم كثيرون ومنهم:

١ـ الحافظ الكنجي المتوفى سنة (٦٥٨هـ) في كتاب (البيان).

٢ـ أبو الحسين الآبري كما نقل عنه ابن حجر العسقلاني في (الصواعق المحرقة) ص٩٩.

٣ـ السيد مؤمن الشبلنجي في كتاب (نور الأبصار) ص٢٣١.

٤ـ زيني دحلان المتوفى سنة (١٣٠٤هـ) في كتاب (الفتوحات الإسلامية) ص٣٢٢.

٥ـ السيد محمد بن رسول البرزنجي المتوفى سنة (١١٠٣هـ).

٦ـ السيد جمال الدين عطاء الله بن السيد فضل الله الشيرازي المتوفى سنة (١٠٠٠هـ).

٧ـ أحمد بن محمد بن الصديق في (إبراز الوهم المكنون).

٨ـ الإمام الشوكاني المتوفى سنة (١٢٥٠هـ) في كتاب (التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح).

في ص٩٧ من كتاب (الصواعق المحرقة) حدث الحافظ أحمد بن حجر الشافعي عن مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجة والبيهقي قول النبي ﷺ: (المهدي من عترتي من ولد فاطمة).

خرج مسلم في صحيحه في باب نزول عيسى عليه السلام قول النبي ﷺ: (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) ونقله الكنجي في (البيان) عن البخاري.

وروى مسلم عن النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقول: أميرهم تعال صل بنا، فيقول: لا... إن بعضهم على بعض أمراء تكرمة الله لهذه الأمة).

وفي صحيح مسلم: (لا يزال هذا الدين قائماً حتى تقوم الساعة ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش).

وفي البخاري: (يكون بعدي اثنا عشر أميراً كلهم من قريش).

المحور الثاني

عيشه عليه السلام لمئات السنين:

ومنه ما ورد في القرآن الكريم عن عمر نوح عليه السلام: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ

عَامًا...). ويعلم الله وحده كم كان عمره قبل الطوفان وكم استمرت حياته بعد الطوفان!!!

ونظير ذلك عن المسيح عليه السلام: (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ... بَل رَّفَعَهُ اللّه إِلَيْهِ وَكَانَ اللّه عَزِيزًا حَكِيمًا).

أما عن التاريخ وما ورد في التراث فهناك العديد من القصص التي تتحدث عن المعمرين منها ما يأتي:

١- قصة لقمان بن عاد الذي عاش عمر سبعة نسور حتى قالت العرب: (طال الأبد على لبد)، وقول النابغة الذبياني فيه: (أخنى عليها الذي أخنى على لبد) ولبد هو آخر النسور السبعة التي عاش عمرها لقمان عليه السلام، إذ يقول فيه الأعشى:

وأنت الذي ألهيت قيلاً بكأسه
ولقمان إذ جاوزت لقمان في العمر
لنفسك إذ تختار سبعة أنسر
إذا ما مضى نسر خلوت إلى نسر
فعمر حتى خال أن نسوره
خلدن وهل تبقى النفوس على الدهر
وقال لأدناهن إذ حل ريشه
هلكت وأهلكت ابن عاد وما تدري

ويقول لبيد في ذلك:

ولقد جرى لبد فأدرك جريه
ريب المنون وكان غير مثقل
لما رأى لبد النسور تطايرت
رفع القوادم كالفقير الأعزل
من تحته لقمان يرجو نهضة
ولقد يرى لقمان أن لا يأتلي

والنسر من أطول الحيوانات عمراً ويقول المؤرخون أن لقمان بلغ خمسمائة وستين سنة. وقيل أضعاف ذلك، كما يقولون أن قس بن ساعدة الأيادي عاش سبعمائة سنة.

٢- ويقول الربيع بن ضبيع الفزاري:

أصبح مني الشباب قد حسرا
إن ينأ عني فقد ثوى عُصرا
ها أنا ذا آمل الخلود وقد
أدرك عقلي ومولدي حجرا

ويقصد حجراً الكندي أبا امرئ القيس، عن كتاب (بلوغ الأرب) ج٣ ص١٦٦.

وهو الذي يقول لعبد الملك بن مروان في أيام خلافته: (عشت مائتي سنة في فترة عيسى عليه السلام وعشرين ومائة في الجاهلية وستين في الإسلام).

٣- ومن المعمرين دريد بن زيد بن نهد القائل:

ألقى عليه الدهر رجلاً ويدا
والدهر ما أصلح يوماً أفسدا
يفسد ما أصلحه اليوم غدا

وقد بلغ من العمر أربعمائة وستة وخمسين سنة. (أمالي السيد المرتضى ج١ ص١٧١).

٤- ومن المعمرين عبد المسيح بن بقيلة الغساني القائل:

حلبت الدهر أشطره حياتي
ونلت من المنى فوق المزيد
وكافحت الأمور وكافحتني
فلم أحفل بمعضلة كنود
وكدت أنال في الشرف الثريا
ولكن لا سبيل إلى الخلود

وقد عاش ثلاثمائة وخمسين عاماً. (أمالي السيد المرتضى ج١ ص١٨٨).

٥- ومن المعمرين أكثم بن صيفي بن رباح التميمي. أحد حكام العرب المشهورين وقد عاش ثلاثمائة وثمانين سنة.

٦- ومن المعمرين الحارث بن مضاض

الجرهمي القائل:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر

وقد عاش أربعمائة سنة.

٧- ومن المعمر بن المستوغر عمر بن ربيعة بن كعب، القائل:

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة أتت من بعدها مئتان لي
وازددت من عدد الشهور سنينا
هل قد بقى إلا كما قد فاتنا
يوم يكر وليلة تحدونا

وعمره ثلاثمائة وعشرون عاماً وقيل أكثر من ذلك. (أمالي السيد المرتضى ج١ ص١٦٩).

فيما يروي المسعودي في كتابه (مروج الذهب) في الجزء الثاني منه تحت باب (ذكر اليمن وملوكها ومقدار سنيها) الكثير من المعمرين منهم:

١- سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان وهو أول ملوك اليمن، وكان ملكه أربعمائة وأربعاً وثمانين سنة.

٢- كهلان بن سبأ، وكان ملكه ثلثمائة سنة.

٣- أبو مالك عمرو بن سبأ وكان ملكه ثلاثمائة سنة.

٤- أبرهة بن الرائش، وكان ملكه مائة وثمانين سنة.

٥- تبع الأول وكان ملكه أربعمائة سنة.

٦- كليكرب بن تبع وكان ملكه ثلاثمائة وعشرين سنة.

٧- يوسف ذو نواس بن زرعة بن تبع الأصغرين حسان بن كليكرب وكان ملكه مائتين وستين سنة.

وأحاديث الخضر عليه السلام مشهورة، ناهيك عن عمر أهل الكهف وكم لبثوا فيه، فقد لا يستدل بهم ومع ذلك فقد كانوا أحياءً في كهفهم الذي هيأه الله لهم حيث تدخل إليهم الشمس لكي لا تتعفن أجسادهم من طول النوم وأن هناك ملائكة تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال من أجل راحتهم في منامهم الطويل.

والتجارب الآن قائمة على قدم وساق لإنتاج ثلاجة يتكيف معها الإنسان ليعمر في داخلها بحالة سبات وخاصة للمرضى بأمراض فتاكة مثل السرطان - عافاكم الله - من أصحاب الأموال الكبيرة فيدخلون فيها وتغلق عليهم لحين اكتشاف دواء ناجح لهم فيخرجون من ثلاجاتهم حسب ما يقول العلماء.

ولا نستشهد بعمر إبليس اللعين لأنه ليس من البشر، أضف إلى ذلك أن العلم الحديث أثبت إمكانية تعمير الإنسان ألوفاً من السنين.

المحور الثالث

احتجابه عليه السلام:

وقد ورد ذلك ضمناً في المحورين الأول والثاني في احتجاب الخضر عليه السلام وعيسى بن مريم عليه السلام، وقد احتجب موسى عليه السلام أربعين ليلة. وما يذكر عن احتجاب آصف بن بلخيا وعن احتجاب النبي صلى الله عليه وآله في عار حراء، واحتجابه صلى الله عليه وآله في شعب أبي طالب لمدة ثلاث سنين.

والحمد لله رب العالمين الذي لا يطلع على غيبه أحداً والصلاة على نبيه الأمين أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين ■

المهدوية

في عصر الإمام الرضا عليه السلام

علي سعد النجفي •
باحث في سيرة الإمام الرضا عليه السلام

ينابيع

تعتبر قضية الإمام المهدي (عجل الله فرجه) من القضايا التي أخذت حيزاً مهماً في تفكير المجتمع الإسلامي وبالأخص في زمن الدولة العباسية حيث برزت ظاهرة إدعاء المهدوية في فترات متعددة ويعزى ذلك إلى عدة أمور منها:

١ـ شدة الظلم والجور الذي لحق الناس من طغاة بني أمية مما جعل الناس يترقبون الفرج.

٢ـ استغلال بني العباس لكثير من الأمور المتعلقة بالفرج وعلامات آخر الزمان فأصبح لهذه القضية رواجاً واسعاً كرفعهم للرايات السود محاولة منهم لتطبيق ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله بهذا الأمر.

٣ـ إدعاء المنصور العباسي بأن ولده هو المهدي وهو المعني بروايات الرسول صلى الله عليه وآله.

٤ـ جور بني العباس جعل من المستضعفين والمظلومين يترقبون ظهور الإمام عليه السلام في كل وقت وحين.

هذه الأمور وغيرها من الأمور الأخرى جعلت من قضية الإمام المهدي عليه السلام قضية بارزة لذلك نرى كثرة من ادعى المهدوية أو من نسبت إليه في هذه الفترة ـ العصر العباسي الأول ـ ولعل هذه القضية قد بدت واضحة في عهد الإمام الرضا عليه السلام حيث

اثيرت هذه المسألة في فترة إمامته أكثر من غيره من الأئمة عليهم السلام الذين سبقوه.

ففي بداية إمامته ظهرت جماعة تدعي بأن الإمام الكاظم عليه السلام هو الإمام الغائب وأنه حي يرزق ولم يمت وهو القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله وأن غيبته كغيبة موسى بن عمران عن قومه وأنه هو المهدي الموعود الذي ذكرته الروايات، وقد أشاع هذه الفكرة جماعة من وكلاء وأصحاب الإمام الكاظم عليه السلام منهم علي بن أبي حمزة البطائني، وزياد بن مروان القندي، وعثمان بن عيسى الرؤاسي وغيرهم.

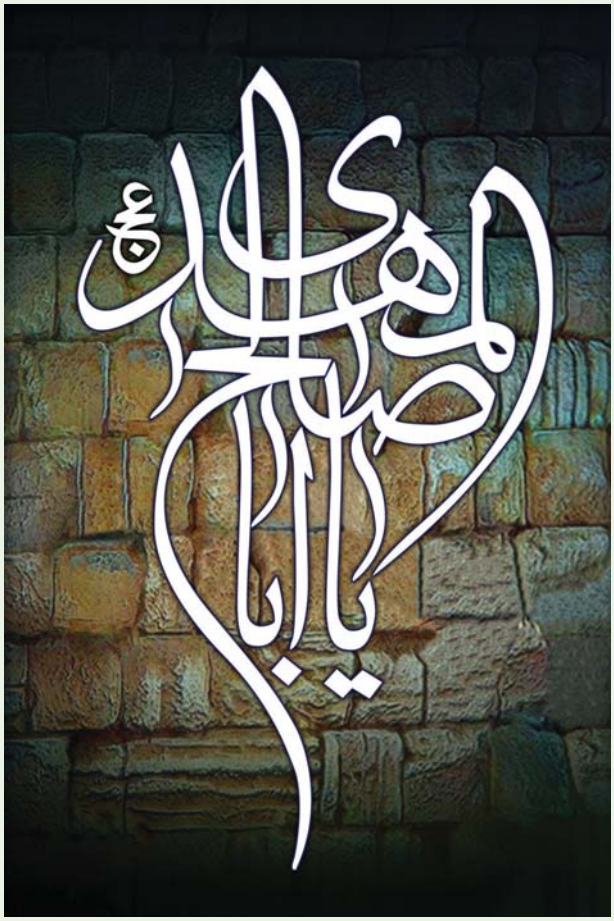

ويعتبر هؤلاء الثلاثة من أوتاد هذا المذهب وأظهروا الاعتقاد به والدعوة له حيث إنهم كانوا وكلاء للإمام الكاظم عليه السلام وخزنة أمواله التي تجبى إليه من شيعته فأبوا تسليمها إلى ولده الإمام الرضا عليه السلام فاخترعوا هذه القضية.

وقد واجه الإمام عليه السلام هذه الطائفة (مواجهة شديدة لأنه هو الوحيد الذي افتتن الشيعة في عصره على مستويات عالية جداً من هذا التوجه المضاد لإيقاف النص وتعطيل الإمامة بمفهومها الحقيقي فتبين أنه إن لم يصدع بهذا الأمر فإن أمور الشيعة تصل إلى الأمر الذي لا تحمد عقباه وبالنتيجة تكون الخسارة كبيرة لا تعوض) وقد استخدم الإمام عليه السلام شتى الأساليب في مواجهتهم منها:

١ـ المناظرة معهم وإلقامهم الحجج الدامغة كمناظرة المكاري والبطائني وغيرهم من أوتاد الواقفة.

٢ـ النهي عن مجالستهم فقد (روى الكشي عن محمد بن عاصم قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: يا محمد بن عاصم بلغني أنك تجالس الواقفة، قلت: نعم جعلت فداك أجالسهم وأنا مخالف لهم، قال عليه السلام: لا تجالسهم فإن الله عز وجل يقول: (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ

آيَـات اللّه يُكَفَـرُ بِهَـا وَيُسْـتَهْزَأُ بِهَـا فَلاَ تَقْعُـدُواْ مَعَهُـمْ حَتَّـى يَخُوضُواْ فِـي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ)).

٣ـ المحاربـة الاقتصاديـة لهم، (وروى الكشـي بسـنده عـن يونـس بـن يعقوب قال: قلت لأبي الحسـن الرضاعليه السلام: أعطي هـؤلاء الذيـن يزعمـون أن أبـاك حي من الزكاة شـيئاً، قـال عليه السلام: لا تعطهم فإنهم مشركون زنادقة).

والدعوة الثانية أثارها محمد بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام فبعد ثورة العلويين في الكوفة بقيادة أبي السـرايا سنة (١٩٩هـ) ضد بني العباس واتساعها في مناطق أخرى كالحجاز واليمن وبعد فشـل الثورة وقتل قادتها ثـار محمد بن جعفـر الصادق عليه السلام في الحجاز وادعى بأنه صاحب الأمر والقائم مـن آل محمد صلى الله عليه وآله ولم يكتـف بذلك حتى ادعـى أمرة المؤمنين وقد أرسـل المأمون العباسـي إليـه جيشـاً فقضـى علـى ثورته وقبض عليه وحمله إلى خراسـان في سـنة (٢٠٠هـ) وكان موقـف الإمام الرضاعليه السلام من عمه على النحو التالي:

١ـ نصيحته:

فبعد أن خرج محمد بن جعفر عليه السلام ودعى إلى نفسـه ودعي بـ(أمير المؤمنين) وبويع له بالخلافـة دخل عليه الإمـام الرضاعليه السلام وقـال له: (يا عم لا تكذب أباك ولا أخاك فـإن هـذا الأمر لا يتم)، ولـم يأخذ محمد بنصيحـة الإمـام عليه السلام ولـم يلبـث إلا قليلاً حتى قدم الجلـودي فلقيه وهزمه، ثم خلع نفسه.

٢ـ مقاطعته:

لكـي لا يصدقه النـاس فيما يدعيه، (فعـن عمير بـن يزيـد قال: كنـت عند أبي الحسـن الرضاعليه السلام فذكر محمد بن جعفـر فقال عليه السلام: إني جعلت على نفسـي أن لا يظلنـي وإياه سـقف بيت، فقلت في نفسـي: هذا يأمرنا بالبر والصلة، ويقول هـذا لعمه!، فنظر إليّ فقال عليه السلام: هذا من البـر والصلة إنـه متى يأتنـي ويدخل عليّ فيقول فيّ يصدقـه الناس، وإذا لم يدخل علـيّ ولـم أدخل عليـه، لم يقبـل قوله إذا قال).

والدعـوى الثالثـة بعـد تعييـن الإمـام الرضـاعليه السلام وليـاً للعهـد حيث ظـن بعض شـيعته وأصحابه بأن الإمـام عليه السلام هو الذي سيسـتلم الحكـم وهـو الـذي سـيملأها قسـطاً وعدلاً، (فعـن أيوب بن نـوح قال: قلت لأبي الحسن الرضاعليه السلام إني أرجو أن تكون صاحب هذا الأمر وأن يسـوقه الله إليك بغير سـيف، فقد بويـع لك وضربت الدراهم باسـمك، فقال عليه السلام: مـا منا أحد اختلف إليه الكتب، وأشـير إليه بالأصابع وسئل عن المسائل وحملت إليه الأموال إلا أغتيل أو مات على فراشـه حتى يبعث الله لهذا الأمر غلاماً منا خفي الولادة والمنشأ غير خفي في نسبه).

ونلاحظ من خـلال الروايات الصادرة عن الإمام عليه السلام بعد البيعة أنه قد أكثر فيها مـن الإخبار عن الأئمة من بعده بأسـمائهم حتـى آخرهـم الإمـام المهـدي (عجل الله فرجـه) وزيـارة السـيدة معصومـة عليها السلام الصـادرة عن الإمـام عليه السلام خيـر دليل على ذلـك لكي لا يقع الشـيعة في شـبهة أثناء حياته ■

المصادر:

١ـ الواقفية دراسة وتحليل.
٢ـ الجامع لرواة الإمام الرضاعليه السلام.
٣ـ رجال الكشي.

المهدي المنتظر

كما عرفه علماء الغرب

عرض وتوجيه

حسين جهاد الحساني •
مركز الأمير لإحياء التراث الإسلامي
في مكتبة الإمام أمير المؤمنين العامة

ينابيع

كثير هم الذين كتبوا عن إشكالية الاستشراق أو علماء الغرب يرجعون أسباب نشوئه إلى عوامل مختلفة، الغرض منها مد جسور المعرفة بين جميع جوانبها الدينية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

ومهما يكن الرأي في الاستشراق بين مدح أو قدح فإن هناك التقاء بين المنصفين على أمور:

أولها: أن الاستشراق انبثق من أفكار تبشيرية، هي من وجهة نظرنا ـ المسلمين ـ تخريبية تهدف إلى مهاجمة حصوننا من داخلها.

ثانيها: أن المستشرقين كانوا أساتذة بارعين في التحقيق والتدقيق والغوص في التراث فضلاً عن إظهار كثير من كتب المسلمين إلى النور، بغض النظر في أغراضهم وعن نواياهم وتباين هذه الأغراض التي قد تخلوا في أحايين قليلة أو كثيرة من الشوائب والهدف العلمي المحض.

وبالنتيجة ليس في الرأيين من تعارض واضح وصريح، فإن واقع الحياة اليومية مليء بالأمثلة، على أنك قد تقصد هدفاً

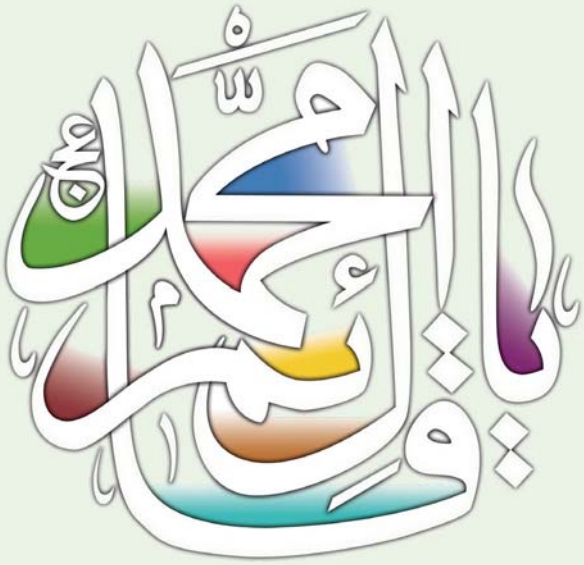

مـا ثم يلتوي بك الطريـق إلى هدف آخر مغاير.

وهكـذا وجدنـا بيـن علمـاء الغرب (المستشرقين) من نمت عنده رغبة دراسة التـراث العربي، فتأثر به وأخلص له، بل نرى منهم من اعتنق الإسلام ديناً وتسمى بأسماء العرب والمسلمين.

ولأهميـة الأثريـن اللذيـن ظهـرا للاستشراق والمستشـرقين في السياسة والفكـر كان حتماً أن يعنى المؤلفون بهذين الأثرين، ومـا ينتج عنهما من آثار فرعية كثيرة. إن دراسـة الاستشراق أو كتابـات علماء الغرب لـم تكن بالأمر الهيـن، بـل يجـب أن تخضـع للفحـص والتحليل من جانب والرؤية الواضحة من جانـب آخـر، ولابد أن يجمـع هذا الأمر بين الكتابة والكاتب.

والغرب الذي طالما استفاد من علوم الإسـلام وحضارته، وانتفـع بها، والذي تعد مدنيته مدينة للمدنية الإسـلامية منذ عهـد طويـل بديون كثيـرة، ممـا حتم على علمائـه تبيان كيف عملت الحضارة الإسـلامية أعمالاً جـادة من أجـل التقاء الحضارات وامتـزاج الثقافـات والإفادة مـن كل مـا وصلت اليـد الإنسـانية في تاريخها الطويل من أجل رفاهية الإنسـان واستمرار تقدمه.

لـذا فقد قامت جامعـات غربية بعمل دؤوب فـي البحـث والتنقيـب عـن نبينا الكريم ﷺ وأهل بيته وأصحابه، وإظهار الصورة الحقيقيـة الروحية والعلمية لهذه النخبـة، فقـد كانـت فـي مقدمـة تلك الجامعـات مثـلاً، جامعة (ستراسـبورغ) الفرنسـية والتـي قامت بأعمـال كثيرة مـن أجل خدمـة الدراسـات الإسـلامية والشـرقية، وكذلك جامعة (كامبردج) البريطانية، وجامعة (السوربون) وغيرها من الجامعات الأوربيـة والأمريكية، إذ كانـت تولي اهتمامـاً واضحاً في إظهار أئمتنا عليهم السلام بالمظهر الحقيقي والروحي[٢].

لقـد أصبح الاستشـراق اليوم علماً له كيانه ومنهجه ومدارسه وفلسفته ومؤلفاته

وأغراضه وأتباعه ومعاهده ومؤتمراته، فصار حقاً على الباحث أن يعنى بتحديد مفهومه والوقوف على معالمه البارزة وآفاقه ومظاهره وأطواره، كما توجب على علماء ومثقفي الطائفة الشيعية التوجه في توفير المعلومة الصحيحة والحقيقة التاريخية للمستشرقين كما فعل أهل السنة الذين كان لهم الأثر الواضح في كتابات المستشرقين وآرائهم.

ومن هذا المنطلق جاءت فكرة هذا المشروع (الإمام المهدي كما عرفه علماء الغرب)، إذ لم تكن وليدة هذا اليوم، ومنذ زمن ليس بالقصير واكبت حسب ما توفر لي من مصادر حركة الاستشراق وأفكارها المتعلقة بآرائها ونظرياتها في أئمة أهل البيت عليهم السلام عموماً، والإمام الحسين عليه السلام والإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) خصوصاً.

إلا أن هذه الفكرة بقيت حبيسة الأوراق رهينة الظروف فقد شغلت عنها بسبب أعمالي إضافة لمتاعب الحياة العامة.

وإذ نحن نعيش في فترة عصيبة، يتعرض لها شيعة أهل البيت إلى الإبادة من جهة وهجمات فكرية سقيمة من جهة أخرى فاستنهضت العمل بهذه الدراسة من جديد متوكلاً على الله لاستكمالها خلال الأشهر المقبلة إن شاء الله تعالى.

وحقيقة الأمر ما زادني الإصرار على إكمالها، هو الأخ العزيز حيدر الجد مدير تحرير مجلة (ينابيع) الذي أشار عليّ أن أكتب مقالة أو بحثاً صغيراً مبيناً الفكرة الرئيسة للبحث، مع الإشارة لبعض علماء الغرب الذين اهتموا به، ومن الله العون.

الفكرة (المهدي والمهدوية)

أشار علماء الغرب إلى أن فكرة المهدي والمهدوية لم تكن عند المسلمين فقط أو مقصورة عند الشيعة بالخصوص، بل كانت عند كل الديانات والمجتمعات الأخرى، والى هذا يشير (فان فلوتن)[٣] بالإجمال: (إن الاعتقاد بالمهدي لم يكن مقصوراً على الشيعة أو غير الشيعة من فرق المسلمين، إذ أنه اعتقاد شائع في كثير من الديانات الشرقية، لهذا بشّر أنبياء بني إسرائيل بظهور محرر أو مخلص يبعثه الله للتكفير عن خطايا البشر وإنقاذ بني إسرائيل وتخليص العالم، وهو المعنى المقصود بلفظ المسيح إذ يطلق على كل شخص مصلح يتطلع إليه الناس وينتظرون ظهوره... ولازال الكثير من اليهود أو المسيح ينتظرون ظهور هذا المصلح، فمسيحيوا الأحباش ينتظرون ظهور عودة مليكهم ثيودور كمهدي آخر الزمان، وفي الديانات غير السماوية عقائد لا تختلف عن عقيدة المهدي عند المسلمين كثيراً، إذ يعتقد المغول أن تيمورلنك أو جنكيز خان قد وعد قبل موته بعودته إلى الدنيا لتخليص قومه من نير الحكم الصيني... وفي أساطير الفارسية ينظر المجوس إلى أشيدرباني أحد أعقاب زرادشت كمصلح، وفي الديانة المصرية القديمة وكتب الصينيين وعقائد الهند، بل إن عقيدة انتظار مخلص أو محرر قد تجاوزت ديانات الشرق إلى أهالي شبة جزيرة اسكاندناو، وبين الوطنيين المكسيك.

ويقول (فلوتن): (وأما نحن معاشر الغربيين فقد استرعت عقيدة المهدي ـ والمهدي المنتظر بوجه خاص ـ أنظار المستشرقين منا، لما كان لها من الأثر في سياسة الشرق حتى اليوم. ولا تزال بحوث مسيو دار مستيتر وسنوك هرجرنيه عن نظرية المهدي ذات أهمية تاريخية كبيرة).

ويشير (فلوتن): (إن الاعتقاد بظهور مخلص أو المسيح أو غيره أو انتظار رجعته وليد العقل الجمعي في مجتمعات تفكر تفكيراً ثيوقراطياً في شؤونها السياسية، وبين شعوب قاست الظلم ورزحت تحت نير الطغيان سواء من حكامهم أم من غزاة أجانب، فإزاء استبداد الحاكم وفي ظل التكفير الديني تتعلق الآمال بقيام مخلص أو محرر يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً...)[٤].

وقد ربط (جولد تسيهر)[٥] بالاتفاق مع فلوتن أن هذه الفكرة يرجع أمرها إلى أصول يهودية، إذ يرى تسيهر أن اليهود يعتقدون أن النبي إيليا قد رُفع إلى السماء وأنه لابد أن يعود إلى الأرض في آخر الزمان لإقامة دعائم الحق والعدل[٦].

ويرى (هنري ماسيه)[٧] أن فكرة المهدي، محيي العدالة التي ستسبق نهاية الزمان، ظهرت بصورة غير واضحة ومتأخرة نسبياً عند النبيين ويبدو أن هذه الفكرة طبقت أولاً على شخص المسيح ثم على شخص محمد الذي قال: لا نبي بعدي والمهدي الذي يجب أن يحمل أسم النبي ﷺ نفسه ويجب أن يكون تجسيداً لمحمد ﷺ...[٨].

أما فكرة المهدي (عجل الله فرجه) عند المسلمين تاريخياً، فيرى (فلوتن) أن هذه العقيدة قد انتشرت في جزء عظيم من الدولة الإسلامية بقدر تذمر المسلمين وسخطهم، ثم ضعف الدولة الأموية وانحلالها، فظهر الاعتقاد: أن ليس ثمة إصلاح لهذه الأمة إلا على يد أحد الأئمة من آل البيت، حيث أدرك الناس أن الأمويين أصبحوا لا يعتنون إلا بمصالحهم الشخصية دون مصلحة الدين...[٩].

ولعل فكرة الاعتقاد بالمهدي عليه السلام عند المسلمين في رؤى المستشرقين متفقة تقريباً على أنها وليدة ضعف الدولة الأموية إضافة للظلم الذي وقع آنذاك على المسلمين كما سنبين آراءهم لاحقاً، إلا أنها لم تكن بالنظرة الثاقبة لأن المستشرقين أخذوا معلوماتهم عن الطريق الآخر الذي اعتمد على تزييف التاريخ ولكن حقيقة الإمام المهدي ثابتة باتفاق جميع المسلمين إذ لابد من وجود المهدي الذي يخرج آخر الزمان وهو من ولد الحسين عليه السلام، وهنا لا يسعني المجال لسرد جميع الأدلة التي تؤكد ما أشرنا إليه.

ويذهب (جولد تسيهر) في تفسيره لانتشار هذه العقيدة في دوائر أهل السنة فضلاً عن الشيعة بقوله: وهذه العقيدة وما تنطوي عليها من آمال وأمان تظهر في بيئات التقى والورع عند المسلمين كزفرة من زفرات الأسف والانتظار يصاعدونها وهم في غمرات حالة سياسية واجتماعية لا تنقطع ثورة ضمائرهم حيالها...[١٠].

وأشار إلى هذا المعنى (فلوتن) إذ يقول: ومن الجلي أن الاعتقاد بظهور المهدي وانتظاره لم يقتصر بادئ الأمر على آل البيت وحدهم، بل بدأ ذلك

الاعتقاد يذاع وينتشر بين المسلمين على حسب ازدياد نفوذ الشيعة وانتشاره.

ويكمل قوله إذ يؤكد بأن: فكرة المهدي المنتظر قد انتشرت لدى أهل السنة حتى محت ذكر غيره من المهديين ممن كان تنبأ بهم مثل السفياني والقحطاني وغيرهما، ولا شك أن التنبؤ بهؤلاء وانتظارهم لم يتلاش تماماً من نفوس المسلمين، وإنما صار هؤلاء بالنسبة إلى المهدي المنتظر كالدجال بالنسبة إلى عيسى بن مريم...[١١].

إلا أن جلّ المستشرقين يتفقون تقريباً على أن هذه الفكرة والاعتقاد تمركز تمركزاً واضحاً في العقيدة الشيعية، ويظهر جلياً نتيجة لما عانوه من ظلم واستبداد وغصب لحقوقهم وغيرها من قبل الحكومات منذ القرن الأول الهجري....

يقول (جولد تسيهر): إن انتشار فكرة المهدي في الأوساط الشيعية يعد أمراً منسجماً مع معتقداتهم، وأن الإسلام في نظرته الشيعية هو البيئة الملائمة التي ينبغي أن تنمو بها بذور الأماني المهدوية، ذلك أن حركة التشيع منذ بدايتها شكلت جبهة احتجاج واستنكار ضد الحكام جراء أخذهم المناصب بالقهر والغصب، وقد أصبحت الأسرة العلوية ضحية التطاول هذا، في حين أنها وحدها جديرة بالخلافة، وهكذا نمت العقيدة المهدوية عند الشيعة وقويت حتى صارت عصباً حيوياً في مجموعة العقائد الشيعية...[١٢].

ويرى (دوايت) أن انتظار مجيء المهدي عند الشيعة من الاعتقادات الأساسية، وذلك عن طريق الشواهد الكثيرة المستوحاة من الكتاب والسنة... وأمل الشيعة سواء في قلوب سواهم أو ما يقول به علماؤهم أن مجيء المهدي يتم برجعة الإمام الغائب...[١٣].

كما يؤكد ذلك الأمر الباحث الفرنسي (د. جوزيف)[١٤] في مقالة له، إذ يقول: ومن جملة المسائل المهمة السياسية الموجبة لأمل فرقة الشيعة وفلاحها هو الاعتقاد بوجود المهدي، وانتظار ظهوره على وجه بحيث لم يمس أحد منهم إلا ويأمل بظهور المهدي عند الصبح، وهم يعتقدون أن جميع الدول والملل يكونون عند ظهور المهدي من التابعين لهم، ويغلب على الظن أن كل فرد من أفراد الشيعة سلطانها وفقيرها رجالها ونسائها إذا أمسى عليه الليل ينام يأمل أن يصبح وقد أذعنت له الملل...[١٥].

ومن المعروف عند تطور مثل هذه الأفكار في مجتمع ساده الظلم عبر التاريخ لابد أن يخرج مدعين لها، فأخذت الفكرة فكرة المهدي (عجل الله فرجه) تنتشر بين هذا وذاك آخذين ما يقع عليهم من الظلم والاضطهاد من قبل الحكام ذريعة لادعاء المهدوية تاركين ورائهم حقيقة ما أوصى به النبي ﷺ من هذا الأمر....

وقد أشار (بروكلمان)[١٦] إلى هؤلاء المدعين عبر التاريخ إذ يقول: فقد كان شائعاً في الأوساط الشيعية أن كل ما يعانيه العالم من جور سوف ينقضي عندما يظهر المهدي، الذي ما فتئ يحيا بالخفاء، فيملأ الأرض عدلاً ورحمة... وبينا كان فريق منهم - وهو الذي لم تتهيأ له القوة السياسية إلا في ما بعد - (ويقصد بهم الأئمة الاثنى عشر) ينتظر ظهور هذا

المهدي في شخص الإمام الثاني عشر، انحصرت آمال الفريق الآخر (ويقصد بهم الإسماعيلية) في الإمام السابع إسماعيل الذي قلد هذا اللقب....

وفي عهد ملك شاه عرفت الإمبراطورية عدواً داخلياً قدر له أن ينشر الذعر في ربوع الشرق الأدنى، وكان في جملة دعاة الشيعة المتنقلين في البلاد في عهد ذلك الملك لاجتذاب الغوغاء عن طريق التبشير بقرب ظهور المهدي الذي سينتقم لهم من حكامهم الظالمين رجل يدعى الحسن بن الصباح، الذي ادعى المهدوية وكان أصحابه يسمون بـ(الحشاشين)...

وفي حوالي سنة (١١٠٧م) رحل إلى بغداد محمد بن تومرت من قبيلة مصمودة البربرية، وقصد من رحلته إتمام تحصيله العلمي والفقهي إذ اعتنق المذهب الأشعري وشنّ حرباً في المغرب ضد المجسمة السائدة هناك، داعياً الناس إلى طريقته والتي تؤكد في الدرجة الأولى على جانب التوحيد، وبذلك عرف أتباعه بـ(الموحدين)، ولم يضمن ابن تومرت لنفسه تأييداً في هذا النضال ضد المساوئ السائدة في زمانه، لذا أوقع في روع الموحدين أنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً....

وفي أيام صلاح الدين الأيوبي، ظهر رجل من تهامة زعم أنه المهدي. كما زعم آخرون في التاريخ الإسلامي، فتبعه بعض الأعراب واستولى على زبيد...[١٧].

وقد زخرت كتب التاريخ بمثل هذه الادعاءات وقصصها الخرافية، حيث أشار إليها المستشرقون في كتاباتهم، إذ يقول (جولد تسيهر): وكلنا يذكر ما أظهره التاريخ الإسلامي في الماضي القريب من حركات قامت على الفكرة المهدوية، كما يوجد في أيامنا هذه طامحون في المهدوية يظهرون في أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي بين آونة وأخرى...[١٨].

الولادة

بعد العرض المختصر لما تقدم من فكرة المهدي المنتظر (عجل الله فرجه)، يتضح لدى أكثر المستشرقين أن العقيدة الشيعية لها القدح المعلى في تثبيت هذه الفكرة لما لها من أدلة

كافية في دحض كل المعاندين إزاء هذه العقيدة، إذ أن المجال لا يسمح بذكر هذه الأدلة هنا وقد فصلناها في مشروع بحثنا الآنف الذكر.

وحيث أن هذه الفكرة رسخت في العقيدة الشيعية، كان لابد للمستشرقين أن يقولوا كلمتهم في شخصية المهدي المنتظر (عجل الله فرجه) وأن يضعوا النقاط على الحروف في تثبيت الشخصية الحقيقية لهذه العقيدة.

لذلك يحدد (دوايت) الإمام المهدي فيقول: هو الإمام الثاني عشر وهو صاحب الزمان ولد في سامراء سنة (٢٥٥هـ) أو (٢٥٦هـ)، أي قبل وفاة أبيه الإمام الحسن العسكري، بأربع أو خمس سنوات...[١٩].

ويقول (هوليستر)[٢٠]، إن الإمام المهدي ولد في سامراء سنة (٢٥٥هـ) وخلف والده في الإمامة سنة (٢٦٠هـ)، وبذلك يكون قد بلغ الخامسة من عمره حينما توفي والد. وكانت أمه (نرجس خاتون) أمة من أهل الغرب....

ويرى أيضاً أن هناك رأياً مناقضاً ينقله الطرف الآخر وهو أن الإمام الحسن العسكري لم يكن له ولد، إذ أنه ولد في السنة التي توفي فيها أبوه، أو أنه ولد بعد أن توفي والده أو أنه كان في الخامسة من عمره... ثم يقول: ولا تعتمد عقيدة الاثنى عشرية على عدم تصديق السنة أو غير المسلمين لهذا الرأي...[٢٠].

الغيبة

لا شك أن أقوى الاعتراضات الموجهة إلى عقيدة المهدي لدى الشيعة هو اعتقادهم بحياته طوال هذه المدة، وهذه الاعتراضات مقدمة من قبل الفريقين أبناء السنة والجماعة، والمستشرقين ولعل الفريق الثاني قد تأثر بعض الشيء بالفريق الأول.

يقول (دونالد سون): لا يذكر متكلموا الشيعة الصورة التي غاب عليها، هل حملته روح القدس، هل دخل سرداباً في سامراء، أم هل دخل مع أمه في الدار التي سكنها أهله... ولكن عقيدة الشيعة تتركز عند سرداب سامراء....

ثم يقول: غير أن غيبة المهدي في اعتقادهم لا تعني انقطاع سلطته عن الناس والحياة، حتى لا يظن به الموت، والله قد حجبه عن عيون الناس، وهو حي ولا تمتنع رؤيته على الخاصة بين وقت وآخر...[٢١].

ويرى (هوليستر) أن الإمام غاب واختفى من سرداب في سامراء... إذ يوجد تحت القبة السرداب الذي يعتقد بأن الإمام قد غاب فيه...

ويستمر بمقالته إذ يقول: وقد كان الإمام المهدي طوال أيام الغيبة الصغرى يظهر بين حين وآخر للمخلصين المقربين من أتباعه، لكنه كان يتصل بالجميع عن طريق الوكيل... ويرى أنه كان يمثل الإمام خلال (الغيبة الصغرى) أربعة وكلاء، وقد امتنع الوكيل الأخير عن تسمية من يخلفه أو ينوب عنه فقال (إن الآخر قد أصبح بيد الله)، وقد عرفت الحقبة المبتدئة بذلك العهد بـ(الغيبة الكبرى)...[٢٢].

وأما إن كان الارتياب في غيبة الإمام المهدي فللشيعة لديهم من الأدلة ا يدحض الرأي الآخر، فكثير من أهل السنة يرون أن الخضر حي موجود، بل أن المسلمين

قاطبة متفقون على حياة من الأنبياء اثنان منهم في السماء هم إدريس وعيسى واثنان في الأرض هما إلياس والخضر، وليس في اختفاء المهدي عن عيون الناس خوفاً من الظالمين حادثاً فريداً لم يسبق له مثيل، إذ اختفى أصحاب الكهف عن قومهم، وكذلك ما كان من أمر (من مر على قرية وهي خاوية، قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام، ثم بعثه لينظر إلى طعامه وشرابه لم يتسنه)، وإن كان في ذلك دليل على قدرة القدير، كما هو منصوص في كتاب الله، فما يعجز الله أن يغيب حجته عن الأرض آلاف السنين حياً قائماً إلى أن يأذن الله عز وجل له بالخروج.

الرجعة

لابد من بعد الغيبة من ظهور ورجعة، وذلك ما يشير إليه (دونالدسون) إذ يقول: إن الشيعة يؤكدون على الآيات الآتية في اثباتها:

١- نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ....

٢- إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا....

٣- وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ....

وكذلك يشير (جولد تسيهر) إلى أن: من الثابت أن الخطوات الأولى تتفق مع انتظار رجعة عيسى الذي يعمل مثل المهدي على إقامة معالم العدل...[٢٣] ■

---

(١) الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ص١٩-٢٥.

(٢) المصدر السابق، الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب، ص٦-١١.

(٣) المولود سنة ١٨٦٦م والمتوفى ١٩٠٣م باحث مستشرق له مؤلفات وبحوث مطبوعة ومنشورة، ينظر: معجم أسماء المستشرقين، ٥١٨.

(٤) السيادة العربية والشيعة، ١٠٨.

(٥) مستشرق ألماني ولد سنة ١٨٥٠م وتوفي سنة ١٩٢١م له مؤلفات كثيرة في التراث العربي مطبوعة ومنشورة جميعها، ينظر: معجم أسماء المستشرقين، ٢٨٥.

(٦) ينظر: العقيدة والشريعة، ٣٩٩.

(٧) مستشرق فرنسي ولد سنة ١٨٨٦م وتوفي سنة ١٩٦٩م، وهو مدير المعهد الفرنسي بالقاهرة، وقد عين في مناصب كثيرة، وله آثار مطبوعة ومنشورة، ينظر: معجم أسماء المستشرقين، ٦٥٦.

(٨) الإسلام، ١٩٨.

(٩) ينظر: السيادة العربية، ٧٨.

(١٠) العقيدة، ١٩٣.

(١١) السيادة العربية، ١٢١.

(١٢) عقيدة الشيعة، ٢٣٢-٢٣٣.

(١٣) باحث ومستشرق فرنسي، اهتم بكتابات المسلمين والشيعة بالخصوص.

(١٤) مجلة العلم، العدد ٦، مجلد ٢، سنة ١٣٢٩هـ.

(١٥) ولد في ألمانيا عام ١٨٦٨م وتوفي سنة ١٩٥٦م، اشتهر بنشاطه وغزارة إنتاجه في اختصاصه التاريخ الإسلامي، ينظر: معجم أسماء المستشرقين، ١٥٥.

(١٦) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٧٢، ١٣٧، ١٩٢، ٢٢٨.

(١٧) العقيدة والشريعة، ٢١٩.

(١٨) عقيدة الشيعة، ٢٣٤.

(١٩) باحث ومستشرق، اهتم بعقائد الشيعة وبالخصوص العقائد الهندية.

(٢٠) ينظر: شيعة الهند، ٩٢-١٠٠ نقلاً عن موسوعة العتبات المقدسة/ سامراء، ٢٧٩.

(٢١) عقيدة الشيعة، ٢٣٨-٢٤٥.

(٢٢) ينظر: شيعة الهند، ٩٢-١٠٠ نقلاً عن الموسوعة.

(٢٣) العقيدة الشيعية، ٢١٧-٢١٨.

ينابيع

محتوياتُ العدد

كلمة العدد

التبليغ.. آليات ومعطيات

الأمين العام ٣٢

قرآنيات

مع العلامة الطباطبائي ومقدمته في تفسير الميزان/ ح٢

د. محمد محمود زوين ٣٦

التوجيه الدلالي في آية الولاية

عادل عباس النصراوي ٣٩

قضايا معاصرة

الفساد الإداري.. الأسباب والمظاهر والمكافحة

أ. د. رضا صاحب أبو حمد ٤٨

آمن الرسول

الغلاة وأساليبهم في ضرب العقيدة الإسلامية

محمد جواد فخر الدين ٥٢

بحث في رؤية الله تعالى

الشهيد السيد عز الدين بحر العلوم ٥٨

استطلاع المجلة

مزار موسى المبرقع.. نفحة جوادية تفوح في فضاء قم

حيدر الجـد ٦٢

في رحاب الفقه

أجوبة استفتاءات مطابقة لفتاوى

سماحة السيد الحكيم (مدّ ظله) ٧٨

واحة الأدب

قراءة النص

د. زهير غازي زاهد ٨٢

الأداء البياني في وصية الإمام الكاظم(ع)

د. عبد الإله العرداوي ٩٠

قصة قصيرة: طريق العودة

بنت العـراق ١٠٠

ص ١٠٠

ص ١٣٠

ص ١٠٢

البيان الصادع في خطبتي العقيلة زينب
أ. م. د. مشكور العوادي ١٠٢

للفضيلة نجومها

قراءة في سيرة الشيخ كاشف الغطاء
حيدر المالكي ١١٠

الشيخ أحمد بن فهد الأحسائي
سـعد حـداد ١٢٢

الشيخ أسد حيدر.. رائد التجديد الفكري
د. حيدر نزار السيد سلمان ١٢٦

في النفس والمجتمع

الوعي الإسلامي في حياة المسلم
الشيخ عبد الرزاق فرج الله ١٣٠

علم الاجتماع.. تعريفه، والموضوعات التي يدرسها
د. حمزة جابر سلطان الأسدي ١٣٤

طروحات عامة

الزيارة.. عقيدة وممارسة
طالب علي الشـرقي ١٤٠

أضواء على مصطلح الرفض والرافضة
السيد عامر الحلو ١٤٦

إشارات قرآنية في نشوء وتمدد الكون/ ح٢
د. عامر عمران الخفاجي
د. فيصل علـي البصـام ١٤٩

قصيدة: تراتيل حزن علوية
محمود محمد حسين الموصلي ٥١

أجوبة مسابقة العدد (١٧) وأسماء الفائزين ١٦٠
مسـابقة العدد (١٩) ١٦١

ص١٢٦

ص٣٩

ص٨٢

التبليغ.. آليات ومعطيات

بسم الله الرحمن الرحيم

ختمت الأديان السماوية برسالة سيد الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ فكانت خاتمة الرسالات وباقية ما بقيت الدنيا، وقد أيقظ الله سبحانه لها أناساً يدعون لاعتناقها على طول الزمن لكن باختلاف الوسائل حسب الفترات الزمنية بما يتناسب ومتطلبات العصر وحسب التطور الخارجي الذي يحيط بالمجتمعات في العصور المختلفة.

ونرى خلال ذلك أصحاب الدعوة والتبليغ ومن يهمهم أمر نشر الإسلام لا يتوقفون ولا يترددون باستخدام الوسائل والآليات التي تناسب نشر الدعوة، ولا يترفعون عنها، ولا يعتبرون ذلك ترفاً، لأن الدعوة إلى الإسلام تحتاج إلى استغلال ما يؤثر في النفوس، والجدة والحداثة عاملان من عوامل التأثير النفسي في وصول الحقائق إلى الآخرين.

ولنضرب على ذلك مثلاً عملياً جلياً وهو التطور الخطي الذي مر عبر العصور الطويلة وما جرت عليه من التحسينات والجمالية مما كان عاملاً مساعداً على اقتناء الكتب والنظر فيها وقراءتها بشكل مشوق، وكان أصحاب الدعوة يصبّون اهتمامهم على الجانب المذكور ليوصلوا الثقافة إلى أكبر عدد ممكن من أبناء دينهم، ويمكن درج مراحل التطور فيها إلى ما نذكره على سبيل الإجمال.

بدأت الكتابة في عصور غير معلومة التاريخ، إلا أن من المعلوم أن في عصر الرسالة الإسلامية كانت الكتابة لها شأن محدود جداً، مقتصرة على تدوين المعاهدات والعقود، ولا يعلم السبب في ذلك هل هو ضيق المجتمعات ومن ثم عدم الحاجة إلى الكتابة؟ أم كانت قاصرة لتنال التطور، بخلاف ما عليه طبيعة البشر في جميع مفاصل حياتهم؟. لكن ما أن مرت فترة قصيرة من الزمن، وبعد تدوين القرآن الكريم والسنة النبوية حتى أصبحت الكتابة أمراً يهتم

به جميع المثقفين، بل اعتبرت كمالاً من الكمالات التي يتمتع بها الكاتب، على ما كانت عليه من التشكيل العشوائي، غير مؤطرة.. ولا مخططة.. ولا منقطة.. ولا يعلم مبدأ الجملة من منتهاها إلا بمعرفة المراد منها.

ثم تطورت عبر الزمن حتى وضعت الأشكال على الحروف بعد تنقيطها لتمييز الحروف بعضها من بعض، وما أن مرت حقبة أخرى من الزمن حتى أخذت الكتابة شكلاً آخر، بحروف منقوطة مشكولة، مع تأطير حقل الكتابة بشكل يوازن الأسطر، ويعطي جمالية خاصة للصفحة المقروءة، ولا يشتت العين بسبب تشتت الحروف والجمل. وهكذا... ولم تمر مدة حتى دخلت الألوان الحبرية في الصفحة، فكانت الصفحة الواحدة تحوي على لونين من الحبر على أقل تقدير لتزيين الورقة وإعطاء نظرة جمالية للقارئ، مع الفائدة التي يتسم بها هذا الاختلاف بالألوان من بروز المعلومات التي يريد الكاتب إبرازها وإعطائها الأولوية عند عين القارئ.

ومن خلال هذه الفترة الزمنية المشار إليها كانت تصرف المبالغ لكتّاب خاصين، لهم جودة الخط العربي، بل لم يستنسخ الكتب إلا ثلة خاصة يعبّر عنهم بالنسّاخ. وفي الوقت ذاته كانت تصرف المبالغ لتجليد الكتب الهامة بتجليد جميل وأنيق، وفي غضون ذلك كان يصرف على الحبر المبالغ الكثيرة حسب الأدوار فكانت الاختبارات قائمة على اختراع حبر يدوم بدوام الزمن ولا يتأثر بالأعاصير والحوادث التي قد تقع بين الآونة والأخرى على الكتب، مع تميزه باللون الجيد والسواد القاتم أو الحمرة الشديدة أو الصفرة الفاقعة، وهكذا بقيت الأمور في تسابق ضمن المضمار الذي ذكرناه لا تعدوه إلا بلون الورق وجودته، أو الحبر ولونه وطول بقائه، أو الجلد وما يحويه من خاصيات، كجلد الغزال أو الغنم أو الحيات، أو ما شاكل ذلك.

حتى الوصول إلى العصور المتأخرة ونشأت المطابع بشكل خاص، كالطبع الحجري، اعتبر ذلك قفزة تقنية حرية بالاهتمام، بل مراجعة التراث القديم من الكتب التي كانت مدونة بالحبر المشار إليه لتعاد وتطبع بهذا الطبع حتى تأخذ مكانها في الانتشار بين الأوساط العلمية والاجتماعية، وما أن مرت فترة من الزمن حتى أنشئت مطابع في البلدان الأوربية المعبر عنها بطبع الحروف،

وامتازت هذه الأخيرة بحروف ثابتة لا تتغير بالتكرار ضمن السطر والصفحة بل جميع الكتاب...

وهكذا فُتِحت الباب، فأنشئت مطابع أخرى في مصر، وكانت أيضاً مطابع جيدة متطورة أكثر من سابقتها، كما أنها تعتبر قفزة هامّة مدعاة للبشارة بين الأوساط العلمية والثقافية، حتى وصل الحال إلى المطابع الكومبيوترية التي تتسم بانسجام الحروف واختيار النوع المطلوب من الكم الهائل من الأنواع، كل ذلك من أجل إعطاء صورة جميلة للكتاب الذي يحتوي على النظريات العلمية، أو الثقافية الدينية، أو غيرهما. ونرى أصحاب الدعوة يختارون لطبع كتبهم أحسن الحروف وأجملها وأوضحها ناهيك عن اختيار الورق ومنشأ صناعته الراجع إلى جودته من البياض والصقالة، وما إلى ذلك من الأوصاف التي تضفي على الكتاب جمالية وأناقة، ليتم طرح الفكرة من خلاله بشكل يسرع إليه القبول، لما لكل فقرة من هذه الفقرات المذكورة من المردود النفسي على تقبل الفكرة المطروحة، ولم يعتبر ذلك ترفاً وفضولاً ونافلة من القول.

وذلك يدركه كل من له باع بنشر الفكر الثقافي على جميع الأصعدة ولا يختص بالثقافة الإسلامية.

حتى إذا وصلنا إلى العصور المعاصرة ووجدت أدوات أخرى للنشر غير الكتابة نرى أصحاب الدعوة أول المتوجهين إليها والداعمين لها، لما يجدون فيها من الحل الأمثل لدعوتهم وترويجها وإيصالها إلى أكبر عدد ممكن من أبناء المجتمع الإسلامي، وغير الإسلامي لتقوم بهم الحجة على العالم، وهو أيضاً لم يعتبر نافلة من القول، وترفاً علمياً، وما شاكل ذلك، بل نرى الحثّ منهم على استخدام الوسائل الحديثة في إيصال الفكر الثقافي العقيدي وغيره.

لكن مع ذلك كله ـ وفي وقت انتشار الصورة المرئية عبر أجهزة التلفاز بشكل عجيب، وتذليل جميع صعوبات وصولها إلى جميع أنحاء العالم ـ نرى أصحاب الدعوة يترفعون عن نشر ثقافتهم الأصيلة عبر هذه الوسيلة الحديثة، كما نلاحظ من يعتبر ضرورة ذلك يزهد في الهيئة التي تظهر فيها تلك الصورة، وكأن الاهتمام بالمنظر الصوري وتأنيق الصورة الإخراجية ـ الذي له الدور الأساس في إيصال المعلومة إلى ذهن الرائي حيث تدمج المعلومة مع حاسة البصر والسمع في

وقت واحد إضافة إلى الحاسة العاقلة التي لها التأثير الكبير في التقبل النفسي ـ ينافي المبادئ والقيم بشكل أو بآخر.

ولا نفهم كلتا النظرتين أبداً، أفلا يفرق بين الكتاب المدون بشكل عشوائي والكتاب المؤطر ذي الأسطر الجميلة والتخطيط المتوازن؟!، وألا يفرق بين الكتاب المطبوع بالطبع القديم والكتاب المطبوع بطبع الحروف؟!، وألا يفرق بين الكتاب المطبوع بالمطابع الكومبيوترية ذات الألوان الزاهية الجميلة والكتاب غير المطبوع بها؟!.. وهكذا إلى كثير من الأمثلة المتقدمة. ولماذا هذا الفرق في الاختيار؟. بيد أن ما يتسم به أصحاب الدعوة الإسلامية هو السبق دائماً لاختيار أفضل الوسائل لنشر الفكر والوعي بين أوساط المجتمع الإسلامي، وغيره من المجتمعات. فلماذا هذا التباطؤ بالعمل بهذا الاتجاه؟! ولماذا هذا التلكؤ في الاختيار؟! في الوقت الذي نرى أصحاب الدعاوي الضالة المنحرفة يستغلون أقصى ما يمكن من التقنيات الحديثة والقابليات الفريدة وبأساليب جديدة لنشر أفكارهم، فهل النقص في الإدارة أم النقص في الاختيار؟!.

والدعوة إلى الحداثة هذه ليست لغاية تحقيق الموازنة الخارجية بين أصحاب الدعوات كما قد يفرضه البعض، حتى يقول القائل: لا حاجة لنا بذلك فإن لنا عنه شغل شاغل، كما أنها ليست شعوراً بالنقص ـ الذي قد يتصوره البعض الآخر ـ بل لأنها وسيلة لإيصال الفكر الإسلامي الأصيل بالطرق التي أصبحت من الطرق الفاعلة والمؤثرة في الواقع الخارجي. فإن قوة الحركة الإعلامية تكاد تتغلغل في صميم المجتمعات الخاصة والبيوتات المغلقة، وبدا انعكاسات تلك الحركة في الواقع الاجتماعي بشكل معلن وصريح، فما لم تكن حركة مضادة تعرض من خلالها المفاهيم الحقة الصحيحة وبأساليب مختلفة من دون الاقتصار على شكل خاص من العرض أنذر ذلك بسقوط مجتمعات بأكملها، كما قد يلوح ذلك في الأفق فعلاً لمن له سبر لواقع الشباب مثلاً وغيرهم، خصوصاً في البلدان المنفتحة والمستقرة نسبياً. ويرجع ذلك إلى الفراغ الحادث نتيجة النظرتين المتقدمتين نظرة الزهد في استغلال الوسيلة هذه ونظرة الزهد ـ مع استغلال الوسيلة ـ في المنظر الخارجي المحيط بالصورة.

ولنا تصور عن الواقع المذكور نعرضه تباعاً إن شاء الله تعالى ■

المشرف العام

الحلقة الثانية:

مع العلامة الطباطبائي ومقدمته في تفسير الميزان

د. محمد محمود زوين ●
كلية الفقه/ جامعة الكوفة

ينابيع

لم يكن الاختلاف في فهم كتاب الله مسوغاً عند المفسرين، واعني بالاختلاف هنا تناقض المفهوم مع المصداق، أما الاختلاف من جهة أن القرآن حمال وجوه وأن للقرآن باطناً ولباطنه باطن إلى سبعة أو سبعين بطناً فهذا أمر آخر يتعلق بقدرة المفسر وآليته في استنباط الدلالات والمعاني القرآنية. وبقدر ماله من موهبة وهي عطاء إلهي خاص كل بحسب ماله من مقام عند الله تبارك اسمه يستحصل من خلالها المفسر المعاني ويكشف عن المراد بقدره.

لقد وقف العلامة﵀ عند ظاهرة اختلاف التفسير ومسالكه بنظر ناقد موضوعي متضلع، وعزا الاختلاف إلى جهات أربع

فقال: (ثم استوجب شيوع البحث الكلامي بعد النبي ﷺ في زمن الخلفاء باختلاط المسلمين بالفرق المختلفة من أمم البلاد المفتوحة بيد المسلمين وعلماء الأديان والمذاهب المتفرقة من جهة.

ونقل فلسفة يونان إلى العربية في السلطنة الأموية أواخر القرن الأول من الهجرة، ثم في عهد العباسيين، وانتشار البحث العقلي الفلسفي بين الباحثين من المسلمين من جهة أخرى ثانية.

وظهور التصوف مقارنا لانتشار البحث الفلسفي وتمايل الناس إلى نيل المعارف الدينية من طريق المجاهدة والرياضة النفسانية دون البحث اللفظي والعقلي من جهة أخرى ثالثة.

وبقاء جمع من الناس وهم أهل الحديث على التعبد المحض بالظواهر الدينية من غير بحث إلا عن اللفظ بجهاتها الأدبية من جهة أخرى رابعة)[1].

ثم يزيد السيد الطباطبائي عاملاً خاصاً يشمل الجميع، ولا تخفى وسماته عن خبير وهو تفرق المسلمين إلى مذاهب وفرق مختلفة.

ولا يتصور أحد أن اختلاف فهم المذاهب الإسلامية في النص القرآني اختلاف الشكل دون الجوهر أو اختلاف الألفاظ دون المعاني بل شمل كل نواحي النص شكلاً ومضموناً يقول رحمه اللّه (ولم يبق بينهم - أي المسلمين - جامع في الرأي والنظر إلا لفظ لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ﷺ واختلفوا في معنى الأسماء والصفات والأفعال والسموات وما فيها، والأرض وما عليها والقضاء والقدر، والجبر والتفويض، والثواب والعقاب، و في الموت وفي البرزخ، والبعث والجنة، والنار، وبالجملة في جميع ما تمسه الحقائق والمعارف الدينية ولو بعض المس، فتفرقوا في طريق البحث عن معاني الآيات، وكل يتحفظ على متن ما أتخذ من المذهب والطريق)[2].

فأنت تلحظ في أوجه هذا الاختلاف أفقاً واسعاً شمل جواهر النص ومتعلقاته فيما يخص الخالق تبارك اسمه من جهة، وفيما يخص المخلوق من جهة أخرى، أو بما يتعلق بالموضوعات التي هي مدار العلاقة بين الخالق والمخلوق من جهة ثالثة، كل ذلك أدى بالمفسر ﷺ إلى أن يقول: ولم يبق بينهم في الرأي والنظر إلا لفظ لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ﷺ.

وأحسب أن لفظ التوحيد والشهادة بالنبوة مدعاة إلى الوحدة وجمع الأمر، ونقض الفرقة، بشرط أن يكون لفظ الشعار يوصل إلى المضامين القرآنية الحقة، وإذا كان لفظ شعار التوحيد تكريساً لمقولات الفرق والمذاهب فما واقع الحال في فهم النص إلا الاختلاف في الفهم وفي المسلك الذي يقود المفسر إلى الدلالات القرآنية.

وعلى أية حال لم يخف العلامة ﷺ أن الاختلاف كان في القضايا الدينية سواء ما تعلق منها بالغيب، أو بعالم الشهادة، وسواء ما تعلق منها بالإنسان قبل الخلق أو إلى موته وعالم البرزخ كل ذلك مختلف فيه، وأصل منبع الاختلاف أن كل مفسر يتحفظ على متن ما صدر عنه، واتخذه من المذهب والطريقة في الاعتقاد.

ولم يترك الطباطبائي ﷺ أركان الاختلاف في المسالك التفسيرية دون بيان أوجه القصور أو أسباب كونهم جزءاً من عملية الافتراق في التفسير فتحدث عنهم بالتفصيل والتدقيق.

فالمحدثون كانوا جزءاً من ذلك لأنهم اقتصروا في التفسير على الرواية عن

السلف من الصحابة والتابعين فساروا وراء ذلك فأينما سار بهم المأثور ساروا، ووقفوا فيما لم يؤثر شيء عنه، أو أن المعنى غير واضح الظهور فلابد من الوقوف عنده[٣] أخذاً بقوله تعالى (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) (سورة آل عمران، الآية: ٧).

فقصور المحدثين يكمن في روايتهم عن الصحابة والتابعين وسيرهم خلفهم من جهة ووقوفهم عند كل أمر لم يرد فيه شيء عن الصحابة والتابعين من جهة ثانية وكلا الأمرين باطل واضح البطلان فإن فهم كتاب الله تعالى غير متوقف على قول الصحابي أو التابعي فإن الله سبحانه لم يجعل حجة في أقوال الصحابة أو التابعين وأنظارهم على اختلافها الفاحش، وندب إلى التدبر في آياته وجعل القرآن هدىً ونوراً وتبياناً لكل شيء، فما بال النور يستتر بنور غيره، وكيف يتبين ما هو تبيان كل شيء بشيء دون نفسه[٤] فالقرآن نور يستضاء به وهو تبيان لكل شيء فكيف تكون أقوال الصحابة والتابعين المختلفة المتناقضة بمنزلة البيان والكشف، على أنها تفتقد كل حجية فلم ينص عليها كتاب ولا سنة.

ويأتي الركن الثاني من أركان اختلاف المسالك التفسيرية وهم المتكلمون الذين تقولبوا على وفق عقائدهم المذهبية على الرغم من اختلافها إلى حد التناقض والإنكار، فساروا في التفسير حيثما وافق ذلك مذاهبهم واخذوا بتأويل ما خالفهم[٥].

بمعنى أن فهم كتاب الله تعال يتطلب من الباحث فيه ألا يصدر عن غيره، أن يقيم فهمه على أسس تنبع من آي القرآن نفسه لا عن رؤية مذهبه ومعتقده الخاص أو فرقته المعينة، وعليه فقد فرق العلامة الطباطبائي بين نوعين من المقولات الأولى مقولة القرآن، وهي جواب لمن يسأل ماذا يقول القرآن، والمقولة الثانية مقولة (غير القرآن) على إطلاق الوصف وهو جواب لمن يسأل ماذا يجب أن نحمل عليه الآية ونلوي عنق دلالة النص لكي ينسجم مع متطلب المفسر بما يوافق مذهبه واعتقاده.

ومن خلال المقولتين والتفريق بينهما يؤسس السيد الطباطبائي رحمه الله نظرية تفسيرية أو قاعدة تفسيرية أطلق عليها (التفسر والتطبيق) وسأعرض لها في مرحلة مقبلة. ومهما يكن من أمر فلابد من تشخيص الفارق بين المقولتين، مقولة الآية، ومقولة ما يجب أن تحمل عليه الآية من وضع نظريات معينة والتسليم بها وبناء دلالة الآيات عليها وهذا النوع من البحث ليس بحثاً عن معناه في نفسه.

ألخص مما سبق أن المحدثين والمتكلمين قد أسهموا في اختلاف مسالك التفسير بما كان لديهم من قصور في أنهم تعاملوا مع القرآن من وجهة تنسجم مع بيئاتهم أكثر مما تنسجم مع خصوصيات كتاب الله بل في كثير من الأحيان تتعارض مع كتاب الله تعالى. وإذا كان للمحدثين والمتكلمين شأن في نقد العلامة قدس سره فإن للفلاسفة والمتصوفة شأن آخر من نقده فضلاً عن أصحاب العلوم الجديدة أو ما سماه رحمه الله المسلك الجديد في التفسير وسوف تكون لنا وقفة أخرى معهما إن شاء الله تعالى ■

(١) الميزان ١/٨.
(٢) الميزان ١/٨.
(٣) ظ، الميزان ١/٩.
(٤) ظ، م، ن ١/٩.
(٥) ظ، م، ن ١/٩.

التوجيه الدلالي.. في آية الولاية

عادل عباس النصراوي •
كلية الآداب/ جامعة الكوفة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾

ينابيع

إن استنتاج الدلالة في أيِّ نص ليست من السهولة بمكان، إذ يصحبها بحث وتنقيب عن أوجه المعنى وصوره، وهذا يستلزم عملاً تحليلياً لمكونات النص الأدبي لبيان وظيفة كل ألفاظه وجمله، ودراسة السياق المؤثر في توجيه الدلالة، ويكون ذلك من خلال المستويات اللغوية المعروفة، في الصوت والصرف والنحو، وغيرها من أدوات البحث العلمي، فقد تجد نصاً أدبياً موجز الألفاظ، غير أنه مشحون بشحنة دلالية واسعة المعاني وعميقة في أداء المعنى، من خلال التشابك بين هذه المستويات في عمق النص، فضلاً عن المقام الاجتماعي[1]، والنص القرآني الكريم بمضامينه وسعة تراكيبه ومتانة أسلوبه قد جمع كل المستويات المعروفة والتي تجعله منفرداً عما عرفته العرب رغم تقدمها في البيان وعلو كعبها في البلاغة.

إن آيـة الولاية، هي واحـدة من روائع القرآن الكريـم، ببيانها العظيم ودلالتها الموحيـة بأسـلوبها الذي أضـاء به قلوب أهل الإيمـان، وأعمى بصائر أهل الكفر والنفـاق، فقـد قال سـبحانه وتعالى فيها: (إِنَّمَـا وَلِيُّكُمْ اللَّه وَرَسُـولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِيـنَ يُقِيمُـونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُـونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)[٢].

فلأجـل الوصول إلى أوسـع مضامين الدلالة لابد من دراسـة تلك المسـتويات التـي أشـرت إليهـا آنفـاً في هـذا النص المبـارك، لبيـان جلالته وإعجـازه، الذي حـارت به العقـول ووقفت مبهـورة أمامه بمفرداته وجمله.

لقد تجلى المسـتوى الصوتي في هذه الآية المباركة بتشـكيلة صوتية توزعت على مقاطع قصيرة وطويلة مغلقة ومفتوحة مع مقطعين مديدين، وكما يأتي:

ءِـن/ نَـ/ مَـ، وَـ/ لِـي/ يُـ/ كُـ/ مُـل، لَـ/ هَـ وَـ/ رَـ/ سُـ/ لُـ/ هَـ، وَـل/ لَـ/ ذِـ/ نَـ، ءَـ/ مَـ/ نُـ ل، لَـ/ ذِـ/ نَـ، يُـ/ قِـ/ مُـ/ نَـص، صَـ/ لُـ/ تَـ، وَـ/ يُـء/ تُـ/ نَـز، زَـ/ كُـ/ تَـ، وهَـ مَـ، رَـ/ كِـ/ عُ مَدِيد ن.

وقـراءة أوليـة لهـذه المقاطـع نجـد أن عددهـا يبلـغ أربعـة وأربعيـن مقطعاً صوتيـاً، كان نصيب المقاطع القصيرة منها النصف، فيمـا كان عدد المقاطع الصوتيـة الطويلة المفتوحة اثني عشـر مقطعاً، والمقاطع الطويلة المغلقة ثمانية مقاطـع، فيمـا وقـع فـي منتصـف هذه المقاطـع مقطعٌ مديدٌ واحدٌ، والثاني في آخرهـا، فضلاً عـن ذلك نلاحـظ فيها توازناً صوتياً من خـلال توزيع المقاطع وتداخلهـا مـع بعضها البعض، بشـكل يوحـي للمتلقي بسلاسـة إيقاعها وهدوء نغماتهـا، ذلك لأن المقام فـي هذه الآية الكريمـة مقام إبلاغ لأمـر مهم، فلابد من وجـود توازن في التقـاط الأنفاس، بلا إسـراع، فيضيع المطلـوب ويحدث التراخـي وتقـل أهميـة وقـع الحـدث في نفـوس السـامعين، فـوزع المقاطع القصيـرة ذات المدد الزمنيـة القصيرة بين المقاطع الطويلة ليحدث التوازن في المدد الزمنيـة، ليكون محل راحة عند اسـتقبال هذا الخبر المهـم الذي تنتظره الأمـة، وهـو محـل اهتمـام اللّه تعالـى ورسوله، وهو مسألة إبلاغ الولاية.

هناك أيضـاً مقطعان مديدان أحدهما توسـط الآيـة، والآخر حلَّ فـي آخرها، وهـذان المقطعان يمتازان بطول مددهما الزمنية عما في المقطع القصير أو الطويل بنوعيـه، إذ أن المقطع المديد الأول يبدأ مـع أول الكلام في وصف (الذين آمنوا) بقوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الـزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) وهذا يوحي إلى أهميـة الموصوف بأخذ نفـس طويـل ومميـز، مشـيراً إلـى من يوصـف بهذا الوصف. فيمـا جاء المقطع المديـد الآخر في نهاية الآية بقوله تعالى: (راكعون) فكأنه يشـير مرة أخرى إلى الموصوف بإطالة النفس مرة أخرى، بما يخالف ما سـارت عليـه الألفاظ الأخرى في الآية ذاتها.

ثـم أنـك تجـد أغلـب الأصـوات المؤلفة للألفاظ، أنها متوسـطة الشـدة، فيمـا انحـدرت فيهـا الأصـوات الرخوة والشـديدة، وهـذا يوحـي إلى السلاسـة

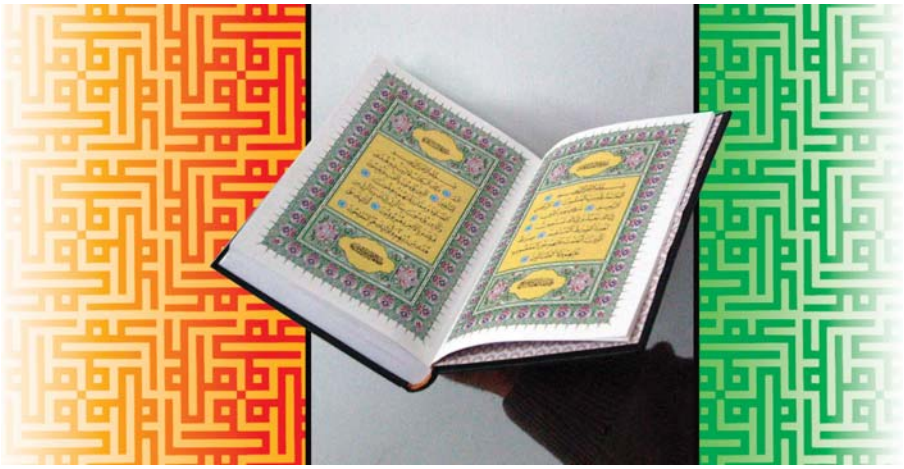

في الأداء وعدم الشدة أو الميوعة في الألفاظ، بما لا يتفق مع مقام الإبلاغ، إذ إن الأصوات المتوسطة لم ينغلق عند النطق بها أي من أعضاء الصوت ثم تنفتح فجأة فيحدث الانفجار، ولا هي مفتوحة فتخرج الأصوات رخية مائعة، بل كانت أكثر المخارج قد تضيق مجرى الصوت فيها بيد أنه سمح بمرور الهواء، فخرجت سلسة بلا عوائق أو تهور، وهذا مما ناسب الجو العام في الإخبار عن أمر الولاية، ثم أن اغلبها كان ذا جهر، فيما انحدرت صفة الهمس فيها، وهذا يومئ إلى أن أمر الولاية واضحٌ جلي من خلال الجهر والله اعلم.

هذه إشارات أولية وإضاءة سلطها الصوت اللغوي التي اكتنفت ألفاظ النص المبارك على من يكون الولي من بعد رسول الله ﷺ وكان ذلك من خلال ما تظاهر به بعض الناس وتأويلهم لقوله تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) عندما ذهبوا فيه مذاهب شتى وهو بين جلي. فهذا التوجيه الصوتي يمثل شرطاً مهماً من شروط اكتمال المعنى الدلالي الأكبر على حد ما يذهب إليه الدكتور تمام حسان[٣].

أما المستوى الآخر، فهو المستوى الصرفي، فقد وجه من طرف آخر الدلالة التي تضمنها المعنى من خلال بنية بعض ألفاظ الآية المباركة، فقد يسأل سائلٌ، لماذا اجتمع في النص الكريم لفظان: (الولي) والفعل (يتول)، فقال في صدر الآية المباركة: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّه وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) ثم أعقبها في صدر الآية الثانية قوله سبحانه: (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّه وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّه هُمْ الْغَالِبُونَ)[٤]، وكان القياس أن يقول: (ومن ولي الله ورسوله..) إذ أن أصل الولي من الفعل (وَلِيَ) بيد أنه جاء بالفعل (يتولّ) وهو من الخماسي (تولّى) على صيغة (تفعّل) ومصدرها (تفعُّل) كتعلَّمَ تعلُّماً وتقدَّم تقدُّماً، وهذه الصيغة تفيد (التدرّج والتكلف مثل تجسَّسَ وتحسَّس وتبصَّر وتدرّج وتمشى وغيرها، فإنّ في تجسّس

وتحسّس وبقية الأفعال تدرجاً وتكلفاً، ألا ترى أن في (تبصَّر) من التدرّج وإعادة النظر والتكلف ما ليس في (بَصَرَ وفي (تمشّى) من التدرج ما ليس في (مشى))[٥] وهذا التدرج يناسب الذي جاء في هذه الآية المباركة كما سيتضح ذلك فيما بعد.

ثم أن (مَنْ) بمعنى الذي وهو اسم موصول إذ إنها وصلت بما بعدها لأنها لا تستقل بنفسها وهي محتاجة إلى صلاتها كاحتياج الحروف إلى غيرها، وصلتها قوله تعالى: (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّه وَرَسُولَهُ ...) كذلك أن (مَنْ) وأخواتها (ما، الألف واللام) تكون بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع وتستعمل للعاقل، وقد تستعمل في غيره[٦]، بيد أن دلالتها في سياق هذه الآية تعني الجمع أي بمعنى الذين وذلك أنه لما جاء بالفعل (يتول) وختم الآية بقوله: (فأن حزب اللّه هم الغالبون) قد جمع بين المتناسبين، إذ أن زيادة المبنى تعني زيادة في المعنى، وان دلالة (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللّه وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّه هُمُ الْغَالِبُونَ) أي الذين يتخذون اللّه ورسوله والذين آمنوا، ففي هذا شعور بوجود تجمع وتحزب لجماعة على أمر قد اتفق عليه، وهو مناسب لفكرة الحزب الذي أصله (القوم يجتمعون لأمر حزبهم)[٧] فهم جماعة متضامنة على مبادئ اتفقوا عليها واقروها فيما بينهم وهذا يعني أن التولي كان لأمر قد اجتمعوا عليه، ثم إن الفعل (ولي) في سياقه ربما يقصر في أداء المعنى، فعدل سبحانه إلى (يتول) فزاد في مبناه ليزيد في المعنى الذي تضمّنه، فبعد أن كان سياق الآية الأولى هو الموالاة والإتباع فأن في الآية الثانية توسعت الدلالة إلى الاجتماع على أمر قد اتفق عليه كان اكبر وأعظم واللّه اعلم.

أما على المستوى النحوي، فإن ابتداء الجملة بالاسم المرفوع (الولي) له دلالة تختلف فيما لو كانت (إنّ) عاملة، فقد كُفَّ عملها باتصالها بـ(ما) النافية فيما كان حكم (الولي) الرفع لا النصب والفرق بين النصب والرفع، إنك إذا رفعتها فكأنّك أثبتَّ شيئاً قد ثبت عندك واستقر فيها ذلك المعنى، وإذا نصبت كنت ترجوه في حال حديثك وتعمل على إثباته[٨] وهذا مما يكسب الجملة قوة في الأداء واثبات الولاية على وجه اليقين كما ورد في الآية المباركة، وكذلك من فائدة الابتداء بالاسم، (فالاسم أقوى من الفعل لأنّه يمكن أن يستغنى بالاسم عن الفعل في الفائدة ولا يمكن أن يستغنى بالفعل، والبيان عن الشيء أقوى من البيان عنه في الجملة)[٩]، وهذا إن عبر فهو يعبر عن قوة الإرادة، ثم أنه تعالى قد بدأ النص بـ(إنما) وهي تفيد التخصيص أي وجوب اختصاص من ذكروا بعدها بالولاية، إذ إنّ (دخول (ما) على (إنّ) يفيد ما يفيده النفي والإثبات، نحو (إِنَّمَا اللّه إِلَهٌ وَاحِدٌ)[١٠] و(إِنَّمَا إِلَهُكُمْ اللّه)[١١] و(إنما العزة للكاثر) أي: ما اللّه إلا إله واحد، ما إلهكم إلا اللّه وما العزة إلا للكاثر، فهي لإثبات الشيء للشيء ونفي ما عداه وبذلك يفيد الحصر)[١٢]، وهذا مما يدل على حصر الولاية في اللّه تعالى والرسول محمد ﷺ والذين آمنوا وهذا المعنى قد أجمع عليه جمهور النحاة، إذ قال السيوطي(ت٩١١هـ): (على

أنها للحصر، فقيل بالمنطوق، وقيل بالمفهوم)[١٣]، ويعني الحصر كذلك (القصر لأنه تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص، ويقال: إثبات الحكم المذكور ونفيه عما عداه)[١٤].

فابتداء النص بها قد أفاد فائدة حصر الولاية بهم لا بغيرهم، وهذا مما عمل على التخصيص والحصر للدلالة، وعدم اتساعها إلى من عداهم.

ثم إن (إنما) تتألف من (إن) المتصلة بـ(ما) الزائدة (وقد نتج عن هذه الملازمة بين أجزائها تغيّر في الوظيفة التي كانت (إنّ) تؤديها منفردة لأن الكلمتين إذا ركبتا وكان لكل منهما معنى على حدة أصبح لها بعد التركيب معنى جديد وحكم جديد، وقد تغيرت دلالتها على التوكيد من كونه توكيداً عادياً إلى كونه توكيداً قاصراً أو حاصراً، أو بعبارة أوضح: من كونه توكيداً مخففاً إلى كونه توكيداً مشدداً كقوله تعالى: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ)[١٥])[١٦].

هذا التشديد في التوكيد لا يكون إلا لغاية أرادها سبحانه، فولاية الله ورسوله مفروغ منها ولا يناقش فيها، بيد أن الاختلاف وقع في (الذين آمنوا)، فعملية التشديد في التوكيد ما كان إلا للحصر وقصر هذا المفهوم في هذه الجملة، وهذا مما يدل على وجود خصوصية في (الذين آمنوا)، وكذلك معروف أن (واو العطف) (لمطلق الجمع عند البصريين فإذا قلت: (جاء زيدٌ وعمرو، دلّ ذلك على اجتماعهما في نسبة المجيء إليهما... ويعطف بها: اللاحق والسابق والمصاحب، ومذهب الكوفيين أنها للترتيب)[١٧]، وكلا المذهبين يؤديان إلى الدلالة ذاتها في كون الولي موجوداً وحاضراً، وكذلك نستشعر منهما أن (الذين آمنوا) الموصوف بـ(يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) كونه حاضراً أيضاً، وذلك من خلال جملة الحال (وهم راكعون)، إذ إن اجتماع أولياء الأمر من خلال العطف بالواو يوحي بوجودهم حالاً لا على سبيل الإخبار المحتمل للصدق أو الكذب، بل أن وجودهم على سبيل الإخبار والإنشاء المؤكد لهم، والحال ـ كما نعلم ـ ما هو إلاّ (انقلاب المعنى في صفة النكرة عما كان عليه للزيادة في الفائدة)[١٨]، فكون وجود (وهم راكعون) ما كان إلا لإزالة الإبهام الذي يقع بسبب إن من يعدّ أن (الذين آمنوا) عموم من آمن، إذ إن المسوغ لوروده هو امتناع الوصفية، إثبات حالة الموصوف في تلك الحالة لا غير، وهذا مما يبعث في النفس الطمأنينة في أن شخص (الذين آمنوا)، قائمٌ في المسجد أثناء نزول الآية المباركة ومشخص.

ثم أن الله تعالى قد وصف بالصيغة الفعلية ولم يصف بـ(الصيغة الاسمية) (المؤمنون)، وأن القياس يدعو إلى ذلك بدليل ذكر لفظ الجلالة (الله) و(الرسول)، وهما اسمان، فالقياس المستحسن في اللغة أن يعطف الاسم (المؤمنون)، بيد أن ذكره لهم بـ(الذين آمنوا) كان لمزية ونكتة مهمة، هي أن الصيغة الفعلية دالة على حدوث فيما تكون الصيغة الاسمية دالة على الثبات، أي ان عملية الركوع والتصدق كانت قد وقعت حالاً وليس على سبيل الثبات، أي أن هناك عملية تغيير وتبدل في شأن (الذين آمنوا) في تلك الأثناء، فكانت

عمليـة التصدق حادثة في ذلك الآن وليس علـى سـبيل الثبـات الدائـم، ولذلك جاء قولـه تعالـى: (وهـم راكعـون) مصداقاً لذلـك الحدوث، لأنها صيغة اسـم الفاعل من الفعـل (ركع)، وهـذه الصيغة لها ما يميزهـا مـن غيرهـا من الصيـغ الأخرى وذلك لأنهـا جمعت بين سـمات كل من الاسـم والفعـل معـاً، ولهـذا كان ذلـك موضوعاً لخـلاف النحويين، فالبصريون يصنفونه في قسـم الأسماء، بينما يصنفه الكوفيـون في باب الأفعال، فيقسـمون الفعل على ماضٍ ومضارع ودائم، ويعنون بالدائم صيغة اسم الفاعل.

إن الطبيعـة المزدوجـة لاسـم الفاعل تعطيـه مـن القـدرة فـي التعبيـر عـن المضاميـن مـا لا يكون لغيـره، وتمنحه مـن المرونة في العدول إلـى صيغ أخرى للتعبيـر عن مضاميـن أبلـغ، فدلالته بين الفعلية والاسمية تثوّر فيه إمكان التطور والعـدول، إذ صار مشـتركاً بين الدلالة علـى الثبوت مـن جهة النظر إليه أسـماً، مقابل الفعل الدال على التجدد[١٩].

لذلك كان اسـم الفاعـل (راكعون) قد جمـع بين ثبـات الدلالة على شـخص معيـن من جهـة وحالة التجـدد من كونه حـالاً وهيئة لفعل قد وقع فـي ذلك الآن، ثـم أن (اسـم الفاعل ما دل علـى الفاعل، والفاعل ما دلّ على الفعل)[٢٠].

وهكذا نجـد أن النص الكريم قد حـدد كل معالم الـدلالات وقيدها بما يتفق مع السـياق العام للآيـة المباركة فـي تعيين شـخص (الذيـن آمنـوا) من خـلال المسـتويات الوظيفيـة تلـك، وحدده تحديداً يتجـه في كل مضامينه إلى شـخص بعينه، ولأجل اضفاء الضوء الكاشـف عنـه، لابد أن نكشـف عن المقام الـذي نزلت فيه الآية المباركة، والمناسـبة التـي جاءت فيهـا وذلك من خلال حديث يرويه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه عندما جاء إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه، إذ أقبـل أبـو ذر متعمماً بعمامته فسـأله ابن عباس قائلاً: (سألتك بالله من أنت،

فكشف العمامة عن وجهه وقال: أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا جندب بن جنادة الربذي، أبو ذر الغفاري، سمعت رسول اللهﷺ بهاتين وإلا فصمتا، ورأيته بهاتين وإلا فعميتا، يقول: عليٌّ قائد البررة وقاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله، أما أني صليت مع رسول اللهﷺ يوماً من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه احد شيئاً فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً، وكان عليٌّ راكعاً فأومأ بخنصره اليمنى إليه، وكان يتختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين رسول اللهﷺ، فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إن أخي موسى سألك فقال: ربي اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري، فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما، اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشد به ظهري، قال أبو ذر: فو الله ما استتم رسول الله الكلمة حتى نزل عليه جبريل من عند الله فقال: يا محمد أقرأ قال: ما أقرأ، قال: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللّه وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا)[٢١].

وقد روى هذا السبب في نزول الآية المباركة جميع أتباع أهل البيتعليهم السلام وكذلك روته مصادر السنة والجماعة حتى بلغت أكثر من ستين مصدراً[٢٢]، منهم أبو إسحاق الثعلبي(ت٣٣٧هـ) في تفسيره، والطبري(ت٣١١هـ) في جامعه، والزمخشري (ت٥٣٨هـ) في كشافه، إذ قال: (وإنها نزلت في علي كرم الله وجهه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته فطرح له خاتمه، كأن كان مرجاً في خنصره فلم يتكلف لخلعه كثير عمل تفسد بمثله صلاته)[٢٣].

إذاً نجد أن كثيراً من علماء أهل السنة والجماعة قد اتفقت كلمتهم على نزولها في أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام، فيما شذّ صاحب دقائق التفسير عن هذا بقوله: (وقد وضع بعض الكذّابين حديثاً مفترى أن هذه الآية نزلت في عليّ لما تصدّق بخاتمه في الصلاة، وهذا كذب باجتماع أهل العلم بالنقل، وكذبه بين من وجوه كثيرة منها أنّ قوله (اللذين) صيغة جمع وعليٌّ واحد، منها أن الواو ليست واو حال، إذ لو كانت كذلك لكان لا يسوغ أن يتولى إلا من أعطى الزكاة في حال الركوع، فلا يتولى سائر الصحابة والقرابة، ومنها أن المدح إنما يكون بعمل واجب أو مستحب وإيتاء الزكاة في نفس الصلاة في حال الركوع ليست واجباً أو مستحباً باتفاق علماء الملة)[٢٤]، فيما اتجه ابن كثير (ت٧٧٤هـ) إلى تضعيف سند الرواة الذين رووا حديث آية الولاية فيتجاهلها ثم ينسب سبب نزولها إلى عبادة بن الصامت، إذ يقول: (وقد تقدم في الأحاديث التي أوردناها أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامترضي الله عنه حين تبرأ من حلف

اليهود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين)[٢٥]، وهو قبل ذلك ذهب إلى أن قوله تعالى: (وهم راكعون) ليست حالاً بقوله: (فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله ويؤتون الزكاة) أي حال ركوعهم ولو كان هذا لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح وليس لأمر، كذلك عند أحد من العلماء ممّن نعلمه من أئمة الفتوى)[٢٦].

إن كلام هذين ومن شذّ من سواهما مخالف لجمهور علماء السنة فضلاً عن الخاصة من الأمامية، إذ ذكرت معظم التفاسير أن هذه الآية المباركة نزلت في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد جاء عن أبي عبيد قوله: (بلغنا أنها نزلت في علي بن أبي طالب)، ثم يستدل منها على أن دلالة المولى والولي واحدة مستشهداً بقول رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبة حجة الوداع بقوله: (وهذا يبين لك قول النبي صلى الله عليه وآله من كنت مولاه فعلي مولاه، فالمولى والولي واحد والدليل على هذا قوله جلّ وعزّ (اللّه وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)[٢٧]، وكذلك الثعالبي في تفسيره يذكر اتفاق الأئمة على ذلك بقوله: (ولكن اتفق مع ذلك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أعطى خاتمه وهو راكع)[٢٩]، وذكر ذلك أيضاً الطبري في جامعه[٣٠] والقرطبي برواية ابن عباس[٣١] والبيضاوي في تفسيره[٣٢]، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم[٣٣]، واخرج السيوطي (ت٩١١هـ) سبب النزول من أسانيد كثيرة وقال: (واخرج الخطيب في المتفق عن ابن عباس قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع، فقال النبي صلى الله عليه وآله للسائل: من أعطاك هذا الخاتم، قال: ذاك الراكع، فأنزل الله: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللّه وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ)[٣٤] وغيرها من التفاسير المعتبره من العامة والخاصة، فلتعلم بعد هذا من هو المفتري.

ثم إن من مزايا لغة العرب في القرآن الكريم أن يعبر عن المفرد بصيغة الجمع كما في قوله تعالى: (وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا)[٣٥] أي (يريد جماعة الكافرين)[٣٦] وكذلك قوله تعالى: (يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا)[٣٧] فهنا (يريد النبي صلى الله عليه وآله وحده)[٣٨].

ومنه كذلك جمع يراد به واحد، كقوله تعالى: (إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ)[٣٩] وقوله سبحانه: (بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)[٤٠]، قال ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ): (وهو واحد، يدل على ذلك قوله: (أرجع إليهم[٤١])[٤٢] وذكر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في قوله تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ)[٤٣] إذ قال: (والمراد بهم ابن مسعود الثقفي وإنما جاز إطلاق لفظ الناس على الواحد لأنه إذا قال الواحد قولاً وله إتباع يقولون مثل قوله)[٤٤].

ثم أن الواو في قوله تعالى (وهم راكعون) هي واو حال، إذ إنّ سبب النزول - وهو يمثل المقام الذي نزلت فيه الآية المباركة - يبين كونها للحال وليست لغيرها، فقد ذكر أبو البقاء العكبري (ت٦١٦هـ) أنها للحال فقال: (وهم راكعون حال من الضمير في يؤتون)[٤٥]، وهذا ما قال به أبو حيان الأندلسي (ت٧٥٦هـ) وموضحاً، إذ قال:

(الواو للحال أي يؤتون الزكاة وهم خاضعون لا يشتغلون على من يعطونهم إياها أي يؤتونها وهم متلبسون بالصلاة)[٤٦] وكذا هي عند أبي السعود (ت٩٥١هـ) إذ يقول: (وهم راكعون، حال من الفعلين... وقيل هي مخصوصة بإيتاء الزكاة)[٤٧] وغير هؤلاء ممن ذكرها حالاً.

هذه كلها دلالات تبين بطلان المبطلين وافتراء المفترين، ممَّن عميت بصائرهم، وضمت آذانهم عن سماع الحق وبيانه، فظهرت مخالفة كلامهم لجمهور علمائهم، وبان خطل رأيهم وضعف حجتهم وعمى بصيرتهم في إتباع لهواهم وابتعادهم عن الحق.

والحمد لله أولاً وآخراً، وجعلنا الله سبحانه، ممن تولى الله ورسوله وعلياً أمير المؤمنين وآلهما الأطهار، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين ■

---

(١) ظ: اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان: ٣٤٢، اللغة بين المعيارية والوصفية وتمام حسان:٢٣.
(٢) سورة المائدة، الآية٥٥.
(٣)ظ: اللغة العربية معناها ومبناها د.تمام حسان:٣٤٢.
(٤) سورة المائدة، الآية٥٦.
(٥) التعبير القرآني د. فاضل السامرائي:٥٦.
(٦) ظ. شرح ابن عقيل، ابن عقيل:١٤٧/١.
(٧) الكشاف،الزمخشري: ٢٩٧، ظ: التبيان في غريب القرآن، الهائم المصري: ١٨٥/١.
(٨) شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش: ١٢٢/١.
(٩) الحدود في النحو، الرماني:٤٠.
(١٠) سورة النساء، الآية ١٧١.
(١١) سورة طه، الآية ١٨.
(١٢) المغني في النحو، بن الفلاح: ٢١٧/٣-٢١٩.
(١٣) الاتقان، السيوطي:٩٨/٢.
(١٤) م.ن:٢٠٩٧.
(١٥) سورة البقرة، الآية١٧٣.
(١٦) في النحو العربي- نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي:٢٥٦-٢٥٧.
(١٧) شرح ابن عقيل، ابن عقيل:٢٢٦/٢.
(١٨) الحدود في النحو، الرماني:٣٩.
(١٩)ظ. الظواهر اللغوية في كتب إعجاز القرآن، عادل عباس النصراوي:٧٦.
(٢٠) شرح المراح في التصريف، العيني:١١٥.
(٢١) مجمع البيان، الطبرسي: م٢١٠/٢، ظ: التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي: ٥٤٩/٣، الكشاف، الزمخشري:٢٩٧.
(٢٢) الكشاف المنتقى لفضائل علي المرتضى، كاظم الفتلاوي:٣٥-٣٨.
(٢٣) الكشاف، الزمخشري:٢٩٧.
(٢٤) دقائق التفسير، ابن تيمية:٢٠٦/٢-٢٠٧.
(٢٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير:٧١/٢.
(٢٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير:٧١/٢.
(٢٧) سورة البقرة، الآية٢٥٧.
(٢٨) معاني القرآن، النحاس:٣٢٥/٢.
(٢٩) الجواهر الحسان، الثعالبي:٤٧١/١.
(٣٠) جامع التأويل، الطبري:٢٨٧/٦-٢٨٩.
(٣١) الجامع لاحكام القرآن، القرطبي:٢٢١/٦-٢٢٢.
(٣٢) تفسير البيضاوي، البيضاوي: ٣٣٩/٢-٣٤٠.
(٣٣) ارشاد العقل السليم، ابو سعود:٥٢/٣.
(٣٤) الدر المنثور، السيوطي: ١٠٤/٣-١٠٥.
(٣٥) سورة النبأ، الآية٤٠.
(٣٦) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة:١٦٣.
(٣٧) سورة المؤمنون، الآية٥١.
(٣٨) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة:١٧٣.
(٣٩) سورة التوبة، الآية٦٦.
(٤٠) سورة النحل، الآية٣٥.
(٤١) سورة النحل، الآية٣٧.
(٤٢) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة: ١٧٣.
(٤٣) سورة آل عمران، الآية:١٧٣.
(٤٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي:٨/٣.
(٤٥) املاء مامن به الرحمن، العكبري:٢١٩/١.
(٤٦) البحر المحيط، ابو حيان:٧٠٥/٣.
(٤٧) ارشاد العقل السليم، ابن مسعود:٥٢/٣.

الفساد الإداري

الأسباب والمظاهر والمكافحة

أ. د. رضا صاحب أبو حمد
كلية الإدارة والاقتصاد/ جامعة الكوفة

المقدمة

ينابيع

لا يعد اهتمام المجتمع الدولي بمسائل الفساد ظاهرة عابرة، إذ صار من المسلّم به حاليا، فالفساد يؤدي إلى تدهور معدلات النمو والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، علاوة على ما قد يسفر عنه من انتهاكات لحقوق الإنسان في الدول التي يُمارس فيها، ومن ثم كان على الأطراف الفاعلة بما فيها الحكومات والقطاع الخاص والفرد والمجتمع وضع حلول لهذه الظاهرة وتنفيذها، ويجب أن تشمل هذه الحلول إجراءات ملموسة تعالج قضايا المسائلة والشفافية على شتى مستويات النظم الاجتماعية والاقتصادية.

تاريخ الفساد

ظاهرة الفساد لا تعتبر ظاهرة حديثة، وليست مرتبطة بزمان أو مكان معين، وإنما هي موجودة من قديم الأزل في معظم الدول والحضارات القديمة،

ولكن بنسب مختلفة.

الفساد في اللغة

الفساد هو التلف وخروج الشيء عن الاعتدال والاستقامة، ونقيضه الصلاح وقد وردت مادة فسد في القرآن الكريم في خمسين آية، تضمنت شتى أنواع الفساد مبينة خطورته و نتائجه السلبية وحذرت المفسدين كما في قوله تعالى(وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين).

الفساد في المفهوم الإداري

يعني استغلال موظفي الدولة لمواقع عملهم وصلاحياتهم للحصول على كسب غير مشروع، ومنافع ومآرب شخصية يتعذر تحقيقها بطرق مشروعة، وبعبارة أخرى، هو سلوك غير رسمي تفرضه ظروف معينة ويقتضيه التحول الاجتماعي والاقتصادي الذي تتعرض له المجتمعات من حين لآخر.

أسباب الفساد

١- طبيعة المنظمة، احتكار السلطة، وعدم الاهتمام بمشاركة المواطنين، العمل النمطي الروتيني الذي يؤدي إلى البرجوازية البيروقراطية، القواعد والإجراءات الحاكمة للعمل في المنظمة.

٢- الفقر والأجر المتدني والتفاوت الكبير في توزيع الدخول والثروات بين أفراد المجتمع الواحد.

٣- العوامل الثقافية ومستويات الإيمان والخوف من الله سبحانه وتعالى، العادات والتقاليد، التربية والتعليم، الولاء للأسرة والمنظمة والوطن.

٤- العوامل التنظيمية: مركزية صنع القرار، بطء عملية الإدارة، ضعف أنظمة الرقابة والمساءلة.

مظاهر الفساد

١- الفساد التنظيمي: ويتمثل في عدم احترام وقت العمل، امتناع الموظف عن تأدية العمل المطلوب منه، عدم الالتزام بأوامر وتعليمات الرؤساء، الإحجام عن العمل، السلبية والانعزالية، عدم تحمل المسؤولية، إفشاء أسرار العمل.

٢- الانحرافات السلوكية: تتمثل في عدم المحافظة على كرامة الموظف، جمع الموظف بين الوظيفة أعمال أخرى، سوء استعمال السلطة، المحسوبية، الوساطة.

٣- الانحرافات المالية: تتمثل في مخالفة القواعد والأحكام المالية المنصوص عليها داخل المنظمة وفي القانون، مخالفة التعليمات الخاصة بأجهزة الرقابة المالية، الإسراف والتبذير.

٤- الانحرافات الجنائية: تتمثل في الرشوة، التزوير، اختلاس المال العام.

سبل مكافحة الفساد

١- توفير فرص العمل لكل من هم في سن العمل أو الراغبين بمزاولته، أي العمل على زيادة الاستخدام وتقليل معدلات البطالة.

٢- أن تكون مستويات الجور والرواتب تتناسب مع مستوى العمل وإنتاجيته وان يغطي الأجر معظم تكاليف المعيشة.

٣- تفعيل دور الحوافز الايجابية والسلبية المادية والمعنوية.

٤- تقوية دور أنظمة المساءلة والرقابة والشفافية داخل المنظمات.

٥- التأكيد على أن يكون نظام الإدارة السائد في المنظمة يقوم على عدد من المبادئ التي يصعب أ ن ينتشر الفساد في ظل وجودها مثل الانفتاح والديمقراطية والمشاركة وتداول المعلومات ■

البطالة

لقد قضى الإسلام على البطالة عملياً حيث اهتم بتأمين العمل للعاطلين فقد ورد: «أن أنصارياً جاء يسأل رسول الله ﷺ شيئاً من المال، وهو قوي معافى، فقال له رسول الله ﷺ: أما في بيتك شيء؟ قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء، فقال ﷺ: ائتني بهما، فأخذهما ﷺ للسوق بيده وقال: من يشتري هذين، فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصاري وقال ﷺ: اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوماً فأتني به. فأتاه به. فوضع فيه رسول الله عوداً بيده ثم قال: اذهب احتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً. ففعل. فجاء وقد أصاب عشرة دراهم. فقال رسول الله ﷺ: هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة».

وبهذا الفعل يكون رسول الله ﷺ قد بين أن البطالة تكون تارة من قبل الإنسان نفسه حيث يميل إلى التكاسل والراحة ويلقي باللوم على المجتمع والدولة، وتارة أخرى تكون البطالة نتيجة إهمال الدولة لحق العاطل عن العمل في مساعدته وتدبير أموره.

تراتيل حزن علوية

بمناسبة فاجعة سامراء الثانية

محمود محمد حسين الموصلي •

مصابك أم مصاب الأنبياء ... أهاج الذكريات بكربلاء
وجرح لم يزل فينا وليداً ... تعاهدناه منا بالوفاء
تبلج في دجى الأيام فجراً ... ينير الدرب في ليل العماء
تبارك جرحك المعطاء نبعاً ... يفيض على المدى حد الرواء
يفيض ومن بغير الجود أولى ... فطبعك أن تجود بلا مراء
فيا ابن الأكرمين وكم تعالت ... ببابك من تراتيل الدعاء
وكم طافت رحابك من جموع ... ترد لربها كف الرجاء
تفيء إلى رحابك وهي تسعى ... لتلثم تربها قصد الشفاء
تعانق أمسك الدامي ويوماً ... تجلل بالدجى بعد الضياء
وحزن لم يزل يبكي عيوناً ... تغشاها من البلوى بداء
وعاث بروضك الفينان رجسٌ ... دعي الأصل من نسل البغاء
وأثمله دفين الحقد سكراً ... عراه بما توارث من عداء
فطاول من علاك أثيل مجد ... تجلت فيه روح الأنبياء
هي الأحقاد من ألف أطلت ... علينا كل يوم في رداء
ولود بالنوائب كالحات ... يطول بظلها ليل العزاء
عزاء سيد الكونين أدمى ... مصابك كاسفاً وجه السماء
لتلك القبة الصفراء هدت ... بسامراء من أهل الكساء
عليها من جلال الله نور ... تكامل سره في الأصفياء
عليها من بهاء الله زهو ... تراءى في شمائل من إباء
عزاء يا رسول الله يبقى ... مدى الأيام ثراً بالعطاء
تحن لذكركم منا قلوب ... براها الوجد شوقاً للقاء
وحسب المرء من ذخر ولاء ... ليبقى شافعاً يوم الجزاء

الغلاة

وأساليبهم في ضرب العقيدة الإسلامية

محمد جواد فخر الدين •
كلية التربية/ جامعة الكوفة

ينابيع

لقد واجهت العقيدة الإسلامية شأنها شأن باقي الأديان السماوية، مذاهب فكرية معارضة لمضمونها أو لبعض مضمونها، تسعى إلى أن تقوض ذات المضمون أو تحرفه، أو تجره إلى مضمون آخر معين ليصبح مشابهاً له أو مطابقاً، وكثيراً ما ينتهي هذا المسعى بالتقويض أو التحريف، مع العلم أن العقيدة الإسلامية قد واجهت تحديات كبيرة ما لم تواجهه أي عقيدة أخرى، وذلك سواء من حيث حدة الاعتراضات وشمولها، أو من حيث تنوع و تعدد الأطراف و الجهات المتحدية.

حيث عمل الغلاة في بث آرائهم وأفكارهم في قضايا أساسية تمثل محورا أو قاعدة مهمة في العقيدة الإسلامية، بحيث لو سقطت منها واحدة لسقطت العقيدة بأكملها، وخاصة فيما يتعلق بالإلوهية، كالقول بالتعدد، والتشبيه والتجسيم، والاتحاد والحلول، إضافة إلى عملية الدس والتحريف في بعض العقائد المهمة كالرجعة والمهدية والعصمة[1].

لكن هنا السؤال كيف استطاع هؤلاء ترويج أفكارهم ومعتقداتهم وتسربيها إلى العقيدة الإسلامية ويمكن أن نرجع هذه الأساليب إلي مرتكزين رئيسيين:

الأسلوب الإخباري: وهو أن يعمد المخالفون إلى اصطناع أخبار تخص مسائل العقيدة، وتتضمن ما يوافق معتقدهم ويخالف المعتقد الإسلامي، أو نقلها من مصادر مذاهبهم وأديانهم، ثم يقحمونها ضمن المصادر التي يتجه إليها لتصور عقيدتهم، وخاصة الحديث الشريف، وبذلك تصبح مضامين تلك الأخبار ـ على قصدهم ـ ضمن المعتقد الإسلامي.

إنّ هذا الأثر نلمسه واضحا في دور مسلمة الكتاب وخاصة في الشخصيات اليهودية التي كان لها دور بارز في إيصال الثقافة اليهودية وإضافتها على ما أنتجته البنية العقيدية الإسلامية من نصوص تلاقحت وتمازجت فأنتجت ظاهرة ثقافية في هذه البيئة أصطلح على تسميتها بـ(الإسرائيليات)[٢]، وهي تلك الأخبار والأحداث والقصص التي كانت رائجة بين اليهود في التوراة، وقذف بها جماعة ممن أسلموا منهم أو أظهروا الإسلام إلى الحديث الشريف على أنها من أقوال الرسول ﷺ، أو إلى

تفسير القرآن على أنها من مدلولات آيات العقيدة وقصص الأنبياء على الأخص.

وبين فان فولتن وغيره من المستشرقين الدور الكبير الذي لعبته بعض هذه الشخصيات في النسيج العقيدي للإسلام وما أسهمه فيما بعد في عقول المسلمين، وعزا ذلك بصورة لا تقبل الشك إلى الكتب القديمة لليهود والنصارى، وكان الطريق لها معبدا بمجرد اتصال العرب الفاتحين بهم واعتناق بعضهم للإسلام تسربت تلك الأخبار التي بثها هؤلاء في أذهان المسلمين وأذيعت بينهم[٣].

ومن أشهر من قام بهذا الصنيع عبد الله بن سلام (ت٤٣هـ)، ووهب بن منبه (ت١١٤هـ) وكعب الأحبار (ت٣٢هـ)، فظهرت الأحاديث التي تصف الله تعالى في ذاته وأفعاله بما يدل على التجسيم والتشبيه، والأحاديث التي تثبت قضايا الوصية والمهدية والغيبة والرجعة وغيرها مما تزخر به التوراة والتلمود، فلم يكن اليهود في أول العقد يستطيعون أن يقحموا عقائدهم في العقيدة الإسلامية بأسلوب عقلي فلسفي يناقش قضايا العقيدة الإسلامية ويثبت العقيدة اليهودية، فلجؤوا إلى ذلك الأسلوب الإخباري، وكان بعض المسلمين يستطيعون فهم الأخبار والحكايات التي تلقي إليهم لخلوها من التعقيدات الفلسفية والعمق الفكري، ثم إنهم مولعون بكل ما فيه مبالغة وتهويل مما يخص موضوعات وأشخاصا تحظى لديهم بقداسة، فإذا ما ألقيت إليهم أحاديث من هذا النوع أرضت فضولهم فآمنوا بها واعتقدوها على حساب معتقدهم الإسلامي الصحيح.

ولم يكن هذا الأسلوب مقتصرا على اليهود فقط، بل كان يستعمله كثير غيرهم، ومنهم بعض ممن كان ينتمي إلى الزندقة، فقد كانوا لأسباب عقائدية أو سياسة يلفقون الأخبار والأحداث مما يتعلق بالعقيدة وغيرها ويدسونها في الحديث، والقصد من ذلك إفساد الدين بإفساد عقيدته، يقول ابن الأثير: (فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة أخذوا في وضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفة العقول في دينهم... فكان أول من فعل ذلك أبو خطاب محمد بن أبي زينب مولى بني أسد، وأبو شاكر ميمون بن ديصان صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة)[٤].

وبين الشريف المرتضى دور هؤلاء بقوله: (جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام ويحقن بإظهار شعائره والدخول في جملة أهله دمه وماله زنادقة ملحدون وكفار مشركون فمنعهم عز الإسلام عن المظاهرة وألجأهم خوف القتل إلى المساترة وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ

لأنهم يدغلون في الدين ويموهون على المستضعفين بجأش رابط ورأي جامع فعل من قد أمن الوحشة ووثق بالأنسة بما يظهره من لباس الدين الذي هو منه على الحقيقة عار وبأثوابه غير متوار.. كما حكى أن عبد الكريم بن أبي العوجاء قال لما قبض عليه محمد بن سليمان وهو والي الكوفة من قبل المنصور وأحضره للقتل وأيقن بمفارقة الحياة لئن قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة)[٥].

وكذلك وضع بعض المسلمين أحاديث يروجون بها أمر أحزابهم، وبدأ التأويل في كتاب الله وسنة نبيه، وظهر التغالي في الدين، وافترق الناس، وكل طائفة ترغب أن توفق بين ما كان عندها وبين ما في الدين الإسلامي، فزادت الشبه واختلط الحق.

ثانياً: الأسلوب الفلسفي والكلامي:

إذ كان للمسيحيين دور كبير في هذا الجانب، فإنهم كانوا قد أقاموا لهم قبل ظهور الإسلام علم لاهوت يشرح القضايا العقائدية ويبرهن عليها. ويقوم على قواعد المنطق الأرسطي، ويستمد من نتاج الفلسفة اليونانية. فالفكر اللاهوتي المسيحي كان منذ القرون الأولى لظهور المسيحية قد اتخذ لنفسه عبارة يونانية، ثم إنه نشأ وتطور في بيئة يونانية بثقافتها وحضارتها يقول ليون جوتيه: (...وهكذا كان التزاوج بين العقيدة اليهودية، والفلسفية الإغريقية لم ينتج فلسفة فقط، بل أنتج معها دينا أيضا، أعني المسيحية التي تشربت كثيرا من الآراء والأفكار الفلسفية عن اليونان، ذلك أن اللاهوت المسيحي مقتبس من نفس المعين الذي كانت فيه الأفلوطونية الحديثة ـ وهي فلسفة أفلاطون التي كانت معينا لفلسفة أفلوطين ـ ولذا نجد بينهما (أي اللاهوت المسيحي، والأفلوطونية الحديثة)[٦]، ويقول أوليري في هذا المعنى كذلك: (إن الفلسفة الإغريقية السائدة قد سيطرت تماما على لاهوت الكنيسة، فكان من الضروري أن يعبر عن قضايا اللاهوت بعبارات ملائمة تماما للفلسفة)[٧]، وقد استعمل هذا الأسلوب بوضوح أكثر في قضية المسيحيين الأولى، وهي قضية الأقانيم بما تشمل من مسائل الجوهرية والحلول، وطبيعة المسيح، فإن المسيحيين قد درسوا في الفلسفة اليونانية مسألة الجوهر، والفيض، والنفس وأحكامها، والعقل وأنواعه، وجعلوا من بعض الآراء فيها مقدمات انطلقوا منها لتأييد عقيدتهم.

عن علي بن سالم، عن أبيه قال: قال أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«أدنى ما يخرج به الرجل من الايمان أن يجلس إلى غال ويستمع إلى حديثه ويصدقه على قوله، إن أبي حدثني عن أبيه عن جده (عليهم السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الاسلام: الغلاة والقدرية».

بحار الأنوار ٥/ ٨

فكلمة الله التي هي المسيح قد جعلها آريوس بمعنى عقل الله،وعلاقة الأبوة بين المسيح والله قد فسرها بعضهم بالفيض، و جعلوه فيضاً أزلياً لإثبات أزلية المسيح، و هو على غرار الفيض الافلوطيني، و تفسيرات طبيعة المسيح من كونه لا هوتاً صرفاً أو مزيجاً منهما قد استفاد من دراسة النفس في الفلسفة اليونانية[٨].

لذا يرى بعض المستشرقين بتأثر علم الكلام عند المسلمين بالفكر النصراني، وأشار إلى ذلك دي بور بقوله: (وأول مسألة كثر حولها الجدل بين العلماء المسلمين مسألة الاختيار وكان النصارى الشرقيون يكادون جميعا يقولون بالاختيار)[٩]، ومن هنا نشأت البواكير العقلية عند المسلمين من مؤثرات نصرانية مصطبغة بالفلسفة اليونانية في دورها الشرقي[١٠].

وقد يفتقر هذا الرأي بعض الشيء إلى الدقة العلمية لان كثير من الآيات القرآنية تدعو إلى النظر العقلي وان نشأة الفرق والأبحاث الكلامية كان متأثرا بعوامل دينية، وأما المذاهب الإسلامية فقد كانت عاملا باعثا وحافزا ليس إلا[١١].

وقد استعمل الأسلوب الفلسفي أيضا المجوس في شروحهم لمبدأ الاثنينية وفي الاستدلالات التي ساقوها لإثبات الإلهين القديمين، وقد بدا في ذلك تأثره واضحا بالفلسفة اليونانية ومنطقها، فمزدك نجده يرجع الأصلين القديمين للعالم عند سابقيه النور والظلمة إلى أصول ثلاثة: الماء والنار والأرض، اختلطت فحدث من اختلاطها على نسب متساوية مدبر الخير ومدبر الشر، وهذه الأصول مما قال به فلاسفة اليونان الطبيعيون[١٢].

ونجد أتباع أديان الهند وخاصة البراهمة قد اتخذوا في إثبات معتقدهم أسلوبا فلسفيا منطقيا، وعلى الأخص في إنكار النبوة[١٣].

وإذا كانت العقيدة الإسلامية قد واجهت المطاعن بالأسلوب الفلسفي في الفكر الديني وعلى الأخص المسيحي، فإنها قد واجهت هذا الأسلوب في صورة أعتى وأشد في تحديات الأفكار اليونانية التي تتلاقى معها في الموضوع، حيث اهتم بعض حكام الأمويين وخلفاء العباسيين بنقل الكتب الفلسفية إلى الحضارة الإسلامية، فترجمت عدة كتب من اليونانية والهندية والفارسية، ونشطت حركة الترجمة في زمن المنصور والرشيد والمأمون، ثم ظلت الفلسفة اليونانية تروج نظرياتها الفلسفية في الحياة والكون وما وراء الطبيعة، إلا أن تلك الحركة قد تركت آثارا سلبية حيث بذرت شبها كثيرة في حقل العقائد والأحكام بين المسلمين، خصوصا غير المتدرعين منهم بسلاح العلم والبرهان، فاشتد

حمى الجدال بين المسلمين ورواد الأفكار الدخيلة. وقد عملت على هدم العقائد الإسلامية، والإطاحة بفكرة التوحيد وتعاليم القرآن الكريم[١٤]. وقد أسرع المسلمون في بلورة أفكارهم الجديدة للوقوف أمام فاعلية تيار الفلسفة اليونانية التي لاقت رواجاً كبيراً في بداية القرن الثاني الهجري[١٥] ■

(١) ينظر: ابن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق،٢١٤/١-٢١٦، الشهرستاني، الملل والنحل، ١٧٣/١، المحقق الحلي، المسلك في أصول الدين،ص٦٤ ـ ٦٦.
(٢) فان فولتن، السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ص١٠٨ - ١٢٠.
(٣) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ص١١٢ - ١١٣، جولد زيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ص٧٥-٧٨.
(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ٨ /٢٨.
(٥) الأمالي ٨٩/١.
(٦) المدخل لدراسة الفلسفة ص٤٦.
(٧) الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ص٤٦.
(٨) شلبي، أضواء على المسيحية ص٣٢-٣٣.
(٩) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص٩٤.
(١٠) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص٨.
(١١) صكبان، النصرانية وعلم الكلام عند المسلمين، ص٢٠٣.
(١٢) الشريف المرتضى، الرسائل ٢٨٤/٢، الشهرستاني، الملل والنحل ٣٧٧/١، النشار، نشأة الفكر الفلسفي ٢٥١/١.
(١٣) الشهرستاني، الملل والنحل، ٢٥٠/٢-٢٥١، أبو الصلاح الحلبي، الكافي،ص٧٨.
(١٤) سبحاني، رسائل ومقالات، ص٤٧٩-٤٨٠.
(١٥) الغفار، الكافي والكليني، ص٢٧٢.

أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس

روى ابن شهرآشوب عن مسند أبي حنيفة أن الحسن بن زياد قال: سمعت أبا حنيفة وقد سئل: من أفقه من رأيت؟ قال: جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور بعث إليّ، فقال: يا أبا حنيفة، إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيئ له من مسائلك الشداد.

فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إليّ أبو جعفر المنصور وهو بالحيرة، فأتيته، فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلني من الهيبة ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور، فسلمت عليه فأومأ إليّ فجلست، ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة، قال: نعم أعرفه، ثم التفت إليّ فقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله من مسائلك. فجعلت ألقي عليه فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، فربما تابعنا، وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة فما أخلّ منها بشيء.

ثم قال أبو حنيفة: أليس إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس؟.

المناقب ٣/ ٣٤٣

بحث
في رؤية الله تعالى

الشهيد السيد عز الدين بحر العلوم •

لقد قدم للمكتبة الإسلامية عدم من مفكرينا نتاجاً فكرياً ضخماً تنوعت طروحاته، وهذا التنوع إنما يدل على سعة الاطلاع والتبحر في العلم والمعرفة، وقد برز منهم الشهيد السيد عز الدين بحر العلوم المعروف برصانة قلمه، وحصافة فكره، وقد ترك لنا بين نتاجاته مقالات وبحوث لم يقدر لها أن ترى النور.. لذا ارتأت المجلة نشر ما يلائم منها متطلبات المرحلة الآنية ونحن في خضم الصراع الفكري تقديراً منّا لدور مفكرينا العظام.

إطلالة مقتضبة على سيرة السيد بحر العلوم

هو عز الدين بن علي بن هادي بن علي نقي آل بحر العلوم الطباطبائي.

ولد في النجف عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٢م في عائلة علمائية أخذت طريقها للعلم كابر عن كابر، وكان لأبيه السيد علي الدور الأكبر في رعايته.

تدرج في دراسته الحوزوية وكان آية الله الشيخ حسين الحلي معلمه الأول، ثم حضر دروس المراجع الكبار كفقيه العصر السيد محسن الحكيم وزعيم الحوزة العلمية السيد أبي القاسم الخوئي حتى عدّ من خاصّة الأخير.. تميز بذهنية عالية وفكر متنور.

أهم مؤلفاته: الزواج في القرآن والسنة، الطلاق أبغض الحلال إلى الله، اليتيم في القرآن والسنة، أضواء على دعاء كميل، وأضواء على دعاء الصباح.. إضافة إلى عدد هائل من المحاضرات والبحوث.

اعتقل بعد إجهاض الانتفاضة الشعبانية سنة ١٩٩١م من قبل السلطات البعثية مع كوكبة من أسرته وأقاربه، وبعد سقوط النظام تبين استشهادهم جميعاً.

ينابيع

من جملة ما تعرض إليه الأستاذ محب الدين الخطيب في خطوطه العريضة هو البحث في رؤية الله فنقل على عادته رأي أهل السنة في ذلك فقال:

ممكنة في الآخرة فقط لقوله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ) ثم عقب ذلك بنقل رأي الشيعة في ذلك فقال:

غير ممكنة لا في الدنيا ولا في الآخرة الخطوط العريضة ص٥٣.

وحيث ذكر الباحث الدليل الذي اعتمد عليه أهل السنة في إمكان رؤية الله في الآخرة فقط وهو الآية الكريمة فلابدّ لنا من الانتقال إلى رحابها لنرى ما يقوله المفسرون فيها ثم الحكم بعد ذلك وعلى ضوء ما نتوصل إليه من الإمكان أو الاستحالة.

الآية الكريمة جاءت في سورة القيامة لتصور لنا وما بعدها من آيتين مشهداً من مشاهد القيامة فتعطينا صورة حية عن ذلك اليوم الرهيب حيث يقف الإنسان والدهشة تأخذ عليه مسالك التفكير ليرى نتيجة ما عمله في دنياه ليُحاسب على ما فعل وما قدم وما أخر وهو (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ❖ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ❖ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ❖ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) سورة يس: ٣٤-٣٧.

في هذا اليوم العصيب تستعرض الآيات الكريمة بني الإنسان لتقسمهم إلى قسمين:

فالبعض منهم يجنى ثمرة إيمانه بربه والخضوع لما أمر به ونهى عنه وإذا بهؤلاء (وجوه يومئذ ناضرة) حسنة فما حكم مستبشرة بوعد الله الكريم (إلى ربها ناظرة).

أما البعض الآخر فقد خسر في دنياه وآخرته فلم يخضع ولم يكن للإيمان إلى قلبه سبيل وإذا بهم (ووجوه يومئذٍ باسرة تظن ان يفعل بها فاقرة).

ويتفق هذا البعض بوجوه عابسة مكفهرة لا تدري ما اخفي لهم في ذلك اليوم من داهية وبلاء.

ومقاطع هذه الآيات الكريمة لم يحصل الاختلاف فيها من قبل المفسرين الاّ في المراد من قوله تعالى (إلى ربها ناظرة).

فقيل في ذلك وجوه وبالامكان ارجاع تلك الوجوه إلى قولين رئيسين:

أحدهما - أن النظر هنا بمعنى الرؤية والمشاهدة بالعين المجردة ويكون تفسير هذه الآية المباركة أن تلك الوجوه الحسنة الناعمة تنظر إلى ربها تشاهد جلاله وتتطلع إليه.

ثانيهما ـ ان النظر هنا بمعنى الانتظار فهي وجوه حسنة تنتظر من الله الثواب او الرزق او الفضل او ما اوعدها عليه في الدنيا في الجزاء ونظير ذلك ما جاء في قوله تعالى:

(وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) والمراد انّي منتظرة جواب رسالتي وفي الشعر العربي جاء ذلك حيث يقول الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظراتٌ

إلى الرحمن تنتظر الفلاحا

وطبيعي أن الشيعة ذهبوا إلى القول الثاني ليفسروا الآية بمعنى الانتظار على العكس مما يقول به غيرهم من القول الأول وهو كون النظر فيها بمعنى الرؤية وبعد هذا العرض نقول.

ومع الأستاذ في عبارته:

أولاً: أن ما ذهب إليه الشيعة من اعتبار النظر في الآية بمعنى الرؤية لم يختصوا به بل وافقهم عليه جمع من المفسرين فليس هو من مبتدعات الشيعة وخرافاتها ليكون هذا القول تشنيعاً عليهم.

وثانياً: أن على الجانب الشيعي أن يفند القول بإمكان النظر إلى الخالق بمعنى الرؤية كما يدعيه الطرف الآخر ليسلم له مدعاه من القول بان أولئك البعض منتظرون لرحمة ربهم لا أنهم يرونه مشاهدة.

وفي هذا الحال يدعي القائل بالإحالة للرؤية بانا لو اجزنا للبشر أن ينظر بهذه الحاسة البصرية إلى خالقه فلماذا نقتصر على هذه الناحية في الآخرة وليكن ذلك أيضاً في الدنيا ولماذا تقوى حاسة البصر بعد الموت وفي يوم القيامة فتنظر إلى ما كانت محرومة عن رؤيته في الدنيا؟

وثالثاً: ان الكتاب الكريم نفسه حدث عن هذه الظاهرة فمنعها في سورة الأنعام: ١٠٣ حيث قال: (لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) والآية صريحة في انه يرى البشر بينما هم لا يرونه.

وقد يقال: بأن الإدراك ليس بمعنى الرؤية بل الوصول ويكون التقدير عدم الوصول إلى فهم حقيقته وكنه ذاته.

ويكون الجواب: إن الإدراك حيث يضاف إلى الحواس فيفهم منه كل ما لتلك الحاسة من عمل فإذا أضيف إلى العين علمنا منه الرؤية وإذا أضيف إلى السمع حيث يقال أدركته باذني يفهم منه السماع وإذا قيل ادركته بفمي أي وجدت رائحته.

وعليه فالآيتان متعارضتان لو قلنا إن النظر بمعنى الرؤية فكيف ينفي الله ما أثبته لنفسه.

والجمع بين الآيتين يكون بحمل النظر في الآية على الانتظار وبحمل الإدراك على الرؤية.

ورابعاً: ان النظر بمعنى الرؤية له تعالى مستحيل ويستند القائل بالإحالة لإثبات مدعاه إلى القول:

بأن النظر إلى شيء تحديد له في المنطقة وهذا يستلزم حصره تعالى في مكان خاص وهو محال لأن المكانية يحتاج إليها الجسم وهو تعالى منزه عن الجسمانية.

على أن التحديد المذكور بالمكانية يستلزم خلوه عن الأماكن الأخرى وهذا مستحيل لأنه في كل مكان ويشير إلى هذا المعنى الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة حيث يقول:

(وكمال معرفته التصديق به وكمال

التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة.

فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله ومن جهله فقد أشار إليه ومن أشار إليه فقد حده ومن حده فقد عده).

ويعلق الشيخ محمد عبده على الفقرة الأخيرة قائلاً:

إنما تشير إلى شيء إذ كان ذلك في جهة فأنت تتوجه إليها بإشارتك وما كان في جهة فهو منقطع عن غيرها فيكون محدوداً أي له طرف ينتهي إليه فمن أشار إليه فقد حده ومن حد فقد عد أي أحصى وأحاط بذلك المحدود لأن الحد حاصر لمحدوده.

ويعلق ابن أبي الحديد على هذه الفقرة قائلاً: (ومن حده فقد عده) وهذا لأن كل مشار إليه فهو محدود لأن المشار إليه لابدّ أن يكون في جهة مخصوصة وكل ما هو في جهة مخصوصة فله حد وحدود أي أقطار وأطراف.

وتعالى الله عن التحديد لأن المحدودية من لوازم الجسم كما بيناه.

وبعد هذه الجولة يتضح لنا ان النظر في الآية الكريمة ليس هو الرؤية خصوصاً إذا لاحظنا التنسيق بين الموقفين موقف هؤلاء بوجوههم الناعمة ومن يقابلهم بوجوههم المكفهرة وكل ينتظر جزاءه ويأتي مثل هذا المنظر في سورة أخرى من القرآن حيث يقول تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ❖ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ❖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ❖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ❖ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) سورة عبس: ٣٨-٤٢.

ان الكتاب الكريم يريد بتكرار هذه الصورة عرض حالتين ومشهدين في احدهما يعلو الرضا والاستبشار على الوجوه وفي الآخر تعلو الكآبة والعبوس وكل من الطرفين ينتظر جزاءه في ذلك اليوم.

يقول بعض المفسرين في ختام حديثه عن قوله تعالى (إلى ربها ناظرة)، إذن فقد كان جدلاً ضائعاً، ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضيهم من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك المقام.

لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض ويتصورون المدارك المحدودة المجال إلى قوله فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادئ وفيض الفرح المقدس الطهور الذي ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك وليشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض فهذا التطلع ذاته نعمة لا تفوقها الاّ نعمة النظر إلى وجهه الكريم) في ظلال القرآن في تفسير الآية.

وختاماً فما يذهب إليه الشيعة من احالة رؤيته تعالى في الدنيا والآخرة مبتنى على أسس علمية وليس من نسيج الخيال والخرافة قواعد تبتنى على إجلاله وتعظيمه وتنزيهه عن الصفات التي تختص بمخلوقاته.

ولك أن تحكم أيها القارئ بعد هذا العرض أن الشيعة مخطئون أو مصيبون فيما ذهبوا إليه في معتقدهم المذكور ■

١٢ جمادى الآخرة ١٣٩٣

مزار موسى المبرقع..

نفحة جوادية تفوح في فضاء قم المقدسة

استطلاع: حيدر الـجد •
تصوير: حسين علي الخرسان •

چهل اختران

ينابيع

ها هي مدينة (قُم) المقدسة تطالعنا ونحن نجتاز هذه الجبال المنتشرة هنا وهناك وكأنها قد وزعت على الأرض بطريقة هندسية فنية أضفت على مدخل المدينة جمالية ورونقاً.

وبفضل وجود السيدة فاطمة بنت الإمام موسى الكاظم عليه السلام أصبحت هذه المدينة محطاً لأنظار الزائرين الذين يمموا وجوههم شطر ثامن الأئمة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وكأنما قصدهم دخول بقعته الطاهرة من باب أخته المعصومة عليها السلام.

ولعل القاصد إلى مدينة (قُم) لأول مرة يتبادر إلى ذهنه بأن (قُم) تخلو من المزارات الخاصة بأبناء الأئمة عدا هذه السيدة الطاهرة كريمة العبد الصالح، باب الحوائج موسى بن جعفر عليه السلام ولكنه سيرى إن أتيحت له الفرصة عدداً من المزارات بين الابن المباشر للإمام وآخر ممن ينحدر من أبناء الإمام إضافة لذلك العدد الكبير من قبور العلماء الأعلام والأولياء الصالحين.

من بين أولاد الأئمة زرنا ونحن في هذه المدينة المباركة مرقد السيد موسى المبرقع ابن الإمام محمد الجواد عليه السلام، وشقيق الإمام علي الهادي عليه السلام ومن هناك سجلنا استطلاع مجلتنا لهذا العدد الذي نرجو أن نكون قد وفقنا في تسليط الضوء على هذا المرقد المطهر.

سبب تسمية المدينة بـ(قُم)

في العدد الأول من مجلتنا أجرى أخونا السيد علي القاضي استطلاعاً عن مرقد السيدة فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر بعنوان (لقطة من الجنة) وقد غطى حفظه الله مساحة واسعة من تاريخ مدينة (قُم) فلم يترك لنا سوى السبب في إطلاق لفظة (قُم) على هذه المدينة، وقد اختلفت الآراء حول ذلك ونذكر من تلك الآراء:

١- يذهب مصنف كتاب (قُم نامه) إلى (أن ظهور قُم يعود إلى أواخر القرن الأول الهجري ويقول: إن عرباً من الأشاعرة كانوا من شيعة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، تعرضوا لظلم وجور واضطهاد بني أمية، فهربوا من العراق إلى إيران وسكنوا (قُميندان) وبعد مدة طويلة من الحصار أنشأوا سبع قرى صغيرة تعرف كبراها بـ(قُميندان) فكانت أساساً للمدينة)[١]. ويوافق هذا القول ما ذكره ياقوت بقوله بعد ذكره للأشعريين: (وصارت السبع قرى سبع محال بها وباسم إحداها وهي كُمُندان فأسقطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم قُماً)[٢].

٢- قيل: إن اسم (قُم) قديماً كان (قوانا أو كوانا) ثم تحولت إلى (قُم) شيئاً فشيئاً إلا أن في الخبر جاء (أن رسول الله رأى في ليلة المعراج وهو في طريقه إلى السماء إبليس جالساً في هذا المكان واضعاً رأسه بين رجليه فصرخ صلى الله عليه وآله به قائلاً: قُم يا ملعون) ومن ذلك أطلق على هذه الأرض اسم قُم[٣].

٣- أطلق اسم (قُم) على هذه البقعة لانخفاض سطحها إذا ما قورن بالسطوح المحاذية لها وعلى أثر هذا الانخفاض صارت تختزن مياه أنهار تلك المنطقة في أرضها، وكل أرض تختزن مياهاً أو بقعة يتجمع فيها الماء يطلق عليها اسم (قُم) كما يطلق على الأداة التي تختزن الماء

تظهر في هذه الصورة مرقد موسى المبرقع الواقع في محلة (چهل اختران) المطلة على شارع (آذر)

اسم (قمقمة).

٤- وقيل: إن في تلك البقعة عين ماء نضاخة باسم (كُب) وكان ماؤها يجتمع في منطقة (قُم) الحالية، وقد عرف النهر الذي كان ينبع من تلك العين باسم (كُب رود) ويقال لها بالعربي: (قُم رود)، فأطلق على هذه المنطقة بسبب وجود هذا النهر المسمى (قُم رود) اسم (قُم)[٤].

٥- وقيل: إن الشخص الذي بنى مدينة (قُم) كان يدعى (قُم سارة بن لهراسب) فسميت طبقاً لاسمه (قُم)[٥].

٦- وقيل: إن أصل تسميتها (كم) التي معناها: القليل إذ كانت قرية صغيرة ثم عربت إلى (قُم) بعد الفتح الإسلامي[٦].

موقع (قُم) الجغرافي

(إن مدينة قُم هي إحدى المدن الكائنة بمحاذاة صحراء ملحية قاحلة، وتبعد هذه المدينة المقدسة الواقعة غرب البحيرة الملحية عن طهران العاصمة مسافة ما يقرب من (١٥٠كم)، كما أنها تقع على هضبة ترتفع بمقدار تسعمائة متر وثلاثة أمتار عن سطح البحر.

يحدها من الشمال الري وطهران ومن الجنوب كاشان ومحلات بينما تحدها تفرش وساوة من جهة الغرب وصحراء ملحية قارة من الشرق)[٧].

تقع مدينة (قُم) على الطريق الممتد

مـن طهران إلـى اصفهان حيـث تبعد عن اصفهان (٢٧٣كم) (والمدينة الآن مقسمة إلى قسمين شـأنها شأن كثير من المدن القديمة، القسم القديم ذو الطرق الملتوية والأزقة الضيقة والأسـواق المظلمة، وفي هـذا القسـم توجـد المقابر والمسـاجد والمعابـد الأثريـة، والقسـم الجديـد ذو الشـوارع العريضـة والبنايـات العصريـة والأزقة المستقيمة)[٨].

هجرة العلويين إلى (قُم)

بينما كان العلويون وشـيعتهم يعانون الأمرين مـن الدولتين الأموية والعباسـية اللتيـن تتبعتا أئمة أهل البيت عليهم السلام وذريتهم الطاهـرة وشـيعتهم النجباء كانـت (قُم) المـلاذ الآمن الذي وجدوا فيه فسـحة من العيش وأملاً في الحياة، فكان توافدهم على هـذه المدينـة مسـتمراً يبتعدون عن أوطانهـم ويتغربـون هربـاً مـن سياسـة الدولة الحاكمة ذات البعد الدموي والفعل الإرهابي.

وكان صاحـب هـذا المـزار السـيد موسى المبرقع واحداً مـن العلوييـن الذين آثـروا الرحيـل إلـى (قُـم) علـى البقاء في الكوفة هذا والعيون العباسـية تترصـده فبالأمـس دسـوا لأبيه محمـد بن علي الجـواد عليه السلام سـماً قاتلاً واليوم أخرجوا أخاه علياً الهادي عليه السلام قسراً من مدينة جده (المدينة المنورة) وجاؤوا به نحو سـامراء مركـز الخلافـة العباسـية الجديـد، ثم سـقوه السم أيضاً، ولا يدري ماذا سيخبئ له القدر غداً؟!.

لمحات من حياة السيد المبرقع

انحـدر السـيد موسـى المبرقـع مـن السـلالة الطاهـرة فهـو عليه السلام موسـى ابن الإمـام التاسـع محمـد الجواد ابـن علي الرضـا ابن موسـى الكاظم ابـن جعفر الصـادق ابـن محمـد الباقـر ابـن علـي السجاد ابن الحسين الشهيد ابن علي أمير المؤمنين ابن أبي طالب عليهم السلام.

أما أمه فهي سمانة المغربية، فهوَ عليه السلام شـقيق الإمام الهادي عليه السلام لأمه وأبيه، وقد قال عنهـا الإمام الجواد عليه السلام: (إن اسـمها سـمانة وأنها أمـة عارفة بحقـي وهي في

المدخل الرئيس لمرقد موسى المبرقع ومزار (چهل اختران)

مزار موسى المبرقع نفحة جوادية تفوح في فضاء قم المقدسة

المدخل المؤدي إلى المزارين

الجنة ولا يقربها شيطان مارد ولا ينالها كيد جبار عنيد وهي كانت بعين الله التي لا تنام ولا تخلف عن أمهات الصديقين الصالحات)[٩].

وقد روى الحميري عن أحمد ابن محمد بن عيسى عن أبيه: (إن أبا جعفر عليه السلام لما أراد الخروج من المدينة إلى العراق ومعاودتها، أجلس أبا الحسن عليه السلام في حجره بعد النص عليه وقال: ما الذي أهدي إليك من طرائف العراق، فقال عليه السلام: سيفاً كأنه شعلة نار، ثم التفت إلى ابنه موسى، فقال: ما تحب أنت؟ فقال: فرساً، فقال جعفر عليه السلام: أشبهني أبو الحسن وأشبه موسى أمه)[١٠].

ولد أبو أحمد موسى في المدينة المنورة عام (٢١٤هـ) أي بعد مرور عام على مولد أخيه الإمام الهادي عليه السلام الذي ولد في سنة (٢١٣هـ)، وقد استشهد والده الإمام الجواد عليه السلام سنة (٢٢٠هـ) فيكون عمر موسى يوم شهادة والده عليه السلام ست سنين فنشأ بصحبة أخيه الإمام الهادي، وقد استفاد من صحبته لأخيه عليه السلام الكثير من العلوم والمعارف، وليس ذلك بعزيز بعد أن كان بيته بيت إمامة، وفيه من العلوم والمعارف ما عجزت عنه البشرية، وفي هذا السياق من المناسب أن نذكر جانباً من الرواية التي ذكرها ابن شعبة الحراني لما فيها من الأهمية في هذا المجال.

قبة مزار (چهل اختران) ويبدو عليها آثار القدم وهي من القباب الكبيرة في مدينة قم

قال ابن شعبة الحراني: (قال موسى بن محمد بن الرضا، لقيت يحيى بن أكثم في دار العامة، فسألني عن مسائل فجئت إلى أخي علي بن محمد عليهما السلام فدار بيني وبينه من المواعظ ما حملني وبصرني طاعته، فقلت له: جعلت فداك إن ابن أكثم كتب يسألني عن مسائل لأفتيه فيها، فضحك عليه السلام ثم قال: فهل أفتيته؟ قلت: لا، لم أعرفها، قال عليه السلام: وما هي؟ قلت: يسألني عن قول الله (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) نبي الله كان محتاجاً إلى علم آصف؟!، وعن قوله: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا) سجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء؟!، وعن قوله: (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ)، من المخاطب بالآية، فإن كان المخاطب النبي صلى الله عليه وآله فقد شك، وإن كان المخاطب غيره فعلى من إذاً أنزل الكتاب، وعن قوله: (وَلَوْ أَنَّما فِي الْأَرْضِ من شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ) ما هذه الأبحر وأين هي، ... ثم ألحق موسى هذه الأسئلة عدداً آخر منها فأجاب عنها جميعها الإمام عليه السلام قائلاً: اكتب إليه، قلت: وما أكتب؟ قال عليه السلام: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم... وأنت فألهمك الله الرشد أتاني كتابك فامتحنتنا به من تعنتك لتجد إلى الطعن سبيلا إن قصرنا فيها، والله

قبة تعلو مرقد السيد موسى المبرقع وتبدو عليها آثار القدم أيضاً

يكافيك على نيتك وقد شرحنا مسائلك فأصغ إليها سمعك وذلل لها فهمك واشغل بها قلبك، فقد لزمتك الحجة والسلام.

سألت عن قول الله جل وعز: (قَالَ الَّذي عندَهُ علْمٌ مِّنَ الْكتَاب أَنَا آتيكَ به قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) فهو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان عليه السلام عن معرفة ما عرفه آصف لكنه صلوات الله عليه أحب أن يُعرِّف أمته من الجن والإنس أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمانَ عليه السلام أودعه عند آصف بأمر الله، ففهمه ذلك لئلا يختلف عليه في إمامته ودلالته كما فهم سليمان عليه السلام في حياة داود عليه السلام لتعرف نبوته وإمامته من بعده لتأكد الحجة على الخلق.

أما سجود يعقوب عليه السلام وولده فكان طاعة لله ومحبة ليوسف عليه السلام كما أن السجود من الملائكة لآدم عليه السلام لم يكن لآدم عليه السلام وإنما كان ذلك طاعة لله ومحبة منهم لآدم عليه السلام، فسجود يعقوب عليه السلام وولده ليوسف عليه السلام معهم كان شكراً لله باجتماع شملهم، ألم تره يقول في شكره ذلك الوقت (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ).

وأما قوله: (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ) فإن المخاطب به رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يكن في شك مما أنزل إليه ولكن قالت الجهلة: كيف لم يبعث الله نبياً من الملائكة؟ إذ لم يفرق بين نبيه وبيننا في الاستغناء عن المآكل والمشارب والمشي في الأسواق، فأوحى الله إلى نبيه، فاسأل الذين يقرؤون الكتاب بمحضر الجهلة، هل بعث الله رسولاً قبلك إلا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولك بهم أسوة وإنما قال: (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ) ولم يكن شك ولكن للنصفة كما قال: (تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) ولو قال: عليكم لم يجيبوا إلى المباهلة، وقد علم الله أن نبيه

يؤدي عنه رسالاته وما هو من الكاذبين، فكذلك عرف النبي أنه صادق فيما يقول ولكن أحب أن ينصف من نفسه.

أما قوله: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) فهو كذلك لو أن أشجار الدنيا أقلام والبحر يمده سبعة أبحر وانفجرت الأرض عيوناً لنفدت قبل أن تنفد كلمات الله وهي عين الكبريت وعين النمر وعين برهوت وعين طبرية وحمة ماسبذان وحمة أفريقية يدعى لسنان وعين بحرون ونحن كلمات الله التي لا تنفد ولا تدرك فضائلنا).

هجرة السيد المبرقع إلى (قُم)

أشرنا فيما تقدم إلى أن سياسة حكام بني أمية وبني العباس كان اعتمادها على أساليب البطش والتصفية الجسدية ضد العلويين وأتباعهم، وقد أدت هذه السياسة إلى نزوح عدد غير قليل منهم نحو أطراف الأرض وشعاب الجبال.

وقد وجد السيد موسى المبرقع في هذا الطريق حلاً مريحاً لمشاكل ملاحقة السلطة العباسية فانتقل من الكوفة إلى (قُم) وكان (أول من انتقل من السادة الحسينية إلى (قُم) الشريف أبو الحسن الحسين بن الحسين بن جعفر بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام)[١٢].

قدم السيد موسى المبرقع (قُم) سنة (٢٥٦هـ) (وهو أول من انتقل من الكوفة إلى (قُم) من السادات الرضوية)[١٣].

والمقصود منهم هو من انتمى إلى الإمام الرضا من ذرية الإمام الجواد وولده الإمام الهادي عليه السلام.

ولم يسلط لنا التاريخ أضواءً على حياة السيد موسى المبرقع في الكوفة كيف كانت والظاهر أن البرقع الذي كان يتلفع به في (قُم) خوفاً من أعدائه كان يستخدمه في (الكوفة) أيضاً ابتعاداً عن عيون السلطة وملاحقات الجواسيس، كما أن التاريخ لم يمدنا بمعلومات حول تاريخ هجرة السيد المبرقع من المدينة إلى الكوفة.

وكان البرقع الذي يضعه على وجهه سبباً في إخراجه من (قُم) (إذ لم يعرفه القُميون، فلما أخرجوه ذهب إلى (كاشان) وفيها تلقاه أحمد بن عبد العزيز بن دلف العجلي فأكرمه وخلع عليه الخلع الكثيرة والرواحل وجعل له في كل سنة ألف مثقال ذهباً تعطى له مع جواد مسرج، فلما عرفه القُميون أرسلوا زعماءهم من العرب إلى كاشان لطلبه ورده إلى (قُم)، واعتذروا منه وأكرموه فحسنت أحواله في (قُم) حتى اشترى قرى ومزارع بأمواله الخاصة ثم قدمت عليه بعد ذلك أخواته، زينب وأم محمد ميمونة بنات الإمام الجواد عليه السلام ثم قدمت بعدهن بريهة بنت موسى وجميعهن توفين في (قُم) ودفن عند فاطمة المعصومة سلام الله عليها)[١٤].

أما ذرية موسى المبرقع فقد انحصرت في ولده أحمد الذي أولد محمداً المشهور بـ(الأعرج) ومنه امتدت الذرية بين إيران والهند وباكستان والعراق وقد أصبح ولده نقباء الأشراف في (قُم).

وفي سنة (٢٩٦هـ) في الثاني والعشرين من ربيع الثاني توفي موسى المبرقع ودفن في بيته بعد أن صلى عليه أمير (قُم) العباس بن عمرو الغنوي وكان هذا البيت قبل وروده لقُم ملكاً لمحمد بن الحسن

بـن أبي خالـد الملقب بـ(شـنبولة)، وهو أحد أصحاب الإمام الرضاعليه السلام ومن رواة الحديث وصاحب القول المشهور[١٥]:

بئر معـطلة وقصـــر مشرف
مثل لآل محـمد مستـــطرف
فالناطق القصر المشيد منهم
والصامت البئر الذي لا ينزف

مرقد موسى المبرقع بين الماضي والحاضر

عندما قدم موسى المبرقع إلى (قُم) مع عياله وأهله نزل محلة يقال لها: (موسويان) أي محلة الموسويين والظاهر أنها كانت تضـم تجمعاً للسـادة المنحدرين من ذرية الإمام موسـى بـن جعفـرعليه السلام ولا ندري كيف ومتى تحول اسـم هـذه المحلة من (موسـويان) إلى (جهل آختـران) أو (جهل دختران).

تعنـي كلمة (جهـل آختـران) أربعين كوكبـاً ويقال: إن قبر موسـى المبرقع أصبـح فيمـا بعد مدفنـاً لأبنائه وذراريـه خصوصـاً وبعـض السـادة من ذرية أهل البيتعليهم السلام وفـي وقـت مـن الأوقـات بلغ عـدد الذيـن دفنـوا فـي هـذه المقبـرة أربعيـن شـخصاً بيـن رجل وامرأة فأطلق الناس عليها اسم أربعين كوكباً أي أربعين شـخصاً زكياً مـن ذريـة أهل البيتعليهم السلام فشبهوا كل شخص مـن الأشـخاص المدفونين في هـذه البقعـة بكوكـب حتـى أطلقوا عليهـا (جهل اختران) أو أربعين كوكباً.

فـي حين أن هناك من يطلق على هـذا المكان (جهـل دختـران) أي الأربعيـن بنتاً حيـث يرى أن هذا الاسـم مأخـوذ من حادثـة دفن أربعيـن بنت في هـذه المنطقة بعـد أن قتلن، ولعل هنا من يقول أن أربعين سيدة من سيدات الأسرة العلوية دفنَّ في هذا المكان.

ومهمـا يكـن السـبب فالاسـم لهذه المحلة قديم وليـس وليد القرون الأخيرة كمـا صرح لنـا بذلك جملة من سـكان المحلـة ذاتهـا التـي لازالـت تحافظ على تراثها القديم.

تقع محلـة (جهل آختران) في منتصف شـارع (آذر) تقريبـاً، وتبعـد عـن مرقـد فاطمة المعصومةعليها السلام مسافة (٢كم).

تفتقر كل المصادر العربية التي أتيح لنـا الاطلاع عليها إلـى ذكر تاريخ مرقد السـيد موسـى المبرقع ومراحل الأعمار التـي مرّ بها، وكان علينا أن نحدد بعض الملامـح العامـة للمرقـد قبـل التحـدث عما سـجلناه في اسـتطلاعنا هـذا، حتى

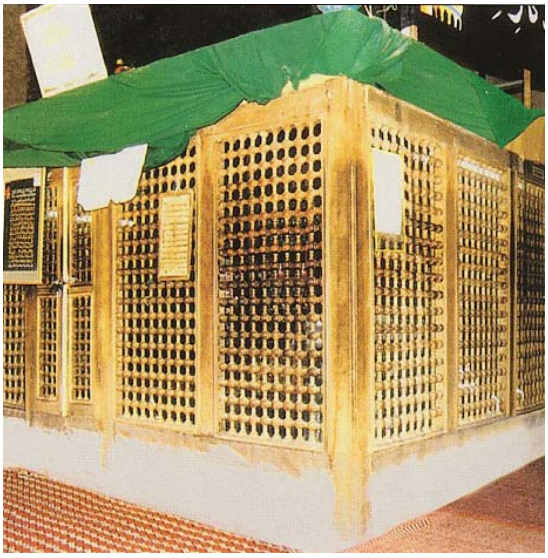

جانب من ضريح السيد موسى المبرقع

حصلنا على كتاب (تربت باكان قُم) باللغة الفارسية الذي يهتم بتراجم العلماء المدفونين في (قُم) المقدسة حيث قام بتأليفه الشيخ عبد الحسين جواهر كلام (الجواهري)، فما كان منا إلا الاستعانة ببعض الأخوة ممن لهم اطلاع ومعرفة باللغتين الفارسية والعربية وكان هذا الكتاب خير عون لنا في نيل ما نبتغيه حيث يذكر الشيخ الجواهري: (ومن هذه البقاع المطهرة، بقعة معروفة بـ(جهل اختران) وفيها كتيبة على المدخل تشير إلى أن هذا المكان هو مدفن جماعي لعدد من السادات المنحدرين من أئمة الهدى عليهم السلام، أما تاريخ الكتابة على هذه الكتيبة فيعود إلى سنة (٨٥١هـ)).

ثم يضيف الشيخ الجواهري (في عهد الشاه طهماسب الصفوي وبالتعيين سنة ٩٥٣هـ تم إنشاء سقف مرتفع للمرقد كما أنشأت جدران عالية تحيط به وقد سُجل هذا الأعمار على كتيبة من الجص خطت بخط الثلث تعلو المدخل الرئيسي للمرقد جاء فيها: (قد صدر الحكم المطاع ببناء هذه العمارة الشريفة عن أعلى حضرت سلطان سلاطين الزمان أبي المظفر شاه طهماسب بهادر خان خلد الله سلطانه وأفاض على العالمين بره وإحسانه في شهور سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة).

ويقول المؤلف: (أصل هذا المكان عبارة عن مربع متساوي الأضلاع يقدر طول كل ضلع من أضلاعه حوالي خمسة أذرع وقد سقفت هذه البقعة المباركة بسقف مرتفع يبلغ ارتفاعه عشرين متراً تقريباً ومع هذا الارتفاع فلم يستعن المعمار بالأعمدة الحاملة لمثل هذا السقف المرتفع مما يدل على فن ومهارة المعمار الذي يعد من أشهر المعماريين في العهد الصفوي وهو البناء والمعمار الأستاذ سلطان قُمي، الذي أضفى على هيكل البناء جمالية فنية وهندسية... وفي هذه البقعة يوجد ثمانية عشر قبراً ـ كما يستفاد من تاريخ (قُم) القديم ـ لأشخاص مدفونين في هذه البقاع المطهرة)[١٦].

هذا ويطلق الناس في (قُم) على مرقد السيد موسى المبرقع (در بهشت) أي (باب الجنة).

المرقد اليوم

كما قلنا يقع المرقد في محلة (جهل اختران)، ومن خلال زقاق فرعي من الشارع العام (شارع آذر) يمكن الوصول إليه بمسافة تقدر بـ(١٠٠م) تقريباً وعن طريق المدخل الكبير (بوابة حديدية) يمكن الدخول إلى الصحن وهو عبارة عن ساحة واسعة تبلغ مساحتها (٩٠٠م٢) مرصوفة بالمرمر الذي يعلو القبور التي تكتظ بها مساحة الصحن إذ كما قلنا يعد هذا المكان مقبرة عامة تدفن فيها الناس موتاها، يقابل المدخل الذي اجتزناه مدخلاً آخراً إلا أنه مغلق، على يمين الصحن.

يوجد مدخلان مفتوحان يؤديان إلى باحة مسقفة كبيرة تجمع مدخلين لحجرتين منفصلتين، الحجرة المواجهة للزائر مرقد السيد موسى المبرقع، والحجرة الأخرى هي مزار (جهل آختران) أو (جهل دختران)، أما الباحة الكبيرة المسقفة التي ذكرناها فهي مصلى يجتمع فيه الناس لأداء الصلوات والأعمال المتعلقة بالزيارة، تبلغ مساحتها حوالي (٢٥٠م٢) وهي مقسمة إلى جزئين

بواسطة أقواس يسدل منها ستار كي يفصل بين الرجال والنساء عند إقامة الصلاة ويرفع بعد انتهاء الصلاة.

أما حرم السيد موسى المبرقع فهو عبارة عن قاعة تبلغ مساحتها (١٠٠م٢) وترتفع ببناء عالٍ وقديم من الطابوق إلى ارتفاع (١٢م) تقريباً تعلوها قبة مرتفعة البناء أيضاً حيث يبلغ قطرها (٦م) وارتفاعها (٨م) تبدو من الخارج وقد استخدم الجص في صقلها مما جعلها تبدو بيضاء، يتوسط الحرم ضريح يجمع السيد موسى المبرقع وحفيده محمد بن أحمد بن موسى، والصندوق الذي يعلو هذين القبرين حديدي مستطيل الشكل بمساحة تقدر بـ(٢٤م٢) وارتفاع (٣م) تقريباً.

وفي الوقت الذي زرنا فيه المرقد وجدنا حركة العمل فيه قائمة على قدم وساق لغرض أعماره وترميمه وقد التقينا بالشيخ محمد حسين المراري المشرف على هذه الروضة المطهرة فبين لنا قائلاً: (يعود تاريخ بناء هذا المرقد الذي بقى على حاله لحد الآن إلى عام (٨٠٠ هـ) حيث لم تدخل أي ترميمات عدا ما تلاحظوه من تجديد في جدران الحرم الداخلية وهذه الترميمات أجريت على نفقة ذرية السيد موسى المعروفين بـ(السادات الرضوية) الذين كانوا على استعداد تام لإنجاز كبير وهو إعادة أعمار وتأهيل المزار المطهر بأكمله إلا أنهم اكتفوا بتنفيذ الأعمال المحدودة التي تروها ريثما تبين وزارة الأوقاف رأيها في الأمر إذ لابد من تهيئة مهندسين من قبلها للإشراف على التعمير والترميم.

صورتان من الداخل والخارج لضريح (چهل اختران)

المحرر مع سادن المرقد المطهر ومساعده

مزار السيد زيد من أحفاد الإمام زين العابدين (عليه السلام) ويقع قبره في جانب من جوانب الصحن

حالياً يقوم الفنانون في أصفهان بوضع اللمسات الأخيرة على الصندوق الجديد الذي سيوضع فوق الضريح المطهر، وقد كلف صنعه (١٠٠) مليون تومان، كما أن القبة سوف تزجج وتزخرف من الداخل بالمرايا التي تتخللها الآيات القرآنية على شكل أطواق مع أسماء الأئمة الاثني عشر عليهم السلام ومن الخارج سوف تكسى القبة بالكاشي القاشاني المعرق.

وعند سؤالنا الشيخ المراري عن عدم وجود منائر في هذا المزار، قال لنا: إن المرقد يخلو من المنائر منذ تأسيسه وإذا تم فعلاً التعمير الجديد فسوف تضاف إليه بالتأكيد).

وبصحبة أحد سدنة المرقد ارتقينا سطح المزار فبيّن لنا قائلاً: (هذه البيوت المجاورة التي تلاحظوها كلها وقف للسيد موسى المبرقع وفي النية إزالتها وتوسيع المزار كما أن في النية شراء بعض البيوت الأخرى، ثم ضمها للصحن وإضافة ملاحق أخرى اعتماداً على العمل بأسلوب المؤسسة الخيرية التي تضم إلى جانب الوقف، الخيرين وأبناء المنطقة).

بعد أن انتهينا من زيارة السيد المبرقع اتجهنا نحو مرقد الأربعين بنتاً (جهل دختران) الذي يقع على يمين الخارج من مرقد السيد موسى وبجنبه غرفة صغيرة أعدت لسدنة المزار المطهر، يتقدم المرقد رواق يمتد على واجهته ويتم الوصول إليه بعد اجتياز ثلاث درجات نزولاً، كما يتوسط الضريح المرقد وهو أكبر ضريح في (قُم) إذ تبلغ مساحته (٥٠م٢) يرتفع بمقدار (٣م) تقريباً

مزار السيد زيد من أحفاد الإمام زين العابدين (عليه السلام)
صورة من الأعلى.. ويظهر الصحن المكتظ بقبور المؤمنين المساوية
للأرض

عن الأرض ببناء مكسو بالمرمر ثم يعلوه صندوق من الألمونيوم.

كما أن القبة تعد من أكبر القباب الموجودة في (قُم)، حيث يبلغ قطرها (١٠م) تقريباً في حين يبلغ ارتفاعها (٣م) تقريباً والقبة مرصوفة من الداخل بالطابوق بطريقة هندسية جميلة ومتقنة حتى شكل هذا الرصف لوحة مزخرفة تنبئ عن مهارة المعمار ومن الخارج تبدو القبة بيضاء لأنها مكسوة بمادة الجص، تبلغ مساحة الحرم الكلية حوالي (٧٥م٢) تقريباً وقد قسمت إلى قسمين قسم خاص بالرجال وآخر بالنساء. أما الجدران فترتفع (٨م) أو أكثر.

تقع خلف المزار حديقة كبيرة وأرض متروكة في النية إلحاقها بالمزار عند البدء بحملة التوسيع والإعمار الكبرى.

أما الجهة اليسرى من المدخل العام للمزار فتحتوي على جامع كبير تقام فيه الفواتح ومراسم الصلاة والمآتم الحسينية يليه رواق كبير مغلق تعلوه قبة صغيرة بيضاء أيضاً وتقع في مدخله بوابة صغيرة يطلق عليه مرقد (إمام زاده زيد) وعندما سألنا عنه قالوا لنا: إنه من أحفاد الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام.

وقد ذكره الشيخ عبد الحسين الجواهري قائلاً: (وفي هذه البقاع المقدسة يوجد قبر السيد زيد، أحد أحفاد الإمام زين العابدين عليه السلام، والبقعة هذه كانت عبارة عن غرفة صغيرة آيلة للسقوط، إلا أنها اليوم أصبحت جزءاً من مزار السيد موسى المبرقع. يرتفع القبر عن الأرض بمقدار ذراع وقد تم إكساؤه بالكاشي المعرق وخط عليه بالخط الثلث:

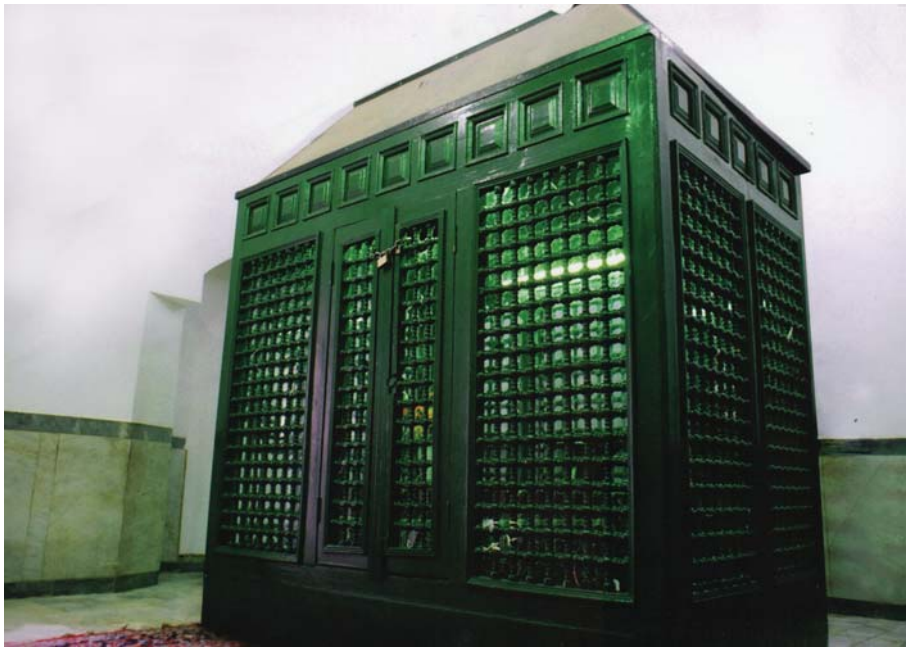

ضريح السيد زيد كما يبدو من الداخل

(بسم الله الرحمن الرحيم. كل شيء هالك إلا وجهه. له الحكم وإليه ترجعون. وقال النبي الأمي (صلوات الله عليه): من زار واحداً من ذريتي فكأنما زارني ومن زارني فقد زار الله عز وجل، هذا مضجع الإمام زيد بن الإمام زين العابدين علي بن الإمام الحسين بن علي عليهم السلام، تشرف بهذا البناء الصدر الكبير خواجه بهاء الدين هبة الله القُمي في شهور سنة سبع وأربعين وثمانمائة).

كما تعلو المرقد قبة صغيرة، وقد كتب على جانب من جوانب المرقد قصة مفادها أن هذه العبارات كتبت بمادة القمح حيث زرعت حبة قمح واحدة في هذا المكان فنمت وأنتجت سبعين حبة وهذه السبعون حبة أيضاً زرعت فكل واحدة منها أنبتت سبعين حبة وبها تمت الكتابة وقد أخذ هذا المعنى شاعر فارسي فقال:

به يك دانه كُندم زلطف اله
تمامست كنبد به إقبال شاه
به سمي براهيم بن أويس
رسيده به اتمام اين باركاه
خرد كفت تاريخ اورا بكو:
به هفتاد ونه نهصدش كن نكاه
٩٧٩هـ

يعود السيد زيد بنسبه إلى الإمام زين العابدين عليه السلام والظاهر من التحقيق احتمال كونه أحد شخصيتين فهو إما زيد بن حسن بن علي بن حمزة القُمي بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله الباهر بن الإمام زين العابدين عليه السلام أو هو زيد بن إسحاق بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر عليه السلام والعلم عند الله)[١٨].

في حين نلاحظ أن الاسم الظاهر على الضريح اليوم هو (زيد بن علي الأكبر بن محمد السليق بن عبيد الله بن محمد بن الحسن بن الحسين الأصغر ابن الإمام زين العابدين).

والمرقد اليوم عبارة عن حجرة صغيرة جديدة البناء تبلغ مساحتها (٢٠م٢) والصندوق يتوسط المرقد من الخشب مطلي باللون الأخضر بأبعاد (٣×٢) متر.

هاهم آل محمد صلى الله عليه وآله تفرقوا في أنحاء الأرض ورحم الله الشاعر حين قال:

مشرودون نفوا عن عقر دارهم
كأنهم قد جنوا ما ليس يغتفر ■

---

(١) الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ٣١٤/١٨.
(٢) الحموي، معجم البلدان، ٤٥١/٤.
(٣) الشيرازي، قُم المقدسة رائدة الحضارة، ص٧٣.
(٤) المصدر السابق، ص٧٢.
(٥) المصدر السابق، ص٧٣.
(٦) دائرة المعارف الإمامية، ٨٤/١٥.
(٧) الشيرازي، قُم المقدسة رائدة الحضارة، ص٧٤.
(٨) الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ٣١٤/١٨.
(٩) ابن شهراشوب، المناقب، ٤٢٦/٢.
(١٠) الحسيني القزويني، موسوعة الإمام الجواد، ٤٨/١.
(١١) تحف العقول، ص٤٨١.
(١٢) الميرزا النوري، خاتمة المستدرك، ٤٨٥/٤٢.
(١٣) المفيد، الاختصاص، ص٩١.
(١٤) المصدر السابق.
(١٥) الصدوق، معاني الأخبار، ص١١٢.
(١٦) تربت باكان قُم، ١٤١/١.
(١٧) كما حدثنا بذلك جملة من أهل قُم.
(١٨) تربت باكان قُم، ١٤٣/١.

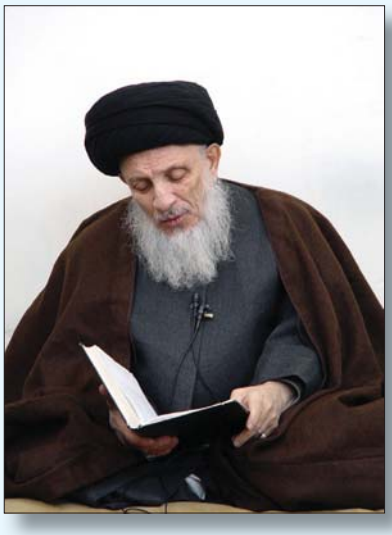

يعلن باب (في رحاب الفقه) عن استعداده للقراء الكرام في استقبال أسئلتهم الفقهية، والإجابة عنها في ضوء فتاوى سماحة المرجع الديني الكبير السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم (مدّ ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم

س: من هو كثير السفر (الضابطة الشرعية لمعرفة كثير السفر)؟ وهل يجب على كثير السفر التمام دائماً في جميع أسفاره المختلفة والتي لا يقيم فيها عشرة أيام عادة، سواء كان المكان الذي سافر إليه هو محل السفر المعتاد له مثل مكان العمل أو سافر إلى مكان آخر لنزهة أو لعمرة أو غيرها ولم يقم فيها ومثل ذلك من كان بين عمله أو مكان دراسته ومنزله مسافة شرعية وهو يقطعها ثلاثة أيام في الأسبوع وهو مستمر على هذه الحالة من عدة سنوات سابقة لكنه هذه المرة سافر إلى مكة المكرمة ولمدة ٧ أيام فهل يتم في مكة؟

ج: كثرة السفر بمعنى أن يكون السفر هو مقتضى وضعه الطبيعي كالسائق على الطرق الخارجية بما يصل إلى المسافة أو أكثر. وإذا صار كثير السفر وجب عليه إتمام الصلاة والصيام في أسفاره تلك،

وأما السفر الطارئ الذي هو من نوع آخر كالزيارة أو العلاج فيجب فيه القصر والإفطار.

س: كان والدي رجلاً كبيراً ولا يعرف القراءة ولا الكتابة ولم يتعلم شيء من أمور الدين إلا القليل بسبب الفقر وعدم انتشار التعليم في زمنهم وقبل وفاته انتبهنا إلى أنه لا يحسن قراءة سورة الفاتحة أثناء الصلاة حيث يقول: (اهدنا على الصراط المستقيم) حيث يضيف كلمة (على) للآية وقد حاولنا أن نعلمه الصحيح إلاّ انه صعب عليه أن يغير ما تعود عليه طوال فترة طويلة وقد توفي وهو على هذا المنوال، فما حكم صلاته؟

ج: إذا لم يكن مقصراً في ترك التعلم بحيث يوجب فساد الصلوات كانت صلواته محكومة بالصحة فلا يجب قضاؤها بعد وفاته.

س: هل لبس الجوراب هو جزء من حجاب المرأة؟

ج: نعم الأحوط وجوباً للمرأة ان تستر قدميها عن الرجال الأجانب سواء كان ذلك بالجوراب أم بغيره.

س: هل يجب على الصائم الإفطار في نهار شهر رمضان المبارك في حالة وقوع التعب فقط. وهل يجب الإفطار في حال وقع التعب مع وجود الضرر. على أن تكون في الحالتين (الصائم في منزله من دون أن يزداد عليه المشقة).

ج: الضعف المؤقت ليس مرضاً ولا مسوّغاً للإفطار وإن كان شديداً، إلا أن يكون تحمّله حرجياً فيجوز به الإفطار. نعم إذا لزم استحكام الضعف المعتدّ به بحيث لا يزول بمضي أيام الصوم أو يحتاج إلى علاج طويل فهو نوع من المرض المسوّغ للإفطار فلا يصح الصوم في هذه الصورة.

س: في استراليا كما في كثير من البلدان يصافح كل من الرجل المرأة وبالعكس وبدون تلذذ وإنما هو أمر تعودته هذه الشعوب. وقد قدر لكثير من المسلمين ان يعيشوا بينهم ولهم علاقات بهم بسبب العمل والجوار والتعامل... ولو امتنع شخص من المسلمين أو المسلمات عن ذلك بان يسحب كفه إذا أراد شخص منهم أن يصافح مسلمة أو أرادت امرأة منهم أن تصافح رجلاً مسلماً. فان الامتناع هذا مع انه يشكل إحراجا للإنسان المسلم فانه يثير استغرابهم وغالباً ما يعد هذا العمل من الإنسان

المسلم إهانة لهم واحتقاراً وقد يترك آثاراً سلبية في نظرتهم للمسلمين لأنهم يرون أنفسهم لم يعملوا خطأ وإنما يقدمون أيديهم للسلام والاحترام والمودة وإذا بعملهم هذا يقابل بالرد والممانعة... فهل تجوز والحالة هذه المصافحة واكرر كانت خالية من التلذذ وبعيدة عن الشهوة؟

ج: لا تجوز المصافحة من أجل ذلك وما ذكر في السؤال لا يبرر الحرام.

بل إن في الجري على العرف السائد بين الكفار تضييعاً لمعالم الدين. فاللازم الحفاظ على الميزان الشرعي بلباقة ووداعة. وإفهامهم الحقيقة، وأن الامتناع من المصافحة ليس لاحتقار المرأة، بل التزاماً بالواجب الديني الذي يراد به حفظ عفة المرأة وكرامتها.

س: هل يجوز الجلوس على مائدة يأكل فيها لحماً حراماً. وماً هو الحكم فيما إذا كان شاكاً في حرمة الجلوس فلذا جلسَ. وإذا كان محرماً فما هي مسوغات الجلوس.

ج: يجوز الجلوس بحد نفسه إلا إذا استلزم محرماً كالتشجيع على الحرام نعم إذا كان ترك الجلوس نوعاً من النهي عن المنكر بشرائطه المعتبرة وجب ذلك.

س: هل يجوز الأكل والصلاة في بيت من لا يخمس؟ وهل يجوز قبول هديته؟ وهل يجوز قبول دعوته إذا دعانا إلى وليمة؟ وهل فيها خمس؟

ج: يجوز جميع ذلك للمؤمنين والوزر على مانع الخمس.

س: كم عدد الأوطان التي يمكن للمكلف أن يتخذها غير الوطن الأصلي؟

ج: كل مكان اتخذه الإنسان مقراً له على الدوام فهو وطن له وان لم يكن وطنه الأصلي كما أن كل مكان جعله الإنسان محل معيشة له إلى مدة معتد بها وان لم يكن على الدوام فهو في حكم الوطن.

س: هل حلق اللحية حرام؟ وإذا كان كذلك ما الدليل؟

ج: يحرم ذلك بحسب الأدلة الشرعية ولا مجال لتفصيل الاستدلال على ذلك في هذا الجواب، كما لا نعرف الحكمة في جميع الأحكام وإنما علينا أن نطيع الله تعالى في أوامره ونواهيه فإن وردت الحكمة في الحكم الشرعي أخذناها وذكرناها، وإن لم تذكر الحكمة أطعنا الله تعالى من دون اعتراض لأنه تعالى: (لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) (الأنبياء:٢٣) وفقكم

الله لمرضاته وجعلنا وإياكم من المطيعين المخبتين.

س: ورد في سورة الأنعام وفي كثير من السور القرآنية أن الله يملك مفاتيح الغيب وحده ولا يعلمها أحد سواه وهذا أمر مسلم به ولكن أحياناً تصدق أخبار المشعوذين والمنجمين فكيف يحدث ذلك؟ وكيف لهم أن يعلمون جزءاً من الغيب حتى ولو كان مليئاً بالأكاذيب؟ وما هو تفسير أن لا أحد يعلم مفاتيح الغيب سوى الله.

ج: علم الغيب يختص بالله سبحانه وهو قد يعلّم الغيب لمن يشاء كما قال تعالى: (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) البقرة: ٢٥٥. وقد ينصب قرائن وعلائم على وقوع حادثة من الحوادث في الأزمنة المتأخرة وأخبار المنجم بحادثة مستقبلية استناداً إلى العلائم ليس من علم الغيب بل هو من قبيل الاستفادة من تلك القرائن والعلائم التي يَسّرها الله لعباده، أو ربما تكون المطابقة صدفة واتفاقاً وليست على أساس علمي. على أن أكثر أخبار المنجمين خاطئة أو كاذبة لا أساس لها من الصحة.

س: هل استحباب الغفيلة بين المغرب والعشاء مطلقاً أم إلى حين ذهاب الحمرة المغربية فقط؟

ج: يستحب الإتيان بها مطلقاً بين المغرب والعشاء حتى بعد ذهاب الحمرة المشرقية.

س: ما هو الوجوب في عدد غسل الرأس والرقبة وبقية الجسم في الغسل الواجب الترتيبي؟

ج: يكفي في الغسل إيصال أقل ما يصدق عليه الماء للعضو المغسول بحيث يستوعبه ولو بمعونة اليد وبمثل الدهن ولا يجب تكثير الماء بحيث يجري على العضو المغسول لكثرته نعم لا يكتفى بإيصال الرطوبة إذا لم يصدق عليها الماء ويجري ذلك في الغسل بأقسامه عدا غسل الميت.

س: كيف يكون إحرام من حج حجة الإسلام وأراد أن يحج مرة ثانية فتردد بين إعادة حجة الإسلام تكملة لما قد يكون حل بها من نقص أو حجة مندوبة فأيهما أفضل شرعاً؟

ج: يجوز له أن يحرم بقصد المشروع في حقه من الحج، ولكن إذا شك في حجه السابق بعد الفراغ منه بنى على الصحة وكفاه قصد الحج المستحب.

س: هل يجب في سجود التلاوة وضع الجبهة على ما يصح السجود عليه؟

ج: الأحوط وجوباً فيه وضع الجبهة على ما يصح السجود عليه ■

قراءة النص

د. زهير غازي زاهد ●
كلية الآداب/ جامعة الكوفة

تمهيد

ينابيع

القراءة لغة: للقراءة في اللغة معان عدة. فهي تعني الجمع والضم وتأتي بمعنى الوقت. وتأتي بمعنى التتبع لجزيئات شيء، فقرأت الكتاب قراءة أي تتبعت كلماته نظراً ونطقاً بها أو تتبعت كلماته نظراً دون نطق[١].

القراءة اصطلاحاً

هي من المصطلحات الحديثة في النقد خاصة وتعني فهم النص وتفسيره وشرحه أو إعادة تشكيله على وفق رؤية القارئ ومنهجه، وهي في الدراسات القرآنية طريقة أداء الموضع في الآية صوتاً أو بنية أو تركيباً على وفق رواية القارئ عن شيوخه وعلى رأي عالم الاجتماع جان كلود باسرون إن القراءة أحد أكثر الأفعال الأدبية تعدداً في الشكل[٢].

النص لغةً

هو الرفع ومنصة العروس مكانها البارز لترى بين النساء والنص أيضاً السير الشديد والحث وهو أقصى الشيء وغايته... والنص رفعك في شيء وإسناده إلى الأصل الذي صدر عنه. تقول: نصَّ الحديث ينصه أي رفعه وأسنده إلى من صدر عنه[٣].

أمـا النـص اصطلاحاً فقد جاء عن طريق المجاز، فبـدلاً مـن دلالتـه علـى رفع المتـن دلّ على المتن نفسـه. ويعرّفه المعجم: إنه صيغـة الـكلام الأصليـة التي وردت مـن المؤلف، وهـي مولّـدة اسـتعملت قديمـاً بعد عصـر الرواية ومنه قولهـم: لا اجتهاد مع النـص أو في مـورد النص وهـو عنـد الأصوليين: الكتـاب والسـنة أي مـا دلّ ظاهر لفظهما عليه من الأحكام.

وللنـص تعاريـف عـدة لـدى المحدثيـن كل بحسـب منهجـه ونظرتـه المعرفيـة وقـد أمكـن تركيـب التعريـف الآتي منها، فالنص (مدونة حدث كلامي ذي وظائف متعددة)[٤].

العناية بالنص وقراءته

كان النص الأدبي موضع عناية منذ عرف لدى اليونان والعرب وغيرهم من الأمم لكنّ هـذه العناية كانت تختلف باختلاف المراحل التاريخية والحضارية. فقـد خضع النص الأدبي للشـفاهية في تلقيه قبل شـيوع الكتابة والتدوين؛ لذا كان النظـر فيه وتحليلـه خاضعاً للذوق والأحكام السريعة والتغيير أيضاً، وبعد العصر الإسـلامي دخلت العناية بالنص وقراءتـه مرحلـة جديدة، فقـد توجهت العنايـة إلـى كل مـن النـص القرآنـي والنص الأدبي والشعري والنثري.

فكانت قراءة النص القرآني موضع عناية فائقة لدى العلماء حتى نشأ علم في الدراسـات القرآنية هو علم القراءات، وكان له ضوابطه وأحكامه وقواعده، فجعلت القـراءات القرآنية على مراتب بحسب تلك الضوابط والقواعد.

وظهـر أيضاً تعدد قـراءة القرآن في اختلاف تفسـيره وتأويلـه خصوصاً في قراءته اللغوية والصوفية والمذهبية. وقد كان للقراءات القرآنيـة اثر في ظهور مباحـث طريفـة ومهمـة فـي دراسـات الأصوات العربية.

وأمـا النـص الشـعري فقـد كانت قراءتـه وروايتـه فـي وقـت مبكـر إذ قـوي الاهتمام بـه وبتدوينه فـي القرن

الثاني من القرن الأول للهجرة. انصب الاهتمام أولاً على الشعر الجاهلي ثم شعر العصور التي أعقبته. وقد تعددت قراءته أيضاً فكانت القراءة اللغوية تعنى بالشكل وأداءه الصوتي ولقراءة النقدية والبلاغية تعنى بمعانيه وصوره وتحليله وقد أشار الجاحظ وابن قتيبة إلى أشياء من ذلك وكان من آثار ذلك ظهور مجموعة كبيرة من المصنفات تعكس تعدد القراءات الشارحة ظهرت في كتب إعراب القران ومعانيه وتفسيره وإن لم تخل في مواضع كثيرة من التأويل. كما ظهرت شروح دواوين الشعراء وشروح شعر القبائل والحماسات المختلفة والاختيارات الشعرية التي استمرت حتى العصر الحديث ويسميها بعض المتنطّعين بـ(الانتولوجي أو الانطولوجي) فكان اختيار أدونيس من الشعر العربي وكذا الجمهرة للجواهري وغيرهما فاختيارهم وتنسيقهم المواد المنتقاة يظهر فيه إبداع فكري كل ذلك يمثل قراءة مؤليفها فقراءة الشعر تعبر عن اتجاه القارئ ورؤيته، وقديماً أشار الجاحظ معبراً عن تعدد قراءة الشعر في قوله: (ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل ورأيت عامتهم، فقد طالت مشاهدتي لهم، لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام فيه ماء ورونق وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعاني ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتّاب أعم وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر)[٥].

والى جانب القراءة الشارحة المذكورة كانت قراءة تأويلية فيها إنتاج لأفكار وصور ورموز تستوحى من النص فيظهر فيها إبداع القارئ وآفاقه المعرفية وهو ما تمثل بقراءة المتصوفة وأصحاب المذاهب للنص القرآني وكذا نصوص الشعر كما هو في تفسير (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي و(الفتوحات المكية) لابن عربي وتهويمات الصوفيين في قراءة أشعارهم وتفسيرها والتحليق في آفاق رموزها.

لقد اتسعت العناية بقراءة النص في العصر الحديث مع اتساع العلوم الإنسانية وتطور البحوث اللسانية في الغرب خاصة، فبعد المرحلة الرومانسية التي كان الاهتمام فيها يركز على مؤلف النص ظهر المنهج البنيوي رداً على ذلك فتجاهل المؤلف واكتفى بالنص ومن النصيين من أعلن موت المؤلف واكتفى بقراءة النص وتحليله باعتبار نصاً مكتفياً. كانت بدايتهم حالة جديدة من الوعي مرتبطة بالاستيعاب لعهد الطباعة وضمور التقليد البلاغي القديم وأهم هؤلاء النصيين رولان بارت وجاك لاكان وغريماس وتودوروف وفوكو..[٦]، ثم ظهرت

نظريات في التلقي والقراءة التي وجهت العناية إلى القارئ الناقد وجعلته محوراً في القراءة فكان جاك دويدا فيلسوف التفكيكية كما سيأتي.

النص وتعدد القراءة

لا يختلف الدارسون في أن تناول الأدب يكون في النظر إلى لغته باعتبار أن الأدب استعمال خاص للغة لكنهم يختلفون في قراءة هذا الاستعمال اللغوي. واللغة نظام من الرموز يضم أنظمة وظيفتها تنظيم التعبير باللغة، ولكي يكون التعبير عن طريق هذه الأنظمة واضحاً وهو الغاية من اللغة يكون لكل نظام ضوابط يلتزم بها الناطق بتلك اللغة فإذا استطاع الخروج على بعضها فهو لا يستطيع الخروج عليها جميعاً وإلا خرج على اللغة نفسها وخلق لغة خاصة، وهو ما لا يقبله أهل اللغة ويرفضون الاستماع إليه بعدم الانتباه إلى ما يكتبه.

فاللغة يتلقاها الأديب وغيره من بيئته لكن الأدب استعمال خاص للغة كما ذكرت، فلابد من أن يكون للأديب فسحة من الحرية في استعمال هذه اللغة ليكون لاستعماله خصائص تميزه، ومجال حرية الأديب في استعمال اللغة هو ما عدّ خصائص أسلوبية. فلكل أديب مجال أسلوبي يستعمله على وفق قدرته وتمكنه من اللغة، وإبداع الأديب يأتي من قدرته على استعمال اللغة واستغلال طاقاتها وإمكانياتها بما يأتي به من صور للاستعمال الجديد. وتعدد قراءة النص يأتي من هذه الزاوية في استعمال الأديب اللغة استعمالاً خاصاً.

لقد شغلت قضية تعدد الوجوه في القراءة وتعدد المعنى تاريخ الفكر الإسلامي كما شغلت النقد الحديث وأثارت الجدل والحوار في مجالات عدة حتى تكون الاعتقاد بان النص الخالد هو الذي يخفي طاقات ووجوهاً لقراءات متعددة في عصور متعاقبة أو في العصر الواحد. هذا إذا اعتبرنا القراءة فناً يخترق الحواجز القائمة بين القارئ والنص، فالقراءة (تجعل الفهم غرضاً أو واحداً من أغراضها ليس فهم النص كما فهمه مؤلفه وإنما أحسن مما فهمه مؤلفه)[٧].

أستطيع أن أرجع أهم أسباب تعدد القراءة إلى ما يأتي:

١- الغموض: وهو من خصائص النص الأدبي يمتاز بها عن غيره من النصوص[٨]. وكان للنقاد القدماء موقفان من الغموض في الشعر خاصة:

أحدهما وقف منه موقف المزدري له سواء أكان في مجال الألفاظ الغريبة أم المشترك اللفظي أم الغموض الفني الذي يكون في صوره وإدراك معانيه. من ذلك موقف الآمدي من الغموض في شعر أبي تمام[٩].

أما الموقف الثاني فقد عدّه من صفات الشعر الجيد فالشعر عنده أن لا يعطي نفسه من القراءة الأولى. وتجد نشوة في جهدك لفهمه وتأمل صوره ومعانيه[١٠].

وأما الشعر الحديث فالغموض سمة من سماته، وقد أطال النقاد الحديث فيه وألفوا في أنماطه[١١]، وكانت لهم نظريات في قراءته وتأويله، وكانت لهم أيضاً مواقف من شدة الإبهام أو

الغمـوض العبثي كمـا كان في قراءة شـعر (رامبو) وهو معدود من الرمزيين وقـد اختلف ناقدان في قراءته فريفاتير يـرى أن هذا الشـعر قابل للتفسـير أما تودوروف فيرى أن هذا الشعر لا يمكن تحديد معناه وكلاهما لا يرى أن يكون الغموض عبثاً في الشعر الحديث فينظم بلا رابط ويفسر بلا ضابط[١٢].

وقد فسر رتشاردز الوحدة في شعر اليوت الذي بدأ غامضاً ملتبساً لدى قرائه لتطبيقهـم مقاييس الوحـدة الموضوعية في النقد الرومانسـي فأوجد هذا الناقد معنـى جديـداً لوحـدة القصيـدة، فهي عنده ليسـت وحـدة فكرية كما كان المألوف في تفسير الوحدة العضوية في القصيدة لكنها وحدة شعورية، فالشعر عند اليـوت (يأتي غالباً في لغة مزدحمة بالـدلالات الانثربولوجيـة والإشـارات الادبيـة ولا يأتـي بسـيطاً أبـداً بـل هو دائمـاً ملتبـس)[١٣]، وبـدلاً من تسـميتها بالوحـدة العضوية جعلها وحـدة تأليفية أشبه بتأليف الموسيقى سماها(موسيقى الأفكار)[١٤]، واقترح الدكتور شكري عياد الإفادة من ذلك في دراسـة شـعرنا القديم[١٥].

إن الغمـوض يـؤدي إلى تعـدد قراءة النص، فالشاعر يسـتعمل اللغة بأسلوبه والقـارئ يتأول ما يقرأه ليصل إلى معنى المـراد أو المفهوم الذي هو غاية طرفي الاسـتعمال: الشـاعر والمتلقـي شـرط أن لا يتجـاوز الشـاعر العلاقات اللغوية والقرائن اللفظية أو المعنوية وضوابطها في تركيبـه بحيث يـؤدي تركيبه إلى لبـس لا يفهمـه القارئ ولـو كان ناقداً ذكيـاً وهـذا مـا يختلـف مـع القـراءة التفكيكية.

٢ـ اختـلاف المناهج: يؤدي اختلاف المناهـج بالضـرورة إلى تعـدد القراءة وتعدد المعنى للنص الواحد. وهي قضية عرفتها قـراءة النص منـذ القديم، وقد مـرت بنـا أمثلة في قـول الجاحظ وفي النصوص الصوفية والشعرية وفي النص القرآنـي وتعدد قراءتـه حتى (قال بعض علماء التفسـير: لا يفقه المرء حتى يرى القران وجوهاً وذهـب بعض الفرق إلى أن الآيات لها ظاهر وباطن)[١٦].

وأقرب نص شعري قديم لدينا كان للنقـاد فيـه قـراءات متعـددة وأحكام مختلفة[١٧] الأبيات:

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسّح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطي الأباطح

قرأهـا ابـن قتيبـة على وفـق منهجه في قضايا اللفظ والمعنى وقسـم الشعر علـى الثنائية إلى أربعـة أضرب عدّ هذه الأبيات من الضرب الثاني الذي (حسـن لفظه وحلا فإذا أنت فتشـته لم تجد هنا فائدة في المعنى)[١٨].

أما ابن جني وعبد القاهر الجرجاني فقـد قرأهـا قـراءة إعجـاب فـي لغتها وصورهـا الشـعرية وإصابـة غرضهـا وحسـن نظمها حتـى وصـل المعنى إلى القلب مـع وصول اللفظ إلى السـمع[١٩] فقـد وصـلا بيـن السـمع(أي: الزمـان) والشعور بالمسموع وتجاوزا النظر (أي: المكان) ؛ لأن الشعر العربي تغلب عليه الشـفاهية كما هو معروف، وكذلك

كانت قراءة ابن الأثير للصور الفنية وحيويتها في الأبيات وقد قرأها جملة من الأدباء الأساتذة المعاصرين فوجدت قراءاتهم تختلف في تأويلها لكنها جميعاً تتفق على كونها لوحة فنية فهي على سهولة عباراتها تلمح فيها قدرة شاعرية تستطيع تشكيل الصور الفنية بمادة اللغة.

والمناهج الحديثة في النقد قرأت الشعر القديم والحديث قراءات متعددة فالمنهج النفسي لا تطابق قراءاته قراءة المنهج البنيوي للنص وكذا أصحاب الأسلوبيات ثم جاء التفكيكيون فقالوا في الأعمال الأدبية الجيدة: إنها (تلك التي تخلق أعمالاً أخرى، لأن كل عمل جديد هو في الحقيقة قراءة خاطئة لعمل سابق)[٢٠] فالمنهج البنيوي كان يقدس النص فانطلق منه أما التفكيكي فقد انحاز إلى القارئ فصدر عنه.

لقد أعطت التفكيكية سلطة مطلقة للقارئ بافتراض موت المؤلف فهي تذهب في تأويل النص بلا حدود فكأنها تعيد الاعتبار للقارئ الذي كان مستبعداً في البنيوية من دائرة التأويل فلا اعتبار في التفكيكية لأي سياق عام أو خاص خارج النص أو داخله إذ ليس المقصود الوصول إلى حقيقة أو يقين فهذا يخالف واحداً من مميزات الاتجاه التفكيكي وهو الشغف باللايقين. لا تبحث التفكيكية عن تجانس صوتي أو دلالي أو نحوي خاص بالنص وإنما عن تمفصلاته وتشذراته تبحث عن اجتماعات الأضداد المتعذر تبسطها فيه وعن تناقضاته ومآزقه المنطقية وهذا عند التفكيكيين من أخلاقيات القراءة[٢١].

يبدو لي أن قراءة التفكيك وما يتصل بها من فلسفة كان فيها اجتهادات بعضها تطرف في التطبيق أو في القضايا النظرية فإذا أخذنا بالمقولة: إن النص يعني أي شيء يرغب فيه القارئ أن يعينه[٢٢]، وإن القراءة التفكيكية تذهب في تأويل النص بلا حدود تكون بهذا التأويل المفرط الذي ميزه ايكو نفسه عن التأويل نكون قد فقدنا رؤيتنا في التمييز بين النصوص نفسها وإنما يستطيع القارئ أن يؤلف ما يريد كما يريد على رؤيته مؤولاً ما يراه في النص وكل شيء قابل للإفراط في التأويل.

اختلاف القراءة اختلاف القارئ

نحن نعلم أن القراءة لا تختلف باختلاف النص فقط إنما هي تختلف باختلاف القارئ أيضاً فالقارئ المستهلك للنص يعد قارئاً تقليدياً ليس له هدف في قراءته سوى الاحتفاظ بمتعة سطحية، أما القارئ الناقد فيكون له موقف آخر فقد يكون هدفه تفسير النص وشرحه وبيان ما فيه من إشكاليات. أما إذا كان هدف القارئ إعادة كتابة النص على تعبير البنيويين واكتشاف عوالم كامنة فيه وتفجير طاقاته الرمزية والدلالية وتصوير أثره في القارئ فهذه القراءة سماها بعض النقاد القراءة الشعرية أو الخالقة[٢٣] فهي تحتاج إلى قارئ واع ذي معرفة واسعة يمتلك آليات القراءة المناسبة للنص المقروء فالنص غير التقليدي لا يقرأ بآليات تقليدية شرط أن يكون النص مختزناً بالمعاني والدلالات مع تجربة فنية ذات أبعاد إنسانية وان كانت ذاتية. فالقارئ هنا تنفتح له آفاق في عالم النص في كل قراءة. فقراءته الثانية تكتشف في النص آفاقاً لم تكتشفها الأولى وقد يجد في القراءة الثالثة عوالم وأسراراً لم يجدها في الأولى ولا الثانية. فالقراءة هنا لا تكون بمعناها المعجمي تتبع لكلمات النص نظراً ونطقاً أو نظراً فقط، إنما تكون باقتحام عالم النص والغوص في تجربة المبدع من خلال محاولة افتضاضه واكتشاف آفاقه وأغواره؛ لهذا وصف خلود العمل الأدبي (لا لأنه يعطي معنى واحداً لأناس مختلفين بل لأنه يوحي بمعان مختلفة لرجلٍ واحد فهو يتكلم لغة رمزية واحدة لكل العصور)[٢٤].

هذه رؤيتي وفهمي لقراءة النص أن لا يحجب المؤلف ويبعد كما في البنيوية ولا تطلق سلطة القارئ كما في التفكيكية وإنما غاية القراءة الوصول إلى الفهم والقصد حتى إذا كان غير قصد المؤلف أو أوسع من قصده ولكن لا يناقضه وإلا أضعنا النص واضعنا سياقه معاً.

أما الغموض والإبهام المتعمد في الشعر الحديث فهو لدى الغربيين انعكاس لمراحل تطور مروا بها في مختلف مذاهبهم الأدبية والنقدية والفلسفية، وإن قراءتنا للنظريات الغربية وعدم فهمها في سياقها التاريخي تبدو هي العلة في كثير من الأحيان. فالمراحل التي مر بها الغرب أنتجت قيماً وآليات للنص وقراءته. فالثورة الصناعية وما صحبها وأعقبها من التطور العلمي والفكري وظهور الحداثة وما بعد الحداثة وما كان معهما من نظريات ومناهج كل ذلك لا نراعيه حين نقرأ نظرية ثم نحاول أن نطبقها فكأننا نحاول أن نقفز على الثورة الصناعية وحاجاتها لنعيش ما عرف بالتقليعات الأدبية نعيشها نظرياً فنقع في التقليد، لذلك نحس بالغرابة من تطبيق النظريات، والغرابة التي نحس بها تختلف عن الغرابة التي يحس بها الغربي من تطبيق نظرياته والصراع لتطبيقها، فتلك الغرابة معها آليات للقراءة مناسبة نبعت من تجاربهم الأدبية والعلمية. أما نحن فنأخذ النظرية جاهزة ونقرأها بطريقتنا لنواجه تناقضاً في تطبيقها وعندما نصر على تطبيقها نشكو من القارئ؛ لذلك وجدنا شاعراً مثل أدونيس

يعلن في حوار معه قائلاً: ليس لي جمهور ولا أريد جمهوراً. وكذلك محمد عفيف مطر يجيب عن الفجوة بين شعر الحداثة والقارئ فيقول: من القارئ؟ أهو من يعرف القراءة والكتابة أم طالب الجامعة أم المثقف؟ أنا لا أعرف القارئ إنما أعرف ما أقول أنا[٢٥].

وقد أعلن أحد نقاد ما بعد الحداثة الكاتب الأمريكي جون بارت قائلاً: إننا مع نصوص أدب الحداثة بحاجة إلى مرشد بسبب هذه الصعوبة الخفية فيها.

لقد طرح السؤال الكبير منذ نصف قرن ما الأدب؟ ولمن نكتبه؟ فتشققت الإجابة وتشظت الآراء.

وآخر ما أخرج إليه هو أن النص ينبغي أن لا يتعرض لعبث المؤلف بتعمده تعمية قراءته ولا لعبث القارئ ليغرق في شطحاته ولعبه ولا يخلو من التقييم الفني أو العلمي لا التقييم التعليمي كما يذهب إليه بعض الناقدين فغاية النقد إظهار القيمة الجمالية للعمل الأدبي كما يقول إليوت[٢٦] ■

---

(١) انظر الصحاح (قرأ)، لسان العرب (قرأ)، المعجم الوسيط (قرأ).

(٢) انظر معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب مجدي وهبة وكامل المهندس (القراءة).

(٣) قضايا أدبية عامة- ايمانول فريس، برنارموراليس- ترجمة لطيف زيتوني ١٤٦.

(٤) أنظر تفصيل ذلك في: تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح ١١٩-١٢٠، وأنظر أيضاً علم اللغة والدراسات الأدبية، برند شبلنر، ترجمة محمود جاد الرب ١٨٧.

(٥) البيان والتبيين: ٢٤/٤.

(٦) الشفاهية والكتابية- والترج أونج، ترجمة حسن البنا، ٢٨٨.

(٧) إشكاليات القراءة وآليات التلقي، نصر حامد أبو زيد٢٢.

(٨) أنظر: دائرة الإبداع، د. شكري عياد ١٤٩.

(٩) أنظر: الموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي ١٠-١١، وأنظر لغة الشعر عند المعري زهير زاهد ٧٨-٧٩.

(١٠) أنظر: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ٦٤، أسرار البلاغة للجرجاني ١٢٦.

(١١) أعني كتاب أمبسون (سبعة أنواع من الالتباس)، دائرة الإبداع ١٤٦.

(١٢) أنظر: دائرة الإبداع ١٤٨.

(١٣) انظر: المصدر السابق ١٤٥-١٤٦.

(١٤) أنظر: المصدر السابق ١٤٥-١٤٦.

(١٥) أنظر: المصدر السابق ١٤٥-١٤٦.

(١٦) دائرة الإبداع ١٤٩، وأنظر مذاهب التفسير الإسلامي جولد زيهر ٢٠١-٢١٠.

(١٧) أنظر: تفصيل ذلك في مواقف النقاد بحث(نماذج من التناول النقدي) عيسى عاكوب في مجلة كلية الدعوة، ليبيا، العدد العاشر ٣٤٠-٣٦٩.

(١٨) الشعر والشعراء ١٣.

(١٩) الخصائص ٢١٨/١-٢٢٠، أسرار البلاغة ٢١-٢٢.

(٢٠) دائرة الإبداع ١٥٩.

(٢١) أنظر: التفكيكية، بيرزيما، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية ١٩٦٦، ص١٠٥-١٠٨.

(٢٢) أنظر: التأويل والتأويل المفرط، امبرتو ايكو، ترجمة ناصر الحلواني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص١٩٢.

(٢٣) هي تسمية الناقد الفرنسي تودوروف، أنظر: البنيوية وعلم الإشارة توفس هوكز، ١٠٤-١٠٥، وأنظر المدخل اللغوي في نقد الشعر لمصطفى السعدني ٢٤.

(٢٤) البنيوية وعلم الإشارة ١٤٧.

(٢٥) أنظر: الإبهام في شعر الحداثة، د. عبد الرحمن محمد الكعود، عالم المعرفة(٢٧٩)، ص٢٩٤.

(٢٦) دائرة الإبداع ٦٢.

الأداء البياني

في وصية الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم.. وصفته للعقل

د. عبد الإله عبد الوهاب العرداوي •
كلية التربية/ جامعة بابل

تمهيد

منذ أن أوجد الله سبحانه وتعالى الخليقة، وأسكنها أرضه وسماءه، ومن بين خلقه الإنسان، الذي شرفه وميزه عن بقية الخلق بما أبدعه في صنعه من انساق روحية وعقلية ومظهرية. انتقى لها مبشرين وهداة، ألقى عليهم من نوره واصطفاهم لنفسه، وارتضاهم ليكونوا أسوة لخلقه، ومن بينهم خاتم الأنبياء، محمد الأمين صلى الله عليه وآله الذي أضاء الله به ودعا الناس للهدى أجمعين، وعندما ارتقت روحه إلى عليين، أودع علمه وأحكام دينه عند من اختارهم الله دعاة للأمم بعد النبي صلى الله عليه وآله فكانوا نوراً أضاء السبل فهدى إليها، وعشيت عنه عيون جهلاً وحنقاً.

ومن بين هؤلاء ـ الدعاة ـ الإمام موسى الكاظم عليه السلام ذلك البدر في السماء مهطع النظرات، ساكب العبرات في صلاة يتردد همسها في كل الأماكن، فهل تراه يسرح بالبعيد الماضي والآتي؟ انه مع ربه في خشوع

وتضرع، تلك أمنية الكاظم عليه السلام فقد كان يقول عليه السلام في دعائه: (اللهم انك تعلم إني كنت أسالك أن تفرغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت، فلك الحمد)[1].

أية أمنية هذه التي تدعو صاحبها إلى أن يعتقل ويوضع في غياهب السجن في البصرة تارة، وفي بغداد تارة أخرى، ثم يزج في السجن الانفرادي ليقضي شطراً من عمره الكريم حتى استشهاده بالسم...؟؟

نعم، إنها أمنية من يتبع قرآناً إلهياً ونهجاً محمدياً ووصياً علوياً وعترة طاهرة نقية، وظن رؤوس السلطة العباسية بقمعهم الإمام عليه السلام وزجه في زنزانات السجن، أنهم يوارون شخصه عن شيعته ومريديه، ويطفئوا نور إمامته ليتمكنوا من الانفراد بسلطانهم فيبقوا في الساحة من دون منافس، وظنوا أنهم بهذه القسوة والعنف سيتمكنون من السيطرة على قلوب شيعة أهل البيت عليهم السلام فيحجموا عن التقرب إلى الإمام الكاظم عليه السلام ويلوذوا بزوايا بيوتهم، فيصبحوا قهراً وقسراً تحت ظلال عروش الفسقة.

ولكن هيهات منا الذلة، فقد كان الإمام عليه السلام يعلم أن الإساءة سترد عليهم إذ أنهم بسجنهم له تهافتت النفوس إليه، وازدادت شوقاً، وارتأى الناس القيام بثورة دفاعاً عنه، وذلك بقيام الثورات ضد السلطة العباسية كثورة الحسين صاحب فخ، وانتفاضة يحيى بن عبد الله المحض.

تعد فترة إمامة موسى الكاظم طويلة نسبياً (١٤٨- ١٨٣هـ) إلا أنه

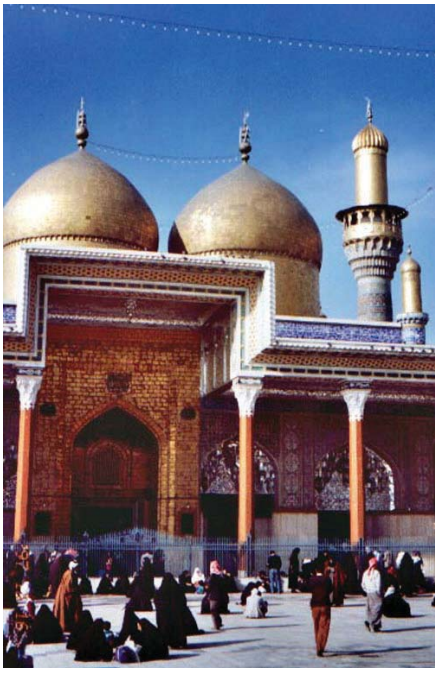

يلاحظ انه تحرك ثقافياً في ظل ظروف حرجة، أهمها مظاهراً العنف والإرهاب السياسي ضد المعصومين عليهم السلام ومن يسير على نهجهم والتي اتبعها العباسيون من اجل السيطرة على الحكم، وتثبيت سلطانهم.

وقد يبدو للوهلة الأولى، أن هذه الظروف سوف تقلل من إمكانية التحرك الثقافي، إلا أنه عليه السلام سجل حضوراً متميزاً في ميادين متنوعة كالفقه والعقائد والأخلاق ومختلف القضايا الثقافية.

ومن بين نماذج نتاجه عليه السلام هذه الوصية التي وجهها إلى هشام بن الحكم[2] وهو يخضعها لوحدة موضوعية تتصل بتركيبة الإنسان نفسياً وعقلياً[3] حيث صدرها أولاً بمجموعة من العظات العامة، ثم ختمها

بتصنيف علمي لسمات الشخصية أخضعها إلى (٧٥) سمة عقلية ونفسية واجتماعية وجسمية، بحيث تعد وثيقة مهمة جداً في ميدان علم نفس الشخصية[٤]. وسنحاول في هذه الإلمامة الموجزة أن نعرض الأداء البياني في الوصية والتوظيف الفني فيها من خلال العظات التي نثرها الأمام عليه السلام.

النص كما ورد في تحف العقول[٥]

إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب).

يا هشام بن الحكم إن الله عز وجل أكمل للناس الحجج بالعقول وأفضى إليهم بالبيان ودلهم على ربوبيته بالإدلاء، فقال: (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم). (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار) - إلى قوله - لآيات لقوم يعقلون). يا هشام قد جعل الله عز وجل ذلك دليلا على معرفته بأن لهم مدبرا، فقال: (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون). وقال: (حم ❖ والكتاب المبين ❖ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقال: (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي بعد الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون).

يا هشام ثم وعظ أهل العقل ورغبهم في الآخرة فقال: (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون). وقال: (وما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خيرا وأبقى أفلا تعقلون).

يا هشام ثم خوف الذين لا يعقلون عذابه فقال عز وجل: (ثم دمرنا الآخرين وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون).

يا هشام ثم بين أن العقل مع العلم فقال: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون).

يا هشام ثم ذم الذين لا يعقلون فقال: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وقال: (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون). وقال: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون). ثم ذم الكثرة فقال: (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله). وقال: (ولكن أكثرهم لا يعلمون). وأكثرهم لا يشعرون).

يا هشام ثم مدح القلة فقال: (وقليل من عبادي الشكور). وقال: (وقليل ما هم) وقال: (وما آمن معه إلا قليل).

يا هشام ثم ذكر أولي الألباب بأحسن الذكر وحلاهم بأحسن الحلية، فقال: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب):

يا هشام إن الله يقول: (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب).

يعني العقل. وقال: (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قال: الفهم والعقل.

يا هشام إن لقمان قال لابنه: (تواضع للحق تكن أعقل الناس. يا بني إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيه عالم كثير فلتكن سفينتك فيها تقوى الله وحشوها الإيمان وشراعها التوكل وقيمها العقل. ودليلها العلم وسكانها الصبر). يا هشام لكل شئ دليل. ودليل العاقل التفكر ودليل التفكر الصمت. ولكل شئ مطية ومطية العقل التواضع. وكفى بك جهلا أن تركب ما نهيت عنه. يا هشام لو كان في يدك جوزة وقال الناس لؤلؤة ما كان ينفعك وأنت تعلم أنها جوزة. ولو كان في يدك لؤلؤة وقال الناس: إنها جوزة ما ضرك وأنت تعلم أنها لؤلؤة. يا هشام ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة لله. وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلا. وأعقلهم أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة. يا هشام ما من عبد إلا وملك آخذ بناصيته، فلا يتواضع إلا رفعه الله ولا يتعاظم إلا وضعه الله. يا هشام إن لله على الناس حجتين حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة. وأما الباطنة فالعقول. يا هشام إن العاقل، الذي لا يشغل الحلال شكره ولا يغلب الحرام صبره. يا هشام من سلط ثلاثا على ثلاث فكأنما أعان هواه عل هدم عقله. من أظلم نور فكره بطول أمله. ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه. وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله. ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه. يا هشام كيف يزكو عند الله عملك وأنت قد شغلت عقلك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة عقلك. يا هشام الصبر على الوحدة علامة قوة

قال هشام بن الحكم: دخل أبو شاكر الديصاني ـ وهو زنديق ـ على أبي عبد الله (عليه السلام)، وقال: يا جعفر بن محمد دلني على معبودي!

فقال أبو عبد الله (عليه السلام): اجلس. فإذا غلام صغير في كفه بيضة يلعب بها. فقال أبو عبد الله: ناولني يا غلام البيضة، فناوله إياها. فقال أبو عبد الله: يا ديصاني، هذا حصن مكنون، له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مايعة، وفضة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المايعة، فهي على حالها، لا يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن إصلاحها، ولا يدخل إليها داخل مفسد فيخبر عن إفسادها، لا يدرى للذكر خلقت أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أترى له مدبراً؟

قال: فأطرق ملياً ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأنك إمام وحجة من الله على خلقه، وأنا تائب مما كنت فيه.

الاحتجاج للشيخ الطبرسي ٢/ ٧١ـ٧٢

العقل، فمن عقل عن الله تبارك وتعالى اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند ربه آنسه في الوحشة وصاحبه في الوحدة. وغناه في العيلة ومعزه في غير عشيرة. يا هشام نصب الخلق لطاعة الله. ولا نجاة إلا بالطاعة. والطاعة بالعلم. والعلم بالتعلم. والتعلم بالعقل يعتقد. ولا علم إلا من عالم رباني. ومعرفة العالم بالعقل.

يا هشام قليل العمل من العاقل مقبول مضاعف. وكثير العمل من أهل الهوى والجهل مردود. يا هشام إن العاقل رضي بالدون من الدنيا مع الحكمة. ولم يرض بالدون من الحكمة مع الدنيا، فلذلك ربحت تجارتهم. يا هشام إن كان يغنيك ما يكفيك فأدنى ما في الدنيا يكفيك. وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس شئ من الدنيا يغنيك. يا هشام إن العقلاء تركوا فضول الدنيا فكيف الذنوب. وترك الدنيا من الفضل وترك الذنوب من الفرض. يا هشام إن العقلاء زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة. لأنهم علموا أن الدنيا طالبة ومطلوبة والآخرة طالبة ومطلوبة، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه. ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة فيأتيه الموت فيفسد عليه دنياه وآخرته. يا هشام من أراد الغنى بلا مال وراحة القلب من الحسد والسلامة في الدين فليتضرع إلى الله في مسألته بأن يكمل عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه ومن قنع بما يكفيه استغنى ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبدا. يا هشام إن الله عز وجل حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا: (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) حين علموا أن القلوب تزيغ وتعود إلى عماها ورداها. إنه لم يخف الله من لم يعقل عن الله ومن لم يعقل عن الله لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها ويجد حقيقتها في قلبه. ولا يكون أحد كذلك إلا من كان قوله لفعله مصدقا، وسره لعلانيته موافقا، لان الله لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلا بظاهر منه وناطق عنه. يا هشام كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما من شئ عبد الله به أفضل من العقل. وما تم عقل امرء حتى يكون فيه خصال شتى، الكفر والشر منه مأمونان. والرشد والخير منه مأمولان. وفضل ماله مبذول. وفضل قوله مكفوف. نصيبه من الدنيا القوت. ولا يشبع من العلم دهره. الذل أحب إليه مع الله من العز مع غيره. والتواضع أحب إليه من الشرف. يستكثر قليل المعروف من غيره ويستقل كثير المعروف من نفسه. ويرى الناس كلهم خيرا منه وأنه شرهم في نفسه وهو تمام الامر. يا هشام من صدق لسانه زكى عمله. ومن حسنت نيته زيد في رزقه. ومن حسن بره بإخوانه وأهله مد في عمره. يا هشام لا تمنحوا الجهال الحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم. يا هشام كما تركوا لكم الحكمة فاتركوا لهم الدنيا. يا هشام لا دين لمن لا مروة له. ولا مروة لمن لا عقل له. وإن أعظم الناس قدرا الذي لا يرى الدنيا لنفسه خطرا، أما إن أبدانكم ليس له ثمن

إلا الجنة، فلا تبيعوها بغيرها. يا هشام إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: (لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه ثلاث خصال: يجيب إذا سئل وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي فيه صلاح أهله، فمن لم يكن فيه شئ منهن فجلس فهو أحمق). وقال الحسن بن علي عليهما السلام: (إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها) قيل :يا ابن رسول الله ومن أهلها؟ قال: (الذين قص الله في كتابه وذكرهم، فقال (إنما يتذكر أولوا الألباب) قال: هم أولوا العقول. وقال علي بن الحسين عليهما السلام: (مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح. وأدب العلماء زيادة في العقل. وطاعة ولاة العدل تمام العز. واستثمار المال تمام المروة. وإرشاد المستشير قضاء لحق النعمة. وكف الأذى من كمال العقل وفيه راحة البدن عاجلا وآجلا. يا هشام، إن العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه. ولا يسأل من يخاف منعه. ولا يعد ما لا يقدر عليه. ولا يرجو ما يعنف برجائه. ولا يتقدم على ما يخاف العجز عنه. وكان أمير المؤمنين عليه السلام يوصي أصحابه يقول: (أوصيكم بالخشية من الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب. والاكتساب في الفقر والغنى. وأن تصلوا من قطعكم. وتعفوا عمن ظلمكم. وتعطفوا على من حرمكم. وليكن نظركم عبرا. وصمتكم فكرا. وقولكم ذكرا وطبيعتكم السخاء ، فإنه لا يدخل الجنة بخيل ولا يدخل النار سخي). يا هشام رحم الله من استحيا من الله حق الحياء، فحفظ الرأس وما حوى. والبطن وما وعى. وذكر الموت والبلى. وعلم أن الجنة محفوفة بالمكاره. والنار محفوفة بالشهوات. يا هشام من كف نفسه عن أعراض الناس أقاله الله عثرته يوم القيامة. ومن كف غضبه عن الناس كف الله عنه غضبه يوم القيامة. يا هشام إن العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه. يا هشام وجد في ذؤابة سيف رسول الله صلى الله عليه وآله: إن أعتى الناس على الله من ضرب غير ضاربه وقتل غير قاتله. ومن تولى غير مواليه فهو كافر بما أنزل الله على نبيه محمد صلى الله عليه وآله. ومن أحدث حدثا، أو آوى محدثا لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا. يا هشام أفضل ما يقترب به العبد إلى الله بعد المعرفة به الصلاة وبر الوالدين وترك الحسد والعجب والفخر.

يا هشام أصلح أيامك الذي هو أمامك، فانظر أي يوم هو وأعد له الجواب، فإنك موقوف ومسؤول. وخذ موعظتك من الدهر وأهله، فإن الدهر طويلة قصيرة فاعمل كأنك ترى ثواب عملك لتكون أطمع في ذلك. واعقل عن الله وانظر في تصرف الدهر وأحواله، فإن ما هو آت من الدنيا، كما ولى منها، فاعتبر بها. وقال علي ابن الحسين عليهما السلام: (إن جميع ما طلعت عليه الشمس في مشارق الأرض ومغاربها بحرها وبرها وسهلها وجبلها عند ولي من أولياء الله وأهل المعرفة بحق الله كفئ الظلال - ثم قال عليه السلام -: أو لا حر يدع (هذه) اللماظة

لأهلها ـ يعني الدنيا ـ فليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها بغيرها، فإنه من رضي من الله بالدنيا فقد رضي بالخسيس). يا هشام إن كل الناس يبصر النجوم ولكن لا يهتدي بها إلا من يعرف مجاريها ومنازلها. وكذلك أنتم تدرسون الحكمة ولكن لا يهتدي بها منكم إلا من عمل بها. يا هشام إن المسيح عليه السلام قال للحواريين: (يا عبيد السوء يهو لكم طول النخلة وتذكرون شوكها ومؤونة مراقيها وتنسون طيب ثمرها ومرافقها.كذلك تذكرون مؤونة عمل الآخرة فيطول عليكم أمده وتنسون ما تفضون إليه من نعيمها ونورها وثمرها. يا عبيد السوء نقوا القمح وطيبوه وأدقوا طحنه تجدوا طعمه ويهنئكم أكله، كذلك فأخلصوا الايمان وأكملوه تجدوا حلاوته وينفعكم غبه، بحق أقول لكم: لو وجدتم سراجا يتوقد بالقطران في ليلة مظلمة لاستضأتم به ولم يمنعكم منه ريح نتنه. كذلك ينبغي لكم أن تأخذوا الحكمة ممن وجدتموها معه ولا يمنعكم منه سوء رغبته فيها. يا عبيد الدنيا بحق أقول لكم: لا تدركون شرف الآخرة إلا بترك ما تحبون، فلا تنظروا بالتوبة غدا، فإن دون غد يوما وليلة وقضاء الله فيهما يغدوا ويروح بحق أقول لكم: إن من ليس عليه دين من الناس أروح وأقل هما ممن عليه الدين وإن أحسن القضاء وكذلك من لم يعمل الخطيئة أروح هما ممن عمل الخطيئة وإن أخلص التوبة وأناب. وإن صغار الذنوب ومحقراتها من مكائد إبليس، يحقرها لكم ويصغرها في أعينكم فتجتمع وتكثر فتحيط بكم. بحق أقول لكم: إن الناس في الحكمة رجلان: فرجل أتقنها بقوله وصدقها بفعله. ورجل أتقنها بقوله وضيعها بسوء فعله، فشتان بينهما، فطوبى للعلماء بالفعل وويل للعلماء بالقول. يا عبيد السوء اتخذوا مساجد ربكم سجونا لأجسادكم وجباهكم. واجعلوا قلوبكم بيوتا للتقوى. ولا تجعلوا قلوبكم مأوى للشهوات، إن أجزعكم عند البلاء لأشدكم حبا للدنيا. وإن أصبركم على البلاء لأزهدكم في الدنيا. يا عبيد السوء لا تكونوا شبيها بالحداء الخاطفة ولا بالثعالب الخادعة ولا بالذئاب الغادرة ولا بالأسد العاتية كما تفعل بالفرائس. كذلك تفعلون بالناس، فريقا تخطفون وفريقا تخدعون وفريقا تغدرون بهم. بحق أقول لكم: لا يغني عن الجسد أن يكون ظاهره صحيحا وباطنه فاسدا. كذلك لا تغني أجسادكم التي قد أعجبتكم وقد فسدت قلوبكم. وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة.

لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة . كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم . يا عبيد الدنيا إنما مثلكم مثل السراج يضيئ للناس ويحرق نفسه. يا بني إسرائيل زاحموا العلماء في مجالسهم ولو جثوا على الركب، فإن الله يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر. يا

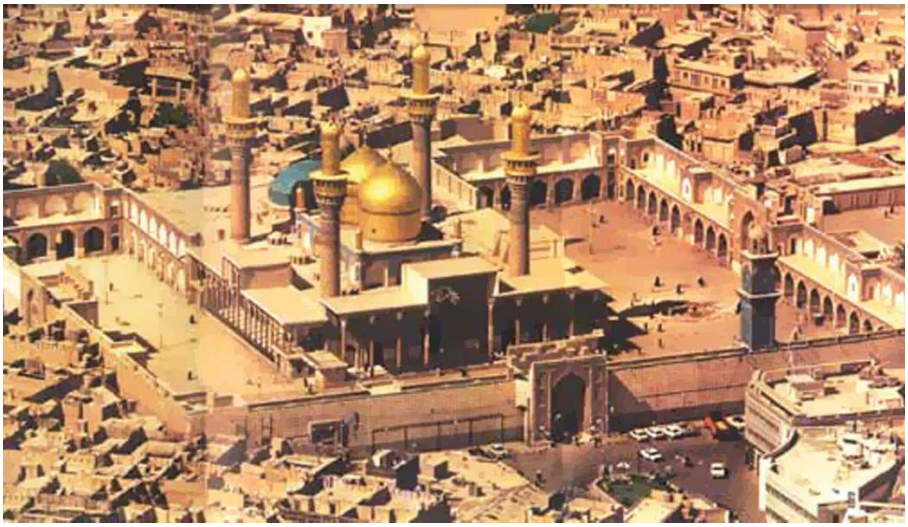

صورة جوية قديمة للروضة الكاظمية المقدسة

هشام مكتوب في الإنجيل (طوبى للمتراحمين، أولئك المرحومون يوم القيامة طوبى للمصلحين بين الناس، أولئك هم المقربون يوم القيامة. طوبى للمطهرة قلوبهم، أولئك هم المتقون يوم القيامة. طوبى للمتواضعين في الدنيا، أولئك يرتقون منابر الملك يوم القيامة). يا هشام قلة المنطق حكم عظيم، فعليكم بالصمت، فإنه دعة حسنة وقلة وزر وخفة من الذنوب. فحصنوا باب الحلم، فإن بابه الصبر. وإن الله عز وجل يبغض الضحاك من غير عجب والمشاء إلى غير أرب. ويجب على الوالي أن يكون كالراعي لا يغفل عن رعيته ولا يتكبر عليهم. فاستحيوا من الله في سرائركم، كما تستحيون من الناس في علانيتكم. واعلموا أن الكلمة من الحكمة ضالة المؤمن، فعليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعه غيبة عالمكم بين أظهركم. يا هشام تعلم من العلم ما جهلت. وعلم الجاهل مما علمت. عظم العالم لعلمه، ودع منازعته. وصغر الجاهل لجهله ولا تطرده ولكن قربه وعلمه. يا هشام إن كل نعمة عجزت عن شكرها بمنزلة سيئة تؤاخذ بها. وقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: (إن لله عبادا كسرت قلوبهم خشيته فأسكتتهم عن المنطق وإنهم لفصحاء عقلاء، يستبقون إلى الله بالإعمال الزكية، لا يستكثرون له الكثير ولا يرضون لهم من أنفسهم بالقليل. يرون في أنفسهم أنهم أشرار وأنهم لأكياس وأبرار). يا هشام الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء في النار. يا هشام المتكلمون ثلاثة: فرابح وسالم وشاجب، فأما الرابح فالذاكر لله. وأما السالم فالساكت. وأما الشاجب فالذي يخوض في الباطل، إن الله حرم الجنة على كل فاحش بذي قليل الحياء

لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه . وكان أبو ذر رضي الله عنه يقول: (يا مبتغي العلم إن هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر، فاختم على فيك كما تختم على ذهبك وورقك). يا هشام بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه إذا شاهده ويأكله إذا غاب عنه، إن أعطي حسده وإن ابتلي خذله. إن أسرع الخير ثوابا البر، وأسرع الشر عقوبة البغي.

التحليل

تعد وسائل البيان من الأساليب التي تقرب الصورة إلى الأذهان، وتنقلها إلى المتلقي فتكون بذلك حلقة وصل بين المبدع والمتلقي، ومن أساليب الأداء البياني، التشبيه، الذي نلحظ توظيفه الفني والفكري في الوصية، كما في قوله عليه السلام: (يا هشام: إن مثل الدنيا مثل الحية مسها لين وفي جوفها السم القاتل)[٦] فالتشبيه يتضح من خلال التقابل بين الدنيا والحية، الدنيا برهجها الذي مصيره الزوال، وما تلهمه للناس من شهوات وملذات، فمن ركب سفينتها كان مصيره الغرق، وهي نار الآخرة التي تصليه في يوم الميقات، ثم الحية وملمس جلدها الليّن، وما يمنحه من جمال ولطافة تسر الناظر إليها، لكن هذه الملامسة في الجلد يتوارى تحته سم قاتل لا يبرأ أي كائن منه.

ومن التشبيه، قوله عليه السلام: (يا هشام: مثل الدنيا مثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله)[٧] الذي لا يبتعد كثيراً في مضامينه الغنية والفكرية عن سابقه ومنه، قوله عليه السلام: (يا هشام اياك ومخالطة الناس والأنس بهم إلا أن تجد منهم عاقلاً مأموناً فآنس بهم واهرب من سائرهم كهربك من السباع الضارية)[٨].

فالتوظيف الغني لهذا التشبيه يزداد حسناً وجمالاً بهذه الصورة المتدفقة بالحياة بمصاديقها المتعارف عليها في البيئة المعاشة، فصورة الإنسان الجاهل غير المأمون تدعو إلى الهرب والنفور منه بشدة، وهي توافق صورة الهرب من السباع لشدة الخوف، فوجه الشبه هو الخوف من الموت، ميتة الجاهل وميتة الإنسان الطبيعية.

ومنه، قوله عليه السلام: (يا هشام: إن كل الناس يبصر النجوم ولكن لا يهتدي بها إلا من عرف مجاريها ومنازلها، وكذلك انتم تدرسون الحكمة ولكن لا يهتدي بها منكم إلا من عمل بها...)[٩] فوجه الشبه عدم القدرة على الفهم والاستيعاب، فالنظر إلى النجوم ممكن لكل إنسان، لكن الاهتداء بها صعب، إلا لمن امتلك زمام العقل والفطنة وعرف منازلها ومجريها، كذلك من يدرس الحكمة، لا يهتدي بها إلا من تمكن منها،وعمل بها بما امتلكه من راجحة عقل وذكاء.

وقد وردت نماذج أخرى كثيرة من التشبيه في الوصية

ومن أساليب الأداء البياني، الاستعارة، التي نراها في قوله: (يا هشام! إياك والطمع... أمت الطمع من المخلوقين)[١٠] فالاستعارة هنا في غاية الجمال والإبداع، فالإمام عليه السلام يبث الحياة والموت في الطمع، فكأنه

إنسان يرى، ويتأمل، ويأكل،و... ويموت، فاستطاع الإمام عليه السلام أن يصل بالاستعارة إلى أقصى مرامها من خلال استعمال عنصر التشخيص وتوظيفه بخيال رائع خلاب.

ومنها، قوله عليه السلام: (لا تمنحوا الجهال الحكمة فتظلموها)[11] الذي لا يبتعد كثيراً عن سابقه، فكأن الحكمة إنسان يحس بالظلم، ولا تخفى براعته عليه السلام في رسم هذه الاستعارة بحيث أمكن تشكيل معادلة منطقية منها: الجاهل + الحكمة = ظلم، وذلك بتوظيف قدرة التشخيص في إعطاء دلالات أعمق وأكثر تأثيراً في نفس المتلقي.

ومنها، قوله: (الحكمة تعمر في قلب المتواضع)[12] فالإمام عليه السلام بث الحركة والنشاط في الحكمة، فبدت وكأنها شيء له حياة ينمو وينضج ويعمر، فأعطى بذلك للاستعارة توضيفاً فنياً وبعداً واقعياً من خلال بعثه الحياة في المعنويات.

وقد وردت نماذج أخرى من الاستعارة في الوصية.

ومن أساليب الأداء البياني، الكناية، كما في قوله عليه السلام: (زاحموا العلماء في مجالسهم، ولو حبوا على الركب...)[13] فهنا كناية عن القدرة على العطاء ولو بشيء قليل، فالرابط بين (الحبو) وهو زحف الطفل قبل المشي، والزحف والمشي بينهما فرق واضح، كذلك الفرق بين العالم ومن هم أقل منه درجة.

ومنها، قوله عليه السلام: (يا هشام: بئس العبد عبد يكون ذا وجهين...)[14] الذي هو كناية عن التقلب وعدم الاستقرار على حالة واحدة، فتعدد الأوجه سمة من سمات المنافق، وآية من آيات المتعجرف الشنف.

وقد وردت نماذج أخرى كثيرة من الكناية في الوصية.

هذا ما قدرنا الله أن نقف عليه من أساليب الأداء البياني في وصية الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وهنالك بقية كثيرة يمكن للقارئ أن يعمر لسانه وقلبه بها، والله المستعان في الأول والآخر ■

---

(١) ينظر: الفصول المهمة: ٢٤، وكشف الغمة:٣/٢٥، والإرشاد:٢٨٠.

(٢) أبو الحكم هشام بن الحكم البغدادي الكندي مولى بني شيبان ممن اتفق الأصحاب على وثاقته، وعظم قدره، ورفعه منزلته عند الأئمة عليهم السلام، وكانت له مباحث كثيرة مع المخالفين في الأصول وغيرها، صحب أبا عبد الله وبعده الكاظم والرضا عليهم السلام وتوفي سنة ١٧٩هـ بالكوفة. ينظر في ترجمته: رجال الكشي:١٦٦ وما بعدها، وتأسيس الشيعة:٣٦٠.

(٣) ينظر: تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي:٤٧٦.

(٤) ينظر: المختصر إلى تاريخ الأدب العربي:٢٩٣، وللتفصيل أكثر ينظر الإسلام وعلم النفس.

(٥) ينظر: تحف العقول:٢٨٦- ٣٠٠.

(٦) ينظر: تحف العقول.

(٧) ينظر: تحف العقول.

(٨) ينظر: تحف العقول.

(٩) ينظر: تحف العقول.

(١٠) ينظر: تحف العقول.

(١١) ينظر: تحف العقول.

(١٢) ينظر: تحف العقول.

(١٣) ينظر: تحف العقول.

(١٤) ينظر: تحف العقول.

قصة قصيرة:

طريق العودة

بنت العراق •

تنبيه

قام من أمام شاشة الحاسوب بعد ساعات من المحادثة الممتعة عبر الانترنت مع أخيه... على الأقل تمكن تقليل عذابات الغربة وتقصير مسافات البعد...

تذكر أيام كان أخوه يتواصل معه بالرسائل المكتوبة... لم يكن التطور قد دخل العراق بعد... كان وطنه في وسط الظلام يقوده الطاغوت... توغل في ذاكرته أكثر فإذا ليلة هروبه شاخصة أمام ناظره... هرب من وطنه إلى اللاوطن!! أرعبوه وشردوه بلا ذنب وسبب... يوم تبادل بعض الكتب الدينية مع زملائه ما كان يعلم أن عيون الذئاب ترصده... في ليلة قمراء خيل إليه أن القمر يبكي لما حل بهم... ودع أمه وأخواته... ثم حضن محمد بقوة وهمس. محمد قد يلاحقوك... تعال معي، لكن محمد أدار نظرة إلى ما تبقى من العائلة وقال... إنهم بحاجة إلى رجل... في أمان الله يا طارق وأحفظ دينك ووطنك في غربتك.

وهكذا حمل كل منهما نصيبه من المعاناة... الأول من الغربة والعذاب والضياع والآخر من السجن والتعذيب والتشريد.

١٨ عاماً من الغربة جعلت طارقاً

عجوزاً وهو في أوج شبابه... ولكن هناك من شاطره هموم الغربة وبالرغم من طول السنين وبعد المسافة فإن كل منهما يعرف عن الآخر أدق تفاصيل حياته.

ما كان لطارق أن يغترب ولا لمحمد أن يعيش بلا أخ لولا جور الطغاة وحقدهم، طارق الذي كان يشكو الغربة ها هو اليوم يشكو الوطن!!

إنه في حيرة... محمد يدعوه للعودة... في كل رسالة... خلف كل كلمة... هناك ذراعان مفتوحتان للعناق...

أيترك ما بناه ليعود إلى وطن أصبح

أشلاء!!

كم يتمنى لو أن محمداً يوافيه هنا في غربته وينعم بالعيش مثله... حياة سهلة مليئة بالرفاهية يستحق أكثر منها أي عراقي...

... وكل يدعو الآخر إلى جنته... جنة الوطن... وجنة الغربة... وكلاهما مصر على رأيه...

نمت تلك الأخوة كزهرة نادرة حرصا على أن يغذياها بالحب والتواصل... ولكن... طارق تؤرقه أخبار الوطن... كل يوم يذبح العراق... كل يوم يسحق برعم أوشك أن يزهر... إن روحه هناك وجسده هنا... فكيف يهنأ...

محمد... يصافح الموت في كل حين... سائراً في طريقه للعمل... متبضعاً في سوق شعبي... طائفاً في مرقد علوي... أو ربما جالساً في بيته مع أسرته أمام شاشة التلفاز...

(أحتاجك... فأنت من يمدني بالطاقة لأحيا... أرجو منك بشدة أن تبعد نفسك عن أي خطر... لأجلنا... لا تقرب من المسيرات الحاشدة والأماكن المستهدفة...) كان يكتب وهو يعلم أن محمداً يمكن أن يطيعه في أي شيء إلا ما طلب منه... (إن عشقه لمراقد الأولياء ولد معه... وسيموت معه) هكذا رد محمد...

كان من بين الطائفين بمرقد الحسين عليه السلام عندما دوى الانفجار الذي أراد منفذوه أن يقتلوا الحب الذي في الصدور... ولكن أنى لهم ذلك... يومها بكى طارق كثيراً ما كان يبكي محمد فحسب... بل يبكي العراق وأي صدور حاقدة أئتلفت عليه...

بأصابع مرتعشة كتب رسالة يسأل فيها عن حال أخيه وأهله... ساعات ثقيلة مرت... وبصره موزع بين شاشة الحاسوب... والهاتف... دون رد... يوم من القلق... يومان... أحاطت به غمامة سوداء... ولازم فراشه... وغلبه اليأس... أسبوع وآخر... قلق... سهر ضياع... أين أنت يا محمد؟ لا أبداً لن أخسرك بهذه السرعة أو تضيع روحي من بين يدي؟!.

ثم جاءت الرسالة وطفرت الدموع من عيني طارق من شدة الفرح... شعر أن دماء جديدة تجري في عروقه... ها هو محمد يعود بعد الضياع... لك الحمد يا رب...

لن يضيع دقيقة أخرى... سيعود ويحضن أخاه... ويشبع لهفته إليه... وعاد على جناح الشوق... أنه الخميس حيث تُزال الهموم عند شباك الحسين عليه السلام... أمسك بالشباك الطاهر وبكى لأول مرة يبكي بحرقة... كانت دموعه تغسله... هناك شيء طالما افتقده في سني الغربة... يعود إليه الآن...

غمرته راحة عجيبة... وهو يتخلص من آلامه وأحزانه... لحظات لا تعوض... كيف ضيعها طوال سنين...!

... إنه الخميس ومحمد لن يفوت زيارة الخميس بتاتاً... لابد أن يصحب والدته للزيارة كما اعتادا... وقد صدق ظنه...

خرج من الحرم المطهر... ودار برأسه مدققاً في الجموع الغفيرة... سرعان ما لاح وجه والدته العجوز... وذاك محمد... صرخ... ولوح بيده... وركض نحوهما...

خيل إليه أن محمد يبتسم... ولكن ما تحرك قط... بدأ يبكي وهو يقبل جبين والدته ويديها... ثم التفت إلى أخيه ماداً ذراعيه...

ابتسم الأخ بحزن وفي عينيه رغبة... تسمرت عينا طارق على الكرسي... رباه... إنه مبتور القدمين... ولازال يسعى إلى الحسين عليه السلام...■

البيان الصادع
في خطبتي العقيلة زينب عليها السلام

أ. م. د. مشكور العوادي •
مركز دراسات الكوفة

عفواً أيا عقيلة البطولة والفداء والإباء...
من كوفة الغدر إلى الشام إلى طفوف كربلاء...
قد سجل التاريخ والوجود بل ملائك السماء
كان البيان صادعاً لأنه من ابنة الكرار
وكان البيان رائعاً لأنه من ابنة الزهراء
وكان البيان منهما ـ حسينياً ـ مضمخ الولاء بأطهر الدماء...
يا ابنة الكرام والأطهار والعظام، فالمحنة السوداء والشوهاء
لما تزل وأمة الإسلام ـ يا حفيدة الرسول ـ في عناء...

تمهيد

إن صادعية الحق في البيان الزينبي كان متمثلاً بقوة وذلك لأنها لسان ناطق من أهل البيت عليهم السلام ، والحق وأهل البيت صنوان لا يفترقان. وقد تدرج خطابها عليها السلام على وفق المقتضى والمقام إذ كان ذلك التدرج في مخاطبة الضمائر هو الأذكى للسياسات النفسية في قيادة النفوس الظامئة إلى الحق ... لذا عمدت إلى إيراد التمثيل والتصوير في هذه الخطب محققة استشفافاً أقرب للمشاعر وانتهاضاً أوقع للهمم ساعية

وراء التحصل المطلوب والتوصل المقصود وهو أنجع الوسائل لبلوغ هذه البلغة والتوصل إلى هذه النجعة، وعندها كان صوتها العلوي هادراً متطاولاً متجدداً لأن ذلك من سمات أصحاب الحق واليقين وصفات الواثقين بالله سبحانه وتعالى فلا تنفك عنهم صادقية الحق ورادعية أضاليل الباطل فهم على مثل هذا السبيل سائرون..(فالصدع مستعار للجهر والإبانة والعلاقة هي أن الصدع تنفصل به الأجزاء وتتبين مقاطعها وكذلك الإبانة والجهر تتحدد بهما الحقائق وتنكشف الأغراض..)[1].

وعناصر هذا البيان الصادع مستمدة من الاتكاء على ثوابت الحق وأنه صادر من جهة القمة في البلاغة وكذلك هو يسجل موقفاً تاريخياً حاسماً ليكون منعطفاً في تاريخ الأمة فيما بعد، ويمثل أيضاً صرخة مدوية في عرصات التاريخ وسككه، وعندها تكون هذه الخصوصية الشخصية للخطيب والتي غالباً ما تكون شخصية استشهادية أو داعية إلى دين الله قد ضحت بكل شيء من أجل إيصال خطبتها إلى القوم الجهلاء.

وهنا الصدع فيه بسالة، لأن البيان الباسل هو المأخوذ بنظر الاعتبار مكان النطق فيه، فالكلمة المبينة المنطوقة عند حاكم جائر تأخذ زخماً عنفوانياً بيانياً أعلى من الكلام المنطوق بالحرية التامة، وقد تكون هذه الكلمة شهيدة في بعض الأحيان، إذ تتجلى عندها الشجاعة والإبانة المكتسبة من خصوصية الموقف، وهي من الوسائل الداخلية للإبداع الخطابي[2].

وإن براعة التصوير والبيان في مثل هذه المواقف لا تنفك عن الشخصية

الأبيــة فهي من لوازمهــا الثابتة (ولكن مــا قيمتها إذا ما اســتعملت في مواقف رتيبــة اعتياديــة)؟ فهــذه البراعــة تقــع عندما يتألق الصدع وذلك حينما تكون ماضية في مناسباتها حازمة لمقتضياتها واقعــة فــي ســاحاتها، كمــا فــي أديم الطفــوف أو قرب الصولجــان اليزيدي أو في رحاب المدينة المنورة إذ تكون إبانــات عاصفة وإمضــاءات هزهازة لا تقــوم عندهــا للباطل قومــة ولا تنهض لجحافله نهضة.

فمثــلاً، يقــول مــن شــهد الموقــف الزينبي: (لما أومــأت زينب ابنة علي عليهما السلام إلى الناس فسكتت الأنفاس والأجراس.

إنه نفوذ معنوي وهيمنة روحية ومدد الهي ينسجم مع خطورة الموقف وجلال المشــهد وهي بهذه القوة والهيمنة تقوى على الإفصاح عــن ما يفرضه المقام من مقال)[٣].

إذن المســيرة الزينبية مــن الكوفة إلى الشــام إلى الحجاز أثرت في مخالج منطقها وبراعــة بيانها فنوعت خطابتها بحسب المواقف التي سارت فيها فلكل موقــف أعطت بيانه ولــكل مقام أدت ما عليها مــن خطوات التصوير وعندها تنوعت الإرهاصات النفســية المساوقة للمســيرة وقد اعتملت كفوارة إصدار خطابي تنوع نتاجها بمــا يلائم الموقف ومجموعة الناس الحاضرة.

وكانت الصورة في الخطاب الزينبي مشــرقة النكهــة وذات حــق صــرف فهــي لا تراجــي ولا تحابــي، فهي عليها السلام بنت أبيها رضعــت الحق من ذاك البيت الطاهر لبانةً حتى استوسق في شراييها دمــاً ثائــراً وخطاباً شــهادياً، فهــي ابنة أميــر المؤمنين وإمام المتقين (مشــرع الفصاحــة وموردهــا ومنشــأ البلاغــة ومولدها ومنه عليه السلام ظهر مكنونها وعنه أخــذت قوانينها وعلــى أمثلته حذا كل قائــل خطيــب وبكلامه اســتعان كل واعظ بليغ)[٤].

لــذا نقــول إن الصورة عليها مســحة إلهية مع كل هــذه الهزاهز والخطوب التــي مرت بها عبر الظلامة التي لم يقع لهــا في التاريخ مثيــل، فلو كان هناك غيرهــا لأنصهــر وآناخ تحــت كلكل خطبها العاشورائي الفظيع.

خاطبت العقيلة أولاً مجتمع الكوفة لأنه موقعاً هم أول من قابلتهم بعد موقعة الطــف، وهم يمثلــون القاعدة الشــعبية التي عني الإمام الحسين عليه السلام بتوعيتها، وكانت التوعية بوخز الضمير.

وكان خطابهــا عليها السلام عنيفاً كاشــفاً عن ســبات هذا المجتمع ومثالبه وصولاً إلى إنهاض عام للنفوس الانهزامية عند أهل الكوفة.

وقد مثلت هذه المرحلة الأولى حين كان خطابها شــعبياً موجهــاً إلى العامة معتمدة على الأصول الخطابية لتركيز الوظيفة التصويرية في أذهانها، وعندها تحولت هذه الأدلة إلى صور فنية مشبعة بالحمــاس والاندفاع نحو خدمة أغراض النص.

وهنا تواجه السيدة (مجتمع الكوفة الحاشد وقد فرغ بالأمس من ارتكاب أفظع جريمة في تاريخ الإسلام تواجهه لتوقفــه علــى دخيلتــه وحقيقتــه وتحلل شــخصيته القلقــة ونفســيته المعقــدة منطلقــة مــن الاســتنتاج والحكــم من نظرة دقيقة ودراســة مستوعبة، فتقول:

(أما بعد يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون إيمانكم دخلاً بينكم، ألا وهل فيكم إلا الصلف وملق الإماء، وغمز الأعداء، أو كمرعى على دمنة أو كقصة على ملحودة)[٥].

وهنا نلحظ أنها تقتبس الأسلوب القرآني التقريعي في المواضع المطلوبة والمناسبة لأن الاستشهاد بالقرآن مسكت وخير شاهد وشهيد.

وهي كأبيها عليه السلام في وصفه لأهل الكوفة وأخلاقهم في هذا الباب في مواضع كثيرة منها قوله:

(يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار، لا أحرار صدقٍ عند اللقاء، ولا إخوان ثقةٍ عند البلاء؛ تربت أيديكم؛ يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها؛، كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر...)[٦].

وتقول عليها السلام في المقطع الثاني:

(إلا بئس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون، أتبكون وتنتحبون؟! إي والله فأبكوا كثيراً واضحكوا قليلاً)[٧].

إذ نلحظ هنا سرعة الخاطر وذلاقة الكلمات بسهولة ويسر مع التواقيع الشديدة للجرس القلبي في هذه الكلمات.

فمع السرعة لا تبدو ركة بل رصانة وجزالة وصواعق تحرق قلوب الجاحدين.

وتقول عليها السلام في المقطع الثالث:

(ويلكم يا أهل الكوفة؛ أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم؛ وأي كريمة له أبرزتم؟!؛ وأي دم له سفكتم؟!؛ وأي حرمة له انتهكتم؟!؛ لقد جئتم شيئاً إداً تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ولقد أتيتم بها

خرقاء شوهاء كطلاع الأرض وملء السماء)[٨].

وتصويرها يؤكد معرفتها التامة بمقام أخيها ومظلمته فهي تعد فعل أهل الكوفة أكبر ما حدث في الأرض شناعة وبشاعة لا لكونه أخاها بل لأنه دم مفعم بالطهر والزكاة. لذا فهي تؤكد أن السماء أمطرت دماً والاضطراب وقع في ظواهر الطبيعة حزناً على هذه الواقعة الأليمة، هذا (والرزايا جمة والأحداث كبار، والمحنة عظيمة في ذاتها وآثارها وإن لم يكن لها حد وعد فهي ملء الكون؛ بأرضه وآفاقه الرحيبة وسمائه الواسعة غير المتناهية)[٩].

فكان أن أمطرت السماء ليس في الطفوف وحدها بل عمت آفاق الكون والمعمورة ناعية الحسين إماماً وشهيداً وشاهدة على هذه الفاجعة ونذيرةً بالغضب الإلهي لذلك.

من هنا كان البيان الزينبي ذا أثر في المسامع لامتلاكه امتداداً تاريخياً (لخلوده في صرخات الثورة الحسينية)، فقد قامت السيدة الطاهرة بتخليد أهداف الثورة ومقاصدها من خلاله، وعندها يمكننا القول إن هذا الخطاب الزينبي هو صنو الدم الحسيني في رفع مشاعل الإسلام عالياً في دروب البشرية السائرة بغير ما هدى ولا كتاب منير.

وهي عليها السلام بذمها لمجتمع الكوفة قد ذمت الوالي آنذاك وهو (عبيد الله بن زياد) الذي مثل في وقته قيادة هذه الناس ورأس هذه الأمة اليائسة، وهي تكشف في خطابها عن مدى التقهقر الإنساني في نفس الوالي والاندثار القيمي عنده بل تكتشف أنه رأس البلاء في انهزامية أهل الكوفة وتخاذل أمة كاملة من المسلمين إذ نقل ما فيه من خواء وضعف إليهم بالعدوى فاضمحلت أخلاقهم فأصبحوا كالبهائم كما فعل الطواغيت بأهل العراق في الحكم البائد.

فكان خطابها معه خطاباً مهاجماً تحذر بادرته والياً وتبين عيوبه أمام الجمع مشيرة إلى أنه السبب الرئيس لكل فواجع كربلاء والمخازي التي ارتكبت فيها، فما أمره يزيد إلا بأخذ البيعة من الإمام الحسين عليه السلام ولكنه تمادى في غيه إلى تقطيع الأشلاء وحز الرؤوس!!.

وقد أحكمت السيدة عليها السلام خطابها إبانةً وتمثيلاً، لأن التمثيل كما يقول عبد القاهر الجرجاني: (إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلفاً وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً..)[١٠].

أما خطابها عليها السلام مع يزيد في الشام فقد كان متقناً صادعاً وهو يلقى في رأس الحاضرة الإسلامية آنذاك (دمشق) حيث لا تأخذها في الله لومة لائم ولا تتخيف في مخاطبة الظالمين على دينها بل كانت تمتشق عبارات أهلها في إبانة مثالب السلطان الأموي ومآثمه أمام الجمع الحاضر وهم رجالات الدولة في ذلك الحين، وهنا أخذت العبارة الخطابية وهي (التي

تعطي المعاني والعواطف شكلاً مادياً يسهل به التفاهم)[11].

وقعها الشديد في نفسية المتلقي وهو ما يتجلى ارتجاعاً في عجزه أمام هذا البيان الصادع.

فحين أظهر الطاغية الآثم فرحته الكبرى في أخذه بثأر قتلى بدر من النبي الأعظم ﷺ وهو يترنم بأبيات ابن الزبعرى أمام الملأ بصوت عالٍ التي افتتحها بقوله:

ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل

إلى قوله:

لست من خندف إن لم أنتقم
من بني أحمد ما كان فعل

فإن هذه الأبيات من الطغمة الحاكمة تمثل الجانب الآخر من الصورة وهو الجانب المقيت والمظلم لدثور نفس يزيد وتمرسها في عالم الظلام إذ لا هم له إلا ملاعبة القرود ومعاقرة الخمور وتعاطي الفجور.

فما أن أسمعت العقيلة هذا التشفي المتهافت بقتل عترة رسول الله ﷺ (وثبت كالأسد فسحقت جبروته وطغيانه فكأنها هي الحاكمة والمنتصرة، والطاغية هو المخذول والمغلوب على أمره...)[12].

قالت عليها السلام: (الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين... صدق الله سبحانه حيث يقول: (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون)[13].

فمن ملاحظ هذه نجد تمام أدب العقيلة عليها السلام وتهافت أخلاق الطاغية ذلك أنها تفاتحه بالقرآن وهو يفاتحها بالشعر، بما يدلل على أن الخلق الزينبي قرآني صادق وخلق يزيد من خلق الغاوين من الذين يقولون مالا يفعلون.

ثم تقول عليها السلام: (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى إن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة وإن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلاناً مسروراً حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلاً مهلاً لا تطش جهلاً أنسيت قول الله تعالى: (ولا تحسبن الذين كفروا إنّما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين)[14].

وهنا تبين عليها السلام قانوناً أخلاقياً عاماً هو أن رثاثة الحال ليس مدلولاً على سوء العاقبة عند الله وأن أبهة المنظر وفحفحة الهيئة والمقام ليست دلالة على حب الله سبحانه وتعالى لذلك الشخص بل غالباً ما تكون الأمور في تعاكس مطرد، فقد يضع سبحانه رسالته في أضعف خلقه.

وبعدها تنتقل إلى أشجع فقرة في بيانها إذ تنعت الطاغية بابن الطلقاء، فهي في مقام لا تخاف في الله لومة لائم، ويزيد يملك مشرقها ومغربها دولة مترامية الأطراف، وهي امرأة قد ذهب عنها الناصر وسقط عنها الساند تواجه صولجاناً أموياً وملكاً طاغوتياً عاتياً فتقذفه بما يشينه وبما هي أدرى بأنها الكلمات الحارقة الخارقة لقلبه. وهي تقول:

(أمن العدل يا ابن الطلقاء وتخديرك حرائرك ونساءك وسوقك بنات

رسول الله (صلى الله عليه وآله) سبايا قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد ويستشرفهن أهل المناهل والمعاقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد...)[١٥].

وهنا يتجلى التحدي في البيان والمعاجزة طعون باسلة في قلب الطاغية وهي طعون مصورة صادعة لا يمكن انمحاء آثارها وستبقى خالدة في جبين الإنسانية لاسيما وأنها قد ارتبطت بالعقيدة لتتمخض عنها صور خطابية تتناسب ومستوى تلك العلاقة، وصولاً إلى قول العقيلة عليها السلام:

(فو الله ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا لحمك، ولتردن على رسول الله صلى الله عليه وآله بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته...)[١٦].

يقول الشيخ باقر القرشي: في فحوى هذا المقطع:

(إن الطاغية بسفكه لدماء العترة الطاهرة لم يسفك إلا دمه ولم يفر إلا جلده فإن تلك النفوس الزكية حية وخالدة قد تلفعت بالكرامة وبلغت قمة الشرف وباء هو بالخزي والخسران...)[١٧].

ويمكن على نحو الإجمال بيان أهم مقاصد الخطبتين فنقول: كان حديث الإمامة وحق الإمامة هو ذلك الحق المغتصب الذي حاول أهل البيت عليهم السلام تبيانه في كل مقام ومقال، لذا كانت الصراحة مفعمة بالنقد اللاذع في هذا الباب، لأن الحاكم الآني وهو مغتصب لهذا الحق الذي بينته الخطبة فتريد العقيلة الطاهرة أن تبين للأمة أن حق الإمامة في السلطان الحاضر غير شرعي لأنها من خصوصيات أهل البيت

بالنص الإلهي والمحمدي، ثم إن هاتين الخطبتين ازدانتا بالاقتباسات القرآنية التي هي من نسق أهل البيت الذين حفظوا القرآن واستوعبوه فما أحراهم باسترسال كلام الله في ثنايا خطبهم، مما كان ذلك أدعى إلى تقاربهم البياني والأسلوبي حتى يخيل إليك أن المعاني تتفجر تفجراً من ذلك الفيض الإيماني العتيد.

وخلاصة ما تقدم:

فزينب العقيلة الطاهرة ابنة أبيها حيث البلاغة والصلابة والصبر والرسوخ، وابنة أمها الطاهرة البليغة الحصيفة البارعة، وهي أخت أخيها حيث التضحية والفداء لإعلاء دين الله ونصرته، فقد اجتمعت هذه كلها في لب العقيدة الزينبية فتجلت صرخة مدوية في قلوب الظالمين كشمر وابن زياد وعمرو بن سعد ويزيدهم في الشام.

إن أهم ما يلاحظ على خطبتيها أحداث الساعة وهي أميل إلى التهديد والوعيد من التوعية والإرشاد كما في خطب أمها الزهراء عليها السلام وذلك بسبب الظروف التي عاشتها والمصائب التي حلت بها، فزينبٌ عليها السلام ترى ما تقول رأي عيان فهي ترى عاقبة يزيد وزمرته السيئة وهو يستهزئ بكلامها لأنه قد أبطرته هيبة الملك وصولجان الحكم واستضعاره لكل ما عداه.

إذن الجانب التهديدي يغلب لاسيما وأنها مهددة وجميع أفراد عائلتها بالسيف الأموي فهي تخطب ولكن في حقيقة الأمر أسيرة ذلك السيف الغاشم وسبية الظلم السفياني وما تزال تحت سيطرتهم وطغيانهم، وبذلك اكتسبت خطبتها شواخص الشجاعة وأفانين البلاغة في قولة الحق بوجه الطغاة فالخطبة مقولة في عرش يزيد أي أن المظلوم يصرخ وهو في عرين الجاني غير هياب ولا خائف من عتو ذلك الطاغي؛ لأنها متيقنة كل التيقن أن الله يدافع عن الذين آمنوا والذين هم مهتدون... والحمد لله أولاً وآخراً ■

---

(١) التصوير البياني (أبو موسى) ص٢١٢.
(٢) ينظر: فن الخطابة وتطوره عند العرب، حاوي ص١٥.
(٣) زينب والظالمون، ص٧٢.
(٤) مقدمة الشريف الرضي لنهج البلاغة ص١٣.
(٥) زينب والظالمون ص٧٧ (النصوص محققة ومشروحة)
(٦) نهج البلاغة تقديم وشرح محمد عبده من الخطبة ٩٦ ـ مطبعة مؤسسة المختار ٢٠٠٦م.
(٧) زينب والظالمون، ص٨٦، وحياة الإمام الحسين ٣٣٥/٣.
(٨) زينب والظالمون ص٩١.
(٩) زينب والظالمون ص٩٣.
(١٠) أسرار البلاغة ـ تحقيق محمود محمد شاكر، ص١١٥.
(١١) فن الخطابة وتطوره عند العرب، حاوي ص٢١.
(١٢) السيدة زينب بطلة التاريخ ورائدة الجهاد في الإسلام ص٢٧٨.
(١٣) سورة الروم الآية ١٠.
(١٤) سورة آل عمران الآية ١٧٨.
(١٥) السيدة زينب بطلة التاريخ ورائدة الجهاد في الإسلام ص ٢٧٨.
(١٦) أعلام النساء ٥٠٤/٢ وبلاغات النساء ص٢١.
(١٧) السيدة زينب بطلة التاريخ ورائدة الجهاد في الإسلام: ص٢٨٢.

في ذكرى المائتين لرحيله

قراءة في سيرة الشيخ كاشف الغطاء
ودوره في الدفاع عن النجف الأشرف

حيدر المالكي •

تنابيع

على مدى الفترة الزمنية الشاسعة الممتدة بين بداية عصر الغيبة الكبرى، عصر انتظار المصلح الأعظم الذي ترتجي العباد ظهوره - وحتى يومنا هذا، ظلت المرجعية الدينية حصناً منيعاً يلتجأ إليه الناس خصوصاً عند اشتداد الأزمات حيث تظهر الحاجة الفعلية لصوت العقل الراجح والكلمة الراشدة والتي تنعكس على الدور الحقيقي للمرجعية، الذي لا يقوم به سواها من حيث الإرشاد والإعداد الفكري والتعبئة الشاملة والدعم المادي والمعنوي حسب متطلبات المرحلة الآنية باختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وبناء على ذلك فقد ظهر على امتداد هذه الفترة قادة من الطراز الأول، استوعبت حياتهم جميع آمال الأمة وآلامها فكانت دراسة سيرتهم الطاهرة تعني دراسة لواقع الأمة المتزامن مع تواجدهم.

ومن بينهم ظهر الشيخ الأكبر جعفر كاشف الغطاء قدس سره، فقيهاً متضلعاً ومتكلماً بارعاً وأديباً واعياً وقيادياً

مرقد الشيخ كاشف الغطاء الواقع في محلة العمارة في النجف الأشرف.. صورة من الداخل

محنكاً، كل هذه المواهب التي حباه الله بها أهلته كي يمارس دوره القيادي ليس على مستوى إدارة العملية التدريسية في حوزة النجف العلمية بل راح يمارس نفس الدور على مستويات الانتصار للإسلام من المشككين، والمناظرة مع النواصب والمبغضين إضافة للدفاع عن دوحة العلم والعلماء النجف الأشرف ضد الوهابيين فكرياً وحربياً.

واليوم تمر علينا الذكرى المائتين لرحيله قدس سره، والتي لابد من اتخاذها مناسبة يحتفى بها، فكاشف الغطاء ليس شخصية عابرة، ولا اسم في قواميس الرجال ومعاجم التراجم بل هو فكر متجدد ومعين لا ينضب حوى من الصفات الحميدة ما جعلته ـ الشيخ الأكبر على الإطلاق ـ في خضم بحرٍ من الرجال الذين لديهم ما لديهم من الانجازات الفكرية العملاقة.

لقد كان قدس سره علماً عالياً بين الأعلام وجعفراً طافح الضفاف، نمير الزلال، خرجت مدرسته عشرات الفقهاء الذين اثروا الحركة العلمية بنتاجهم الثر، فضلاً عن أولاده الذين لم يكتفوا بأخذ العلم عن جدهم الأكبر بل حازوا لقبه ونسبوا إلى كتابه الخالد (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء).

أولاً: سيرة الشيخ كاشف الغطاء.

انحدر الشيخ جعفر من أسرة عربية معروفة، تتصل في كاهل ذروتها بمالك الأشتر صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فهو ابن الشيخ

خضر بن الشيخ يحيى بن مطر بن سيف الدين المالكي بن هديب بن حرمد بن علي بن صقر بن ورام بن أبي فراس بن عبس بن أبي النجم بن ورام بن حمدان بن خولان بن إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي[1].

كان أبوه الشيخ خضر من العلماء الزاهدين، انتقل من قرية جناجة (قاعدة بني مالك في العراق، تقع بين كربلاء والحلة بالقرب من قضاء الهندية) إلى النجف وعنه يقول الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: (على أن أباه - أي الشيخ يحيى - كان في بلدهم بدر فلكها، وواسطة القلادة في سلكها وصدر المجلس من ملكها، تحل في حرم بيته نجائب الرجاء حملها وتضع في رحب فنائه مطلقات الآمال حملها، فقذف الله نور المعرفة بقلبه، حتى تغرب عن قشيب ربعه وشعبه، وعاف العز والشرف، وألقى عصا التسيار في بعض زوايا النجف، واشتغل في تحصيل العلوم اشتغال من أنهكته علّة التقى، وأهلكته الرغبة في الفناء والزهادة في البقاء)[2].

وفي النجف ولد الشيخ جعفر كاشف الغطاء سنة ١١٥٤هـ /١٧٣٥م أو ١١٥٦هـ[3] وكان رابع أخوته الشيخ حسين، والشيخ محسن، والشيخ محمد، اخذوا عن أبيهم العلم والتقوى والزهد، إلا أن جعفراً كان بينهم كالقمر بين النجوم، توسم فيه أبوه النبوغ والذكاء منذ نعومة أظفاره فكان الولد عند حسن ظن الوالد وهكذا تدرج في الدرس والبحث حتى قيض الله له مكاناً جديداً حط فيه رحله، ففي كربلاء حيث الملاذ الاعظم لقبة سيد الشهداء عليه السلام واصل درسه هناك بصحبة السيد محمد مهدي بحر العلوم (ت١٢١٢هـ) عند أستاذ الكل الشيخ محمد باقر بن أكمل الملقب بـ(الوحيد البهبهاني) الذي دافع أشد الدفاع عن الطائفة المحقة ضد المد الإخباري الذي تزايد وانتشر حينها، وعن أساتذته يذكر السيد الخوانساري (كان غالب تلمذته على الشيخ محمد مهدي الفتوني العاملي الفقيه العلم، وعلى السيد صادق الفحام، والشيخ محمد تقي الدورقي من فقهاء النجف على مشرفها السلام ثم على شيخ مشايخنا المروج الأغا محمد باقر في ارض الحائر الطاهر، وله الرواية أيضاً عنهم، كذا عن بحر العلوم سيدنا المهدي صاحب الدرة)[4].

من النص نستنتج أن الشيخ الأكبر كان زميلاً للسيد بحر العلوم في حضور درس الوحيد البهبهاني وفي نفس الوقت تتلمذ على يديه فهو تلميذه وزميله في آن واحد.

إلا أن كتب التاريخ لم تذكر لنا متى كان التحاق الشيخ الأكبر بحوزة كربلاء العلمية ولماذا اختار بحث الشيخ الوحيد البهبهاني بالذات والظاهر هناك احتمالان والله العالم، أما كون الحوزة العلمية النجفية في العهد الذي سبق ظهور الشيخ الأكبر قد شهدت فتوراً نسبياً في حين كانت حوزة كربلاء المقدسة في قمة أوجها العلمي والفكري، أو أن الشيخ توارد إلى مسامعه أخبار حلقة الشيخ البهبهاني الدراسية وما فيها من طروحات

علمية عالية جديرة بالحضور فقرر الشيخ الأكبر الالتحاق بها خصوصاً وقد تزامن هذا الالتحاق مع الصراع الفكري بين الأصوليين والإخباريين وكان أستاذ الحلقة القيادي الأول في جبهة الدفاع عن الأصوليين وتفنيد دعاوى الإخباريين.

وهكذا سار الشيخ جعفر في نهجه العلمي يتابع المرحلة تلو الأخرى وكأنه قدس سره آلى على نفسه أن لا يفوت فترة من الوقت إلا ويغتنمها في تحصيل علم أو عبادة أو صلة رحم (وكانت مدينة النجف الأشرف في عهد الشيخ جعفر الكبير، مركز المرجعية العليا وقد احتضنت عدداً كبيراً من الفقهاء، فقد تولى التدريس الإمام السيد بحر العلوم، وأمر الفتوى الإمام الشيخ جعفر الكبير، وأمر الصلاة العلامة الكبير الشيخ حسين نجف، إذ أنه لم يكن سواه أماماً في مدينة النجف، وكانت العلماء تقتدي به حتى السيد بحر العلوم، والشيخ جعفر الكبير، فيصليان خلفه في اغلب الأوقات)[٥].

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مقدار التفاهم الكبير بين أساطين العلم والفقه حيث وزعت الأدوار بينهم بطريقة تنبئ عن المستوى الخلقي الرفيع الذي وصلوا إليه (قدس الله أسرارهم).

بعد وفاة السيد محمد مهدي بحر العلوم استقل الشيخ جعفر الأكبر بالمرجعية ونهض بأعباء القيادة (ومنذ هذا التاريخ انتهى إلى الشيخ جعفر أمر الفقاهة في الدين، ورئاسة سلسلة

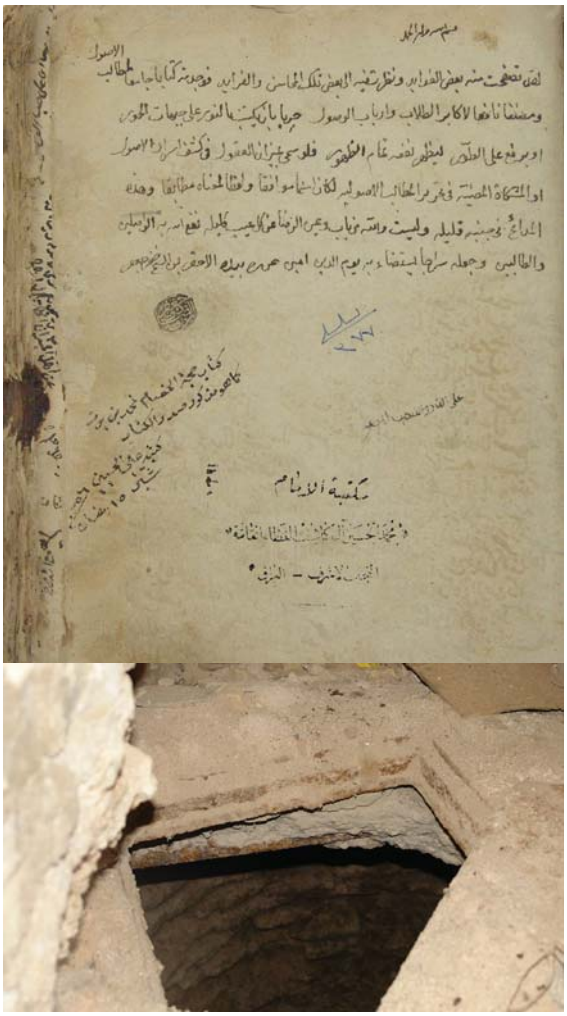

في الأعلى: نموذج من خط الشيخ كاشف الغطاء وختمه
في الأسفل: البئر الذي حفره الشيخ المعروف ببئر الوهابي

العلماء والمجتهدين) قدس سره.

وعندما وصل الشيخ جعفر إلى ما وصل إليه عبر عن التطور الذي شهدته حياته الطاهرة بقوله (كنت جعيفراً، ثم صرت جعفراً، ثم الشيخ جعفر، ثم شيخ العراق، ثم شيخ مشايخ المسلمين على الإطلاق)[٧].

وقد أشار التنكابني في قصص العلماء إلى علم الشيخ قائلاً (ومجملاً إن الشيخ جعفر النجفي في (التفريع) و (الفقاهة) وتطبيق فهم ألفاظ الكتاب والسنة على طريقة الفهم العربي المستقيم كان بلا نظير وهو من الأئمة ما بين فقهائنا كما يستنبط من كتبهم، وانه إلى الآن لم يأت فقيه (مثله) ومثل الشيخ أو الشهيد الأول)[٨].

لقد اعتبر جملة من الباحثين الشيخ جعفر الأكبر من المجددين في الحوزة العلمية حيث قال (وقد قام الشيخ كاشف الغطاء بمحاربة الجمود الفكري الفقهي علماً وعملاً، وقضى بجهوده الجبارة على الدعوة للبقاء على تقليد الأموات ونقل الدراسة الدينية (من الحلة) إلى النجف، واستدعى العلماء في العلوم الإسلامية، حتى الطب والفلك والحساب)[٩] وعن صفاته الأخرى ينقل الشيخ جعفر محبوبه (كان قدس سره شديد التواضع والخفض واللين وفاقد التجبر والتكبر على المؤمنين مع ما فيه من الصولة والوقار والهيبة والاقتدار فلم يكن يمتاز في ظاهر هيئة عن واحد من الأعراب... كان كثير المناجات في الأسحار مواظباً على السنن والآداب ومن المجتهدين في العبادات يأكل الجشب ويلبس الخشن) ثم يضيف: (..يقف الكاتب أمام هيبته خاضعاً خاشعاً ويتلعثم المفوه اللسن فيعود تمتاماً واجماً تجاه ما يذكر له من غرر الخصال وسامي الخلال فيرجع عن نعته خاسئاً حاسراً)[١٠].

وأما عن تلامذته فقد عدّ الدكتور حسن الحكيم للشيخ أربعاً وعشرين تلميذاً[١١]، أصبحوا فيما بعد من وجوه العلماء والفقهاء أما تأليفاته فقد تنوعت بين الفقه والأصول والفلسفة وعلم الكلام وقد بلغت ستة وعشرين مؤلفاً أهمها كشف الغطاء عن خفيات مبهمات الشريعة الغراء ومنهاج الرشاد لمن أراد السداد واثبات الفرقة الناجية من بين الفرقة الإسلامية وفوز العباد في المبدأ والمعاد.

وبعد عمر ناهز الاثنين والسبعين، الذي كانت جل أيامه تقضى في طاعة الله بين إغاثة ملهوف أو بث علم أو قيام ليل أو صيام نهار التحقت روح الشيخ الأكبر ببارئها حيث (توفي يوم الأربعاء قبل الظهر في أواخر شهر رجب سنة ١٢٢٨هـ[١٢] ودفن في مقبرة أعدها لنفسه وهي قطعة من ساحة كبيرة أوقفها عليه (أمان الله خان السنوي) المتوفى سنة ١٢٤١هـ واجرى صيغة الوقف عليها في اليوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٢٢٨هـ (كما يحكيه صك الوقف) وقد عمر منها مقبرة ومسجداً محاذياً لها، والمدرسة المعروفة بمدرسة المعتمد، أعقب ثمانية أولاد وست بنات أشهر أولاده الأعلام الأربعة وهم الشيخ موسى والشيخ علي والشيخ حسن والشيخ محمد وقد أرخ بعض الشعراء عام وفاته بقوله:

ومذ ذقت طعم الموت قلت مؤرخاً
لعل حيـاتي بعد جعـفر علقم

كما رثاه تلميذه السيد علي الأمين بقصيدة منها:

ولما مضى للخلد جعفر قاضياً
أفاض من العلم الإلهي أبحرا
وموسى هو البحر المحيط بعلمه
فيالك بحراً في العلوم وجعفرا
سقى الله قبراً ضم أعظم جعفرٍ
وأهداه كافوراً ومسكاً وعنبرا

ثانياً: دور الشيخ جعفر في الدفاع عن النجف ضد الوهابيين.

تنوعت الأدوار التي قام فيها الشيخ الأكبر بتنوع الظروف التي مر بها العراق وهو يرزح حينئذ تحت نير الاستعمار العثماني الذي أوصل المجتمع إلى حالة متردية من الفقر والعوز، فكانت البلاد عرضة للهجمات ومطمع للغرباء حيث لا رادع ولا دافع، فكان الأمر يتطلب من الحوزة العلمية المتمثلة بزعيمها الشيخ الأكبر حزماً تجاه المعتدين وتعبئة تجاه أبناء البلد ولم تكن هجمات الوهابيين على المدن المقدسة الحوادث الوحيدة التي شهدتها فترة تولي الشيخ كاشف الغطاء زمام الحل والعقد، بل كانت هناك جملة من الحوادث التي أطفأ الله نائرتها بحنكة وحكمة الشيخ الأكبر، منها ما ذكره الدكتور حسن الحكيم نقلاً عن الشيخ محمد رضا المظفر بقوله: (إن الشيخ الكبير قد سافر إلى إيران بقصد إطلاق سراح أسرى جيوش الحكومة العثمانية بعد موقعة حربية عام ١٢٢١هـ، توغلت فيها إلى حدود إيران ففشل الجيش العثماني وأسر أكثره، فاستطاع الشيخ جعفر أن يقنع شاه إيران فتح علي وابنه ميرزا محمد علي بالعفو عن الأسرى وإرجاعهم إلى حكومتهم بعد أن فشلت كل الوسائط التي استعملتها الحكومة العثمانية)[١٣].

من النص السابق يمكن معرفة المنزلة العالية والمكانة التي حصل عليها الشيخ الأكبر عند الشاه حتى استطاع أن يتدخل قدس سره ويعيد للدولة العثمانية رجالها الذين لم تستطع إرجاعهم بسياستها. ونحن إذ نذكر الدور الدفاعي للشيخ الأكبر فلابد لنا من معرفة المهاجم الخصم الذي يقف على أسوار النجف في كل غزوة من غزواته ثم يعود أدراجه يجر أذيال الخيبة والخذلان.

ولد محمد بن عبد الوهاب ـ مؤسس الوهابية ـ في منطقة العينية في نجد نحو عام ١٧٠٢ أو ١٧٠٣[١٤] ميلادية أو عام (١١١١هـ/١٦٩٩م)[١٥] نشأ وترعرع في بيت والده الذي كان قاضياً للمدينة، (وكان أبوه وأخوه ومشايخه يتفرسون فيه انه سيكون منه زيغ وضلال لما يشاهدون من أقواله وأفعاله ونزعاته في كثير من المسائل وكانوا يوبخونه ويحذرون الناس منه فحقق الله فراستهم فيه لما ابتدع ما ابتدعه من الزيغ والضلال الذي أغوى به الجاهلين، وخالف فيه أئمة الدين وتوصل بذلك إلى تكفير المؤمنين).

كان ابتداء ظهور أمره سنة ١١٤٣هـ، وابتداء انتشاره من بعد ١١٥٠، وألف العلماء رسائل كثيرة للرد عليه حتى أخوه سليمان ـ الذي عارض دعوته

وكتب رداً عليه بعنوان (الرد على من كفر المسلمين بسبب النذر لغير الله) و (الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية) - وكان ممن قام بنصرته ونشر دعوته أمراء المشرق محمد بن سعود أمير (الدرعية) (١١٧٨هـ/١٧٦٥م) ولما مات قام بها ولده عبد العزيز (١٢١٨هـ/١٨٠٣م) ثم ولده سعود بن عبد العزيز(١٢٢٨هـ/١٨١٤م)[١٦].

وقد عاصر شيخنا الأكبر ظهور الدعوة الوهابية، بل راح بعض المؤرخين إلى ابعد من ذلك حين ذكروا (وقد حضر محمد بن عبد الوهاب بحث الشيخ جعفر الكبير، وكانت معه مكاتبات ومطارحات)[١٧]، ولم يؤيد الدكتور حسن الحكيم ذلك فيقول: (ولكني لم أجد في المصادر التي ترجمت للشيخ جعفر أو للشيخ عبد الوهاب إلى دراسة الأخير في مدينة النجف الأشرف، ولا يبعد أن يكون بين الاثنين مكاتبات أو مطارحات، لأن بين الاثنين مفارقات في العقيدة والفكر، فكان الشيخ جعفر الكبير مجتهداً مجدداً وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب سلفياً محافظاً)[١٨].

أما الباحث رسول محمد رسول فيقول: (تتميز تجربة الشيخ جعفر كاشف الغطاء مع الوهابية بأكثر من خصوصية فلو سلمنا بوجود علاقة بين الشيخين، الغطاء والوهابي وهذا مؤكد عندما كان الأخير مقيماً في بغداد أو في الموصل أو في العينية أو الدرعية، فذلك يعني أن الشيخ الغطاء كان يعلم يقيناً مقت الوهابية للروافض (الشيعة)، مقتهم لسلوكات ومقدسات الشيعة في العراق، فضلاً عن سلوكات الصوفية وأهل الطرائق واغلبهم من أهل السنة بالعراق وإذ سلمنا بان للشيخ جعفر تأثيراً محايثاً في قناعات الشيخ الوهابي بعدم التعرض للمقدسات الشيعية في العراق، طالما كان الأخير على ذمة الحياة، فأن ذلك لم يحد من غلو الوهابية في عدائها المبدئي للشيعة وعملها على إرجاء النيل منهم بعمليات غزو سافرة تحرق الدنيا على رؤوسهم في أعقار ديارهم بالعراق، وهذا ما كان الشيخ جعفر يدركه جيداً، بل وهو ما حدث بالفعل لاحقاً، لذلك آثر التهدئة مع الشيخ الوهابي حتى رحيل الأخير نحو عام ١٧٩٢م عسى أن تتغير النوايا، لكن أنجال الشيخ الوهابي وتلاميذه من أهل السيف، وأولهم الأمير عبد العزيز بن سعود، ما كانت تروق لهم سياسة التروي والاحتواء التي كرسها الشيخ كاشف الغطاء قبل رحيل محمد بن عبد الوهاب إلى الدار الآخرة)[٢٠].

وبناء على ما تقدم فأن فكرة غزو العتبات المقدسة لدى الوهابيين كانت لا تغادر عقولهم لان فيها ثلاث أهداف، قتل الرافضة وهدم قبور أئمتهم (إكمالاً لما بدؤا فيه من تهديم قبور البقيع وغيرها في الحجاز)، ثم تحقيق ما يصبو إليه البدوي من نهب وسلب والذي جبلت عليه النفوس من السلف إلى الخلف وقد حصلوا على ذلك في حادثة غزوهم كربلاء المقدسة حيث سالت الدماء أي مسيل عند قبر الإمام الحسين وانتهبت الخزانة الحسينية وحل دمار في الحائر ما حدث مثله من قبل.

قبة مرقد الشيخ كاشف الغطاء

لقد رتب الباحث رسول محمد رسول تجربة الشيخ جعفر كاشف الغطاء مع الخطاب الوهابي على ثلاث مراحل، حدد المرحلة الأولى بافتراض وجود مكاتبات ومراسلات بين الشيخ نفسه من جهة ومنظر الفكر الوهابي من جهة أخرى وكانت السمة السائدة في هذه المرحلة سمة تغليب الحوار السلمي والمناظرة الهادئة، أما المرحلة الثانية فهي التي نشأت بعد رحيل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وغي الفترة التي شهدت مراسلات بين الشيخ جعفر والأمير عبد العزيز بن سعود تمخض عنها رسالة مطولة بعنوان (منهج الرشاد لمن أراد السداد) كشف فيها الشيخ كاشف الغطاء عن عقائد الشيعة عموماً عن سؤال الأمير عبد العزيز عما يخص زيارة العتبات المقدسة.

أما المرحلة الثالثة فهي التي نزل فيها الشيخ جعفر إلى ميدان المواجهة ضد غزوات الوهابيين التي توالت على مدن الشيعة المقدسة منذ مطلع القرن التاسع عشر حيث غزا الأمير عبد العزيز وأنجاله كربلاء أولاً والنجف الأشرف ثانياً وفي تلك المرحلة (بدأ الشيخ كاشف الغطاء فقهياً محارباً يذب عن الدين والمجتمع معاً بعد أن لم يجد الحوار نفعاً مع من مزج العقيدة بالسيف)[٢٠].

لقد شهدت الفترة الواقعة بين عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م-١٢٢١هـ/١٨٠٦م خمس غارات شنها الوهابيون على مدينة النجف وكان باستطاعتهم في كل مرة الانتصار لما كانوا يتمتعون به من تجهيزات عسكرية مقارنة بتدني الوضع الدفاعي للنجف مع غياب كامل

لدور الحكومة العثمانية التي كان من المفترض أن تقوم بدور المدافع عن أهل النجف الذين هم من رعاياها، ولكن بركة الإمام الهمام أبي الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام والمرجعية العليا المتمثلة بالشيخ جعفر قدس سره كان لهما الدور الأعظم في شحذ الهمم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله).

وقد أورد الأستاذ محمد كاظم الطريحي بحثاً مطولاً عن الغزو الوهابي وبداياته ونقل عن كتاب غرائب الأثر ما نصه (في سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م) أرسل الوهابي سرية إلى العراق لنهب مشهد الإمام علي عليه السلام، وهدم قبته واخذ ما فيها من الأموال فالتقى بها أعراب البصرة، وقاتلوها وكسروها اشد كسرة، وقتل من عرب الوهابي جماعة واخذ منهم ستمائة جمل وقيل: ألف وستمائة جمل[٢١].

كانت أول حادثة غزو للوهابيين ليلة الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٢١٦هـ وهي سنة هجومهم على كربلاء وقتلهم أهلها، فتوجهوا بعدها إلى النجف ونزلوها وقد باءت

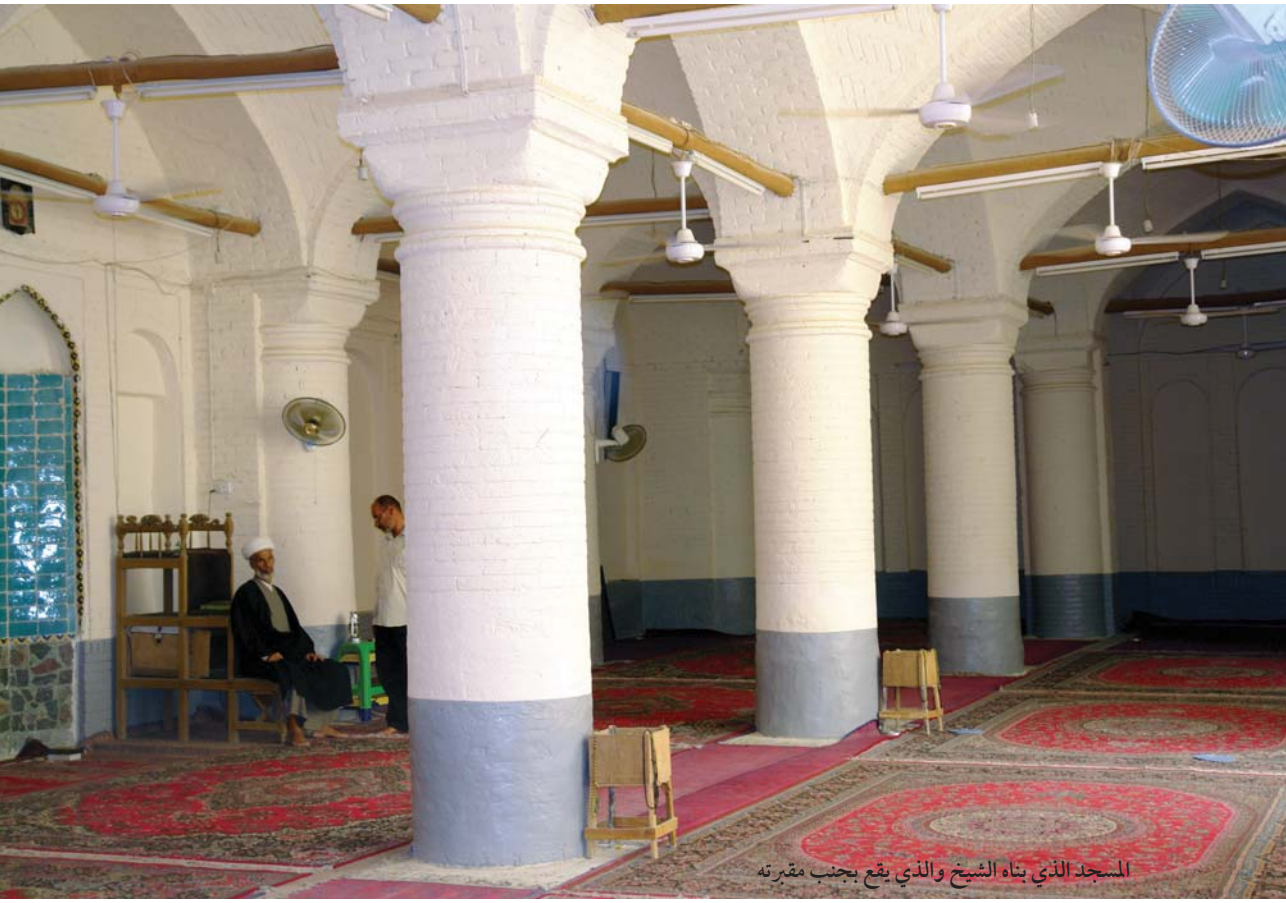

المسجد الذي بناه الشيخ والذي يقع بجنب مقبرته

بالفشل، أما الحادثة الثانية فكانت سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م حيث أغار عبد العزيز الوهابي على الحرمين النجف وكربلاء وجاء لإطراف العراق في عيد الغدير في آخر تلك السنة وقتل جماعة من العلماء والمجاورين وامتنعت عليه النجف ثم عاد الوهابيون في غزوة ثالثة عام ١٢١٨هـ/١٨٠٣م[٢٢]، حيث دافع النجفيون دفاعاً عنيفاً، وقد أوشك الوهابيون أن ينجحوا بغاراتهم المفاجئة للنجف غير أن النجفيين تصدوا لهم من السور وكسروهم، ولم تستطع القوة الغازية من اقتحام المدينة أما الغارة الرابعة فقد وقعت سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٦م حيث سار سعود بجيوشه ونازل النجف، وفرق جيشه عليه من كل جهة وأمرهم أن يتسوروا الجدار على أهله، فلما قربوا منه فإذا دونه خندق عريض عميق فلم يقدروا على الوصول وجرى بينه وبين النجفيين مناوشة وقتال ورمي جيشه من السور فقتل منه عدة قتلى فرجعوا عن النجف[٢٣].

وأخيراً كانت الحملة الوهابية الشرسة ففي سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م بلغ أهالي النجف توجه الوهابيين إليهم، وإنهم قاصدون مهاجمة المدينة المقدسة، فأول ما فعلوه ـ النجفيون ـ أنهم نقلوا خزانة أمير المؤمنين إلى بغداد خوفاً عليها من النهب كما نهبت خزانة الحرم النبوي وبعدها أخذوا الاستعداد لهم[٢٤].

وقبيل هذه الغارات الخمس برز الشيخ جعفر كاشف الغطاء، فقد (أدرك رحمه الله أن فاعلية الكتاب الذي أرسله إلى أمير الوهابيين (منهج الرشاد لمن أراد السداد) في إعادة صوغ الأسس من جديد لدى الوهابيين لم تجد نفعاً بعد السنوات القليلة التي مرت، وعلى نحو استشرافي، أدرك الشيخ أن النجف الأشرف هي المدينة المقدسة التالية ـ بعد كربلاء ـ في خطط الغزو الوهابية فاستعد لهذا الاحتمال، وأيقن بأن أمر الجهاد قد حان بعد أن قدم الوهابيون، غريزة العنف والغزو والنهب وانتهاك المقدسات على العقل والحوار والتقارب المذهبي، فراح يشرع لحماية مدينة النجف الأشرف، وهيأ لهذا الغرض مراكز تدريب قتالية خارج المدينة يشرف عليها بنفسه، وعين عدداً من المقاتلين للحراسة، ونظم مجموعات غيرها للتصدي الميداني، وانتدب الصدر الأعظم محمد حسين خان (وزير فتح الله علي شاه) لبناء سور محصن للمدينة، وفعلاً بدأ العمل سنة ١٨٠٣م، واستمر العمل به لسنوات، وأصبحت النجف الأشرف بسببه مدينة محصنة يصعب اقتحامها حيث تضمن البناء خندقاً عميقاً وأبراجاً ومراصد ومخافر وجعلت في طبقاته منافذ لوضع المدافع، لقد أخذ الشيخ يستعد بتهيئة السلاح، وجمع الدروع، وجلب (التفك) إلى النجف الأشرف، فما كانت إلا أيام حتى أتى الوهابيون مجندين، ونزلوا المدينة ليلاً من دون جدوى فأمسوا تلك الليلة على أن يفتحوا النجف الأشرف في الصباح التالي قتلاً ونهباً)[٢٥] وعن الاستعدادات الأخرى التي قام بها الشيخ جعفر لدرء العدوان الوهابي القادم يصورها لنا ذلك حفيده الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء

(كان الشيخ جعفر قد غلق أبواب المدينة، وجعل خلفها أحجاراً، لأنها كانت محفرة وعين لكل واحدة عدة من المقاتلين المسلحين، وأحاط باقي الناس بسور المدينة من داخلها ووظف في كل غرفة جماعة من المؤمنين المسلحين، ولكن كان جميع من في البلد من المقاتلين لا يزيد عددهم على المائتين، لان اغلب أهل النجف الأشرف خرجوا منها، واستجاروا بأعراب العراق لما سمعوا من سيرة الوهابي بالقتل والنهب والسبي، فلم يبق مع الشيخ إلا الصفوة من العلماء المجاهدين كالشيخ حسين نجف والسيد جواد العاملي والشيخ خضر شلال والشيخ مهدي ملا كتاب وغيرهم من الشيبة الاطياب وبعض من عامة الناس)[٢٦].

كما نقل لنا السيد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة ما جرى فقال: (أحاطت الأعراب من عنزة القائلين بمقالة الوهابي الخارجي بالنجف الأشرف، ومشهد الحسين، وقد قطعوا الطريق ونهبوا زوار الحسين بعد منصرفهم من زيارة نصف شعبان، وقتلوا منهم جمعاً غفيراً وأكثر القتلى من العجم، وربما قيل أنهم مائة وخمسون، وقيل اقل وبقي جملة من زوار العرب في الحلة ما قدروا على أن يأتوا النجف الأشرف فبعضهم صام في الحلة وبعضهم مشى إلى الحسكة...)[٢٧].

أما مسألة البقاء في النجف والخروج منها فقد وقع فيها الاختلاف فمن العلماء من رأى الخروج اوجب تقديماً لحفظ النفس فخرجوا ومن اتبعهم والبعض كالشيخ الأكبر والسيد جواد العاملي وباقي العلماء أوجبوا الجهاد لحفظ بيضة الإسلام.

لنقف عند النص الذي أورده الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ثم أن الشيخ وأصحابه وطنوا أنفسهم على الموت لقلتهم، وكثرة عدد عدوهم وكان الشيخ قبل مجيء هذا الخبيث حفر في داره الكبيرة (سرداباً) ينزل في الأرض مقدار أربعين درجاً، وهو من العجائب لأن الشيخ صنعه بهندسته ليخفي فيه أولاده وعياله خوفاً من السبي فجعله بحيث لا يهتدي إليه أحد إلا من علم بكيفية طريقه، وسلك فيه مراراً، وهو موجود إلى الآن، ويعرف بسرداب الوهابي، ثم أن الشيخ أخفى أولاده ونساءه في (السرداب) وجعل معهم من الطعام ما يكفيهم مقدار شهر كامل وودعهم وداع مفارق وقال: إن هذا الملعون سيأتي النجف، فان أظفرنا الله فبها وإلا فسيقتلنا ويدخل النجف فلا يرى شيئاً بها مما يريد من مال أو رجال فسيتركها ويرتحل، وأما انتم فاخرجوا بعد شهر وكاتبوا الأطراف، ومن خرج فليعد، ولا تقصروا في السعي لتعميرها أبداً، ولا تخرجوا منها ولو بقيت خالية إلى غير ذلك من الوصايا.

أما ابن سعود فإنه بات بجنده تلك الليلة خارج البلد، وما جنح الصباح إلا وهم قد انجلوا عن تلك البقعة ولم يبق بها أحد.

ثم توجه إلى كربلاء فقتل أهلها قتلاً ذريعاً حتى فاض الدم من الحرم الحسيني كالميازيب ولم ينج إلا من

لاذ بالحرم العباسي حيث قال الملعون عبد الله (خلوا حرم العباس فإنه ابن اختنا) ودق القهوة على ضريح أبي عبد الله عليه السلام وأحرق قبر حبيب بن مظاهر، إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة...)[٢٨].

من النص أعلاه نستنتج:

أن الشيخ آثر البقاء في النجف رغم احتمال انتصار العدو، فالذي وقع في كربلاء قد يقع في النجف أيضاً وهذا يدل على رباطة جأشه قدس سره.

وأن إعداد الشيخ خطة دفاعية باهرة نمت عن تفكيره الراقي في وضعها واستعداده لملاقاة الأعداء وما سيتمخض عن هذا اللقاء سواء أكان سلباً أو إيجاباً.

أما قول عبد الله (خلوا حرم العباس فإنه ابن اختنا) يذكرنا بقول شمر بن ذي الجوشن عندما جاء ينادي أين العباس وأخوته أين بنو اختنا والظاهر أن القوم هم أبناء القوم.

هذه هي المرجعية وهذه مواقفها، صمام الأمان كما وضعت والحصن المنيع الذائد عمن لجأ إليه، خط متصل كلما خبا نجم أشرق آخر وعندما يخبو يبقى نوره أزلياً وإشعاعه مخلداً لننهي بحثنا بقول الأستاذ إسحاق نقاش الذي يصف موقف شيخنا الأكبر حيث يقول: (أول مجتهد قاد بنفسه جهاداً دفاعياً وقام بدور القائد المجاهد ضد الوهابيين الذين حاصروا النجف يتبع قراره الشرعي بنفسه بإذن المجتهد بوصفه ممثل الإمام الغائب، يستطيع أن يقود الجهاد ضد أعداء الإسلام)[٢٩] ■

---

(١) الدجيلي، الدرة البهية، ١٩/١.
(٢) كاشف الغطاء، العبقات العنبرية، ص٢٣.
(٣) محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ١٣٢/٣.
(٤) الخوانساري، روضات الجنات، ٢٠١/٢.
(٥) الحكيم، المفصل في تاريخ النجف الأشرف، ٨٨/٥.
(٦) الخوانساري، روضات الجنات، ٣٠٦/٢.
(٧) محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ١٣٣/٣.
(٨) كاشف الغطاء، العبقات العنبرية، ص٥٦.
(٩) البهادلي، الحوزة العلمية في النجف، ص١٨.
(١٠) محبوبة،ماضي النجف وحاضرها، ١٣٣/٣.
(١١)المفصل في تاريخ النجف، ٩٤/٥.
(١٢) محبوبة، ماضي النجف وحاضرها، ١٤٠/٣.
(١٣) المفصل في تاريخ النجف، ٩١/٥.
(١٤) رسول، الوهابيون والعراق، ص٢٦.
(١٥) الطريحي، النجف الأشرف مدينة العلم والعمران، ص٢٦٤.
(١٦) كاشف الغطاء، العبقات العنبرية، ص١٠٩.
(١٧) كاشف الغطاء، كتاب ادوار علم الفقه، ص٢٤٢.
(١٨) المفصل في تاريخ النجف، ٨٩/٥.
(١٩) الوهابيون والعراق، ص١١٦.
(٢٠) الوهابيون والعراق، ص١١٦.
(٢١) العمري، ص٥٦.
(٢٢) لونكريك، تاريخ العراق الحديث، ٢٤٧/٣.
(٢٣) الحيدري، عنوان المجد في تاريخ نجد، ١٣٦/١.
(٢٤) الطريحي، النجف الأشرف مدينة العلم والعمران، ٢٦٧.
(٢٥) رسول، الوهابيون والعراق، ص١٢٦.
(٢٦) العبقات العنبرية، ص١١٥.
(٢٧) الطريحي، النجف الأشرف مدينة العلم والعمران، ص٢٦٨.
(٢٨) العبقات العنبرية، ص١١٦.
(٢٩) شيعة العراق، ص١٠٧.

الشيخ أحمد بن فهد الأحسائي من أعلام الحلة الفيحاء

سعد حداد •
باحث ومحقق

ينابيع

الشيخ شهاب الدين أحمد بن فهد بن حسن بن محمد بن إدريس بن فهد المقري (المضري)[١] الإحسائي[٢].

من أهل المئة التاسعة[٣]، معاصر للشيخ أحمد بن محمد بن فهد الاسدي الحلي[٤]. ويقال لكل منهما (ابن فهد).

قال الخوانساري: (وإنْ اتفق توافقهما في العصر والاسم والنسبة إلى فهد، وكذا في روايتهما جميعاً حتى أنه نقل من غريب الاتفاق أنّ بعض أصحابنا قال بعد ذكره لهذا الرجل: انه وابن فهد الأسدي متعاصران، ولكل منهما شرح على إرشاد العلامة، وقد يتحد بعض مشايخهما أيضاً، ومن هذا الوجه كثيراً ما يشتبه الأمر فيهما ولاسيما في شرحيهما على الإرشاد)[٥].

فشرح ابن فهد الحلي يسمى (المقتصر) وشرح ابن فهد الإحسائي يسمى (خلاصة التنقيح في مذهب الحق الصريح). وكل منهما يروي عن الشيخ أحمد بن المتوّج البحراني عن فخر الدين ولد العلامة (الحلي). ومن هذه الجهة قد يشتبه الأمر فيهما ولاسيما في شرحيهما على الإرشاد ولذلك قال بعضهم عن المترجم: إنّه أحمد بن محمد بن فهد اشتباهاً بابن فهد الحلي مع أن المنقول عن خط المترجم أحمد بن فهد)[٦].

ولادته

لم تشر المصادر إلى تاريخ ولادة الشيخ الإحسائي، إلا أنّ المامقاني وعند ترجمته

مرقد الشيخ الأحسائي الواقع في سوق الحطابات

للشيخ ابن فهد الحلي أشار محتملاً أن تكون سنة ٧٥٧ هـ هي سنة ولادة الشيخ الإحسائي[٧].

روايته

أجمعت المصادر التي ترجمت للشيخين من أنهما يرويان عن الشيخ أحمد بن المتوج البحراني غير أن الشيخ الأمين في أعيان الشيعة شكك أن يكون ابن المتوج رجلاً واحداً بل هما رجلان إذ يقول:

(أما بناءً على ما استظهرناه من أنهما رجلان أحدهما: أحمد بن عبد الله بن سعيد بن المتوج، والثاني أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن الحسن بن المتوج. فابن فهد الإحسائي من تلامذة الأول وابن فهد الاسدي الحلي من تلامذة الثاني. وعلى كل حال يقال لكل منهما: إنه تلميذ ابن المتوج)[٨].

وقد عد السيد البروجردي الشيخ ابن فهد الإحسائي في الطبقة الحادية عشرة مع ابن فهد الحلي والسيد حسن بن دقماق الحسني وغيرهما[٩].

وقال في مكان آخر من كتابه ضمن ترجمة ابن فهد الحلي: (وفي طبقته أحمد بن فهد الإحسائي، ويشتبه الأمر على الكثير لاتحادهما في الاسم واشتراكهما في بعض المشايخ وشرح إرشاد العلامة).

ويعقب البروجردي محتملاً أن يكون الشيخ الإحسائي (بناء على ظاهر الترجمة من أحفاد ابن إدريس الحلي وهو جده الأعلى)[١٠].

الراوون عنه

يروي عن الشيخ الإحسائي مجموعة من العلماء والمشايخ منهم:

١- الشيخ رضي الدين حسين الشهير بـ(ابن راشد القطيفي).

٢- الشيخ حسن الشهير بـ(المطوّع) الجرواني الإحسائي.

٣- الشيخ قاضي قضاة الإسلام ناصر

الديـن إبراهيـم الشـهير بـ(ابن نـزار). وهو تلميذ ابن المطوّع الجرواني المتقدم.

٤ـ الشيخ ابن جمهور الإحسائي.

أقوال العلماء فيه

أثنى من ترجم للشيخ ابن فهد الإحسائي على شخصه وعلمه إذ وصف بأوصاف عديدة. فقد نعته الشـيخ البحراني بـ(الشيخ النحرير العلامـة)[١١]. وقال البحراني في كشـكوله واصفـاً إيـاهُ بـ(الفاضل العامل المشـهور من أجلّة علماء الإمامية وفقهائهم)[١٢].

وقال البلادي في وصفه: (العالم العامل المحقق الكامل الأسعد الشيخ)[١٣].

مؤلفاته

١ـ خلاصـة التنقيـح فـي المذهـب الحقّ الصريح:

وهو شرح لكتاب العلامة الحلي (إرشاد الأذهان). ذكره صاحب اللؤلؤة فقال: (وقع بيدي جلد من شـرح الإرشـاد للشـيخ أحمد الإحسـائي من كتاب النـكاح، وفي آخره مكتوب ـ نقلاً من خط الشـارح المذكور ـ ما صورته (... تم الكتاب الموسوم بخلاصة التنقيح في المذهب الحق الصريح في أواخر شهر رمضان في اليوم الثالث والعشرين منه أحد شـهور سـنة ٨٠٦ هجرية على يد مؤلفه العبـد الغريـق فـي المعاصـي، الخائف يوم يؤخذ بالنواصي، أحمد بن فهد بن حسـن بن محمد بن إدريس حامداً ومصلياً على رسـول ربه، ربّ اختم بالخير وأعن)[١٤].

٢ـ الناسخ والمنسوخ:

شـرحه عبـد الجليـل الحسـيني القاري شـارح الجزرية فـي التجويد سـنة ٩٧٢ هـ، وقد شـرح الناسخ والمنسوخ سـنة ٩٧٦ هـ باسـم نصير أحمـد خان[١٥] وهـو مطبوع في إيران سنة ١٣٨٤هـ.

٣ـ عدة الداعي:

يقـول صاحب الأعيـان: (وقد حكي أن لابن فهد الإحسـائي كتاباً في الدعاء سـماه (عدة الداعي) باسم كتاب ابن فهد الحلي. فإنْ صحّ كان من مكملات غريب الاتفاق)[١٦].

وفاته ومرقده

لـم يُشـر أحـد ممـن ترجـم للشـيخ الإحسـائي إلى تاريـخ وفاته غير أنّ الشـيخ محمـد حـرز الديـن أورد في ترجمتـه (هو الشـيخ.... المتوفى في أوائل القرن التاسـع الهجري في الحلة السيفية)[١٧].

وحـدد الشـيخ جعفر السـبحاني سـنة ٨٠٦ هـ تاريخاً لوفاة الشيخ الإحسائي[١٨] مما نعتقد أن الشيخ السـبحاني نقل عبارة الشيخ الطهراني في الذريعة عند حديثه عن كتاب الناسـخ والمنسـوخ خطـأ فأضـاف كلمـة (المتوفى سنة ٨٠٦ هـ) بعد اسم الإحسائي.

أمـا مرقـده فقـد أختلـف فـي تحديد مكانـه، هل هو في الحلة أو في كربلاء ؟ إلا أنّ المتعارف عليه (وما عليه سـيرة علمائنا الأقدميـن والمتأخرين، المعتضدة بالشـهرة والتلقـي من ابن فهد الأسـدي الحلي مرقده بأرض الطف والحائر الحسـيني وأن الاشتباه نشـأ من معاصرة كل منهما للآخر)[١٩]. قال المامقانـي: (ومن غرائـب الاتفاق والافتراق أنّ الحلـي دفن في الحائر، والإحسـائي دفن في الحلـة وقبراهمـا في البلدين مشـهوران معلومان)[٢٠].

ويؤيد ذلك صاحب الأعيان[٢١] وصاحب فقهاء الفيحاء إذ يقول: (وابن فهد الإحسـائي مدفـون بالحلـة فـي المرقد المعـروف الآن بمقام أبو فهد)[٢٢].

غيـر ان الشـيخ يوسـف كركـوش

يذهب إلى تفنيد ما أورده الخوانساري في روضات الجنات[٢٣] من أن قبر ابن فهد الحلي في كربلاء فيقول: (الحقيقة إنّ هذا القبر الذي ذكره صاحب روضات الجنات هو قبر أحمد بن فهد الحلي)[٢٤] دون أن يعطي دليلاً على ذلك وهو يتماشى مع ما ذهب إليه البلادي في كتاب أنوار البدرين[٢٥].

وقد وصف المرقد الشيخ حرز الدين فقال: (مرقده في الحلة معروف مشهور عليه قبة صغيرة الحجم)[٢٦] وعلق محقق الكتاب بالقول (في محلة الطاق بشارع الكوازين والى جنب قبره جامع جديد العمارة.. ويقع القبر ركن ملتقى ثلاثة أزقة، وهو عبارة عن غرفة كبيرة عليها قبة صغيرة طُليت بالصبغ الأخضر)[٢٧].

إنّ الوصف المتقدم ليس ببعيد عما هو عليه المرقد اليوم إلا أن القبة قد أزيلت قبل أعوام عند إعادة ترميمه كما أزيل المسجد المجاور ثم أعيد بناؤه قبل عامين تقريباً بحلة جديدة. وتعرف المنطقة التي فيها المرقد باسم (سوق الحطابات)؛ ويقع المرقد في الجهة اليمنى للداخل إليه في غرفة مستطيلة مساحتها تقرب من ثلاثين متراً مربعاً، وقد وضع فوق المرقد صندوق بسيط الصنع من الخشب والحديد المشبك. واتخذت الجهة المحيطة بالمرقد مكاناً للصلاة. بعد أنْ إمتدّتْ يدُ الخيرين من أبناء الحلة لتعميره وتجديده. ويقوم اليوم على خدمة المسجد والمرقد والزائرين أهالي المنطقة وأصحاب المحال فيها ■

---

(١) أمل الآمل، ٢١/٢.
(٢) الأحسائي: بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة ثم فتح السين غير المعجمة ثم الألف ثم الياء نسبة الى الاحساء وهي مدينة في البحرين سابقاً، واليوم في السعودية.
(٣) الكنى والألقاب، ٣٨١/١.
(٤) هو جمال الدين ابو العباس أحمد بن شمس الدين محمد بن فهد الاسدي الحلي، فقيه مجتهد وعالم عامل زاهد عابد صالح ورع تقي ، صاحب المقامات العالية. اذ اشتهر عنه ظهور الكرامات على يديه. ولد في الحلة سنة ٧٥٦ هـ وترعرع في أحضان العلم والدين وتتلمذ على الشيخ علي بن الخازن، أسس في كربلاء مدرسة علمية دينية عرفت فيما بعد بمدرسة (ابن فهد الحلي). وهو مصنف وتصانيفه تنيف على العشرين مصنفاً منها (المهذب البارع) و (شرح المهذب) و (عدة الداعي) وغيرها. وتتلمذ عليه عدد كبير من الأعلام أمثال الشيخ عبد السميع بن فياض والشيخ محمد بن فلاح المشعشعي وابن راشد القطيفي وغيرهم. توفي ودفن في كربلاء سنة ٨٤١ هـ وقبره معروف مشهور فيها. ترجمته في، أعيان الشيعة ٢٣٨/٩ و ٨٦/١٠؛ أمل الآمل ٢١/٢؛ لؤلؤة البحرين ص١٥٦؛ الكنى والألقاب ٣٨٠/١؛ الأعلام ٢٢٧/١.
(٥) روضات الجنات، ٧٥/١.
(٦) أعيان الشيعة، ٦٦/٣.
(٧) تنقيح المقال، ٩٣/١.
(٨) أعيان الشيعة، ٦٦/٣.
(٩)، (١٠) طرائف المقال، ٩٤/١، ٤٢٤/٢.
(١١) لؤلؤة البحرين، ص١٧٧.
(١٢) كشكول البحراني، ٣٠٣/١ ونقلها عنه صاحب رياض العلماء، ٥٥/١.
(١٣) أنوار البدرين، ص٣٩٦.
(١٤) لؤلؤة البحرين ص١٧٧.
(١٥) الذريعة، ١٠/٢٤.
(١٦) أعيان الشيعة، ٦٧/٣.
(١٧) مراقد المعارف، ٧٩/١.
(١٨) مفاهيم القرآن (العدل والإمامة)، ص٣٦٧.
(١٩) مراقد المعارف، ٨٠/١.
(٢٠) تنقيح المقال، ٩٣/١.
(٢١)أعيان الشيعة، ٦٦/٣.
(٢٢) فقهاء الفيحاء، ص٣٠٠.
(٢٣) روضات الجنات، ٧٤/١.
(٢٤) تاريخ الحلة، ٩٥/٢.
(٢٥) أنوار البدرين، ص٣٩٨.
(٢٦) مراقد المعارف، ٧٩/١.
(٢٧) هامش المراقد، ٧٩/١-٨٠.

الشيخ أسد حيدر
رائد التجديد الفكري

د. حيدر نزار السيد سلمان •
الكلية الإسلامية الجامعة

ينابيع

قدمت مدينة سوق الشيوخ وهي الواقعة على بعد (٣٠) كيلومتراً جنوب مدينة الناصرية عدداً كبيراً من الشخصيات العلمية والأدبية والثقافية على طول تاريخها واشتهرت هذه المدينة العريقة بعشائرها وأسرها بحب أبنائها للعلم والمعرفة وانتشار عدد من المكتبات والمنتديات الثقافية فيها وهذا ما ساعد على تكوين بيئة ثقافية علمية تمجد المعارف والعلوم وتشجع مكانها على ذلك مع ارتباطها الروحي القوي مع مدينة النجف الأشرف قلب المرجعية الدينية العليا وعاصمة التشيع في العالم وما

شكلته هذه العلاقة الصميمة بين النجف وسوق الشيوخ من عامل تنمية وتطوير للمعارف الدينية في سوق الشيوخ.

ووسط هذه البيئة العاشقة للعلم والتي تنتشر في أجوائها عبقات الولاء لآل البيت عليهم السلام والتواصل المستمر مع مدينة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ولد الباحث والمؤرخ والشاعر الشيخ أسد محمد عيسى محمد علي آل حيدر في النجف عام (١٣٢٧هـ) في عائلة علمية دينية معروفة على مستوى العراق، فأسرته أسرة عربية معروفة بعروبتها مشهورة بفخرها تقطن كما ذكرنا سوق الشيوخ، ولهذه الأسرة على المدينة فضل كبير، فقد هذبت أخلاق أهلها وشحذت قرائحهم، وقامت بتربيتهم تربية حسنة حتى أصبح البلد بفضلهم من البلدان المرموقة التي يتشوق إليها الرائح والغادي، وآل حيدر بقية بني (وثال) زعماء آل أجود حلفاء المنتفك سابقاً، ولهم آثار كثيرة مندرسة[1].

كما قدمت أسرته من شخصيات كان لها حضورها المؤثر على الساحة الثقافية.

وكان من الشخصيات المنحدرة من هذه العائلة الشيخ محمد علي آل حيدر، فقد كان معاصراً للعلامتين السيد بحر العلوم والشيخ كاشف الغطاء، ويعد أول من هاجر إلى النجف من الأسرة لطلب العلم، كما ظهر في الأسرة رجال متميزون بعطائهم منهم الشيخ محمد حسن آل حيدر، وهو عالم دين معروف والشاعر المشهور جميل آل حيدر وآخرون ثبتوا اسم هذه الأسرة[2].

منذ بداياته توجه الشيخ أسد حيدر إلى الكتاتيب الموجودة في مدينته حيث تعلم فيها القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى وكان سريعاً في تعلمه الذي مهد له الطريق للشغف بالقراءة والمطالعة والاستزادة من التعلم مستفيداً من المكتبة التي كانت تملكها أسرته وكان محباً للشعر وحفظه وبالتالي إبداعه وقد عرف بشعره الرقيق وقدرته على الإبداع فيه ومع كل هذا التوجه نحو المعارف والعلوم ظلت خواطر الشيخ حيدر وروحه تهفو إلى مدينة النجف الأشرف وفيها العلماء الكبار والمدارس المهمة وحلقات الدرس والمجالس والمنتديات الأدبية، فهاجر إلى النجف الأشرف حيث التحق بمدارسها الدينية فدرس مقدمات العلوم حتى أتمها ثم انتقل إلى حلقات العلم المتصلة بالأبحاث العالية على السيد محمد البغدادي والشيخ محمد رضا آل ياسين والسيد أبي القاسم الخوئي، كما انتهل من غيرهم (قدس الله أسرارهم). وكان لهذا الحضور المتميز للشيخ دوراً مهماً وفعالاً في تقوية نشاطه الأدبي وصقل مواهبه وزيادة سعة إطلاعه وثقافته.. وأقام فيها حيث لقب بالنجفي حباً واعتزازاً.

وفي مدينة النجف الأشرف راحت قدراته الفكرية والبحثية تظهر بشكل سريع مع ما كان للشيخ من قراءات واسعة ومتعمقة في التاريخ والتراث والفقه والعلوم الأخرى حتى أصبح من المشهود لهم بالإمكانات العلمية والأدبية وهذا ما يمكن أن نراه في مجموعة كتبه التي ألفها وركز فيها على جانب الدفاع عن مذهب آل البيت عليهم السلام ورفع الشبهات التي يثيرها المشككون والحاقدون.

ألف الشيخ عدة كتب لعل أهمها (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) في أربعة مجلدات والذي صدرت طبعته الأولى عام

(١٩٦٥م) وكذلك كان كتابه (مع الحسين في نهضته) و(الشيعة في قفص الاتهام)[٣].

امتاز حيدر بأسلوبه الجزل والرائع وطريقته الكتابية المحببة لنفوس القراء وكان بعيداً في أسلوبه عن التكلف باللفظ والتلاعب بالكلمات مستخدماً الوضوح اللغوي وعدم الإبهام والغموض طريقاً في كتاباته وهذا ما جعل أسلوبه يميل إلى السلاسة والعفوية وما يمكن تسميته بالسهل الممتنع وقد لعبت قراءات الشيخ المستفيضة وإطلاعه الواسع دوراً في هذه القدرات الكتابية.

كان كتابه (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) موسوعة تاريخية عقائدية اعتمد في كتابته المنهجية العلمية والأمانة والنزاهة وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات وتم طبعه عدة طبعات نظراً لمحتواه العلمي وما جاء فيه من تحقيق عن المدة موضوع البحث.

والحقيقة إن الشيخ قد عبر وفي عدة مرات عن شعوره بالمرارة من تصرفات أصحاب دور النشر والمطابع الذين يعملون بشراهة الطمع على استغلال الطلب على الكتاب وأهميته وإعادة طبعه بنسخ تزيد على ما تم الاتفاق عليه بين المؤلف والناشر على الرغم من إن الشيخ كان ميالاً إلى نشر المعرفة وثقافة آل البيت عليهم السلام[٤].

جاءت دراسة حيدر عن المذاهب الأربعة بمنهج علمي أصيل وروح بحثية سليمة معتمداً على المصادر الأصلية والروايات التي أخضع الكثير منها لمنطق العلم والعقل والتجريح وهو في كل ذلك كان يريد إزالة الغموض واللبس الذي أحاط بموضوعه المذاهب الإسلامية كما يشير[٥]، وبالفعل فقد استطاع من إيجاد دراسة علمية جديدة مقارنة للمذاهب الإسلامية بأسلوب توفيقي بعيد عن التشنج والعصبية والغلو، وقد أكد الشيخ حيدر في ذلك على تحليه بالنفس العلمي والبحث المستند إلى المقارنات السليمة ليضيف إضافة جديدة إلى الدراسات التاريخية وهذا ما عبر عنه الدكتور حامد حنفي داود أستاذ الأدب العربي بكلية اللغات في جامعة القاهرة حيث أظهر إعجابه بالمنهج العلمي الذي أختطه المؤلف وإتباعه الفكر الحر وإن الشيخ قد أضاف شيئاً جديداً إلى المكتبة العربية والبحث العلمي المنزه[٦]. وقد أثنى عليه قائلا: (كان هذا الفتح الجديد في دراسة الإمام ـ الصادق ـ منذ عشرة أعوام حين خرج إلينا

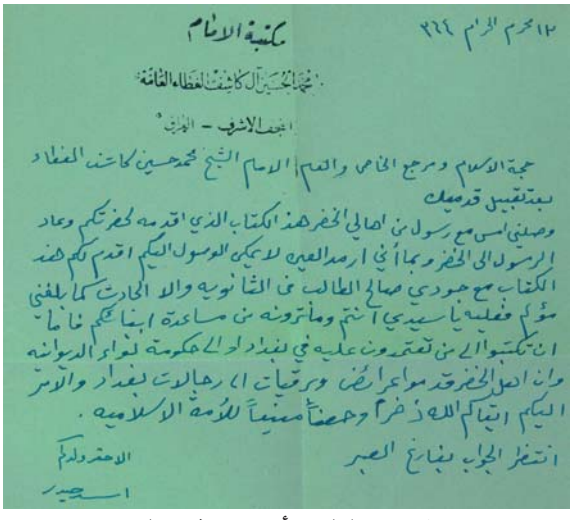
١٢ محرم الحرام ٢٦٦ مكتبة الامام
محمد الحسين آل كاشف الغطاء الغائفة
النجف الاشرف - العراق
حجة الاسلام ومرجع الخاص والعام الامام الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء
بعد تقبيل قدميك
وصلني امس مع رسول من اهالي الخضر هذا الكتاب الذي اقدمه لحضرتكم وعاد الرسول الى الخضر وبما أني ارمد العين لا يمكن الوصول اليكم اقدم لكم هذا الكتاب مع جودي صالح الطالب في الثانوية والاحداث كما يلفني مؤكم فعليه يا سيدي انتم ومأثرونه من مساعدة ابنائكم فانما ان تكتبوا الى من تعتمدون عليه في بغداد او الحكومة لواء الديوانية وان اصل الخضر قد عراض ورحلات بغداد والامر اليكم ايتام الله ذخراً وحصناً منيعاً للأمة الاسلامية.
انتظر الجواب بفارغ الصبر
الاحقر ولدكم
اسد حيدر

نموذج من خط الشيخ أسد حيدر في رسالة منه
إلى الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء

الباحث الأديب والعالم العراقي الحصيف الأستاذ أسد حيدر بالجزء الأول من كتابه (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) فكان هذا الكتاب الجامع إيذاناً بإنهاء مرحلة التخبط حول سيرة الإمام الصادق عليه السلام، ثم يضيف... وأول ما يسترعي التفاتنا لهذا السفر الضخم شموله وسعة آفاقه واستيعابه أكثر جوانب هذه الشخصية العظيمة ولعل ذلك راجع إلى سعة اطلاع المؤلف، فلا يكاد يرى رأياً لصاحب رأي حول شخصية الإمام إلا وأتى بها... وفي كتابات المؤلف واسترسالاته التحليلية حول هذا الموضوع نلمس اتزان العالم الحصيف حين يهرع إلى كلمة الحق)[٧].

وفي هذا المجال يمكن التأكيد على الأسلوب الرفيع الذي كتب به الشيخ أسد حيدر مؤلفه هذا من حيث العبارة واللفظ والمعنى وقوة السبك بالإضافة إلى المنهج التاريخي الذي سلكه في هذا المجال، والحقيقة إن هذا المنهج التاريخي يؤكده الشيخ في دراسته الرائعة لثورة الإمام الحسين عليه السلام من خلال كتابه (مع الحسين في نهضته) فقد جاء كتابه هذا وكما أعتقد أسلوباً جديداً في الدراسات التي تناولت هذه الثورة الإنسانية الخالدة من حيث سرد التفاصيل والروايات والمنهج المتبع والتأكد من التفاصيل التاريخية فقد ابتعد الشيخ عن الأسلوب القديم في كتابة الملحمة الحسينية ليقدم للقارئ أسلوباً جديداً مفعماً بالروح والتجسيد للواقعة الكربلائية وكأنه يحاول إعادة القارئ إلى زمن الثورة الكبرى[٨].

وهذا ما يثبت القدرات المتوافرة عنده لكتابة التاريخ واستحضار الرموز والشواهد الروحية العظيمة ويقدم الشيخ على إنه مؤرخ مقتدر ومنصف وغير متعصب أدواته النزاهة والاعتدال والعلمية، والحقيقة إن ذلك يستدعي دراسة مستقلة عن كتب الشيخ إظهاراً لحقائق جديدة.

كان حيدر وكما أسلفنا من الشعراء المجيدين وكانت له مراسلات شعرية مع عدد من العلماء الأعلام والشخصيات ولعل في مراسلاته مع الشيخ المجدد محمد الحسين كاشف الغطاء دليل على ذلك.

ومن شعر له يرثي به السيد أبا الحسن الأصفهاني:

لرزئك وقع في الورى دونه الحشر
وفقدك أبقى الحزن وارتفع الصبر
أقام بها ناعيك فاستك سمعها
وأذهلها عن رشدها ونأى الفكر
وراحت بيوم النحر تنحر أنسها
فسالت من الأرواح أدمعها الحمر
أيا حاملاً ذاك اللواء ومن به
من الله معقود لنا الفتح والنصر[٩]

عاش الشيخ حياة حافلة بالعمل والجهود المبذولة لخدمة مذهب آل البيت عليهم السلام والدفاع عن الإسلام وكان من دعاة الوحدة والتوحد وتوفي بعد عمر مديد عام (١٤٠٥م) حيث دفن في مدينة أمير المؤمنين عليه السلام ■

---

(١) جعفر محبوبه، ماضي النجف وحاضرها ١٩٩/٢.
(٢) كاظم الفتلاوي، المنتخب من أعلام الفكر والأدب ص: ٥٢.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) مقدمة كتاب (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة).
(٥)، (٦)، (٧) المصدر نفسه.
(٨) أسد حيدر، مع الحسين في نهضته.
(٩) علي الخاقاني، شعراء الغري ١٢/ ٣١٤.

الوعي الإسلامي.. في حياة المسلم

الشيخ عبد الرزاق فرج الله •
أستاذ في الحوزة العلمية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾

سورة الرعد، الآية: ١٦

وقال الإمام علي عليه السلام لكميل:

«يا كميل، إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها»

تمهيد

الوعي الإسلامي ضرورة في حياة الإنسان المسلم، وهو الغاية التي يرمي إليها منهج التربية الإسلامية، الذي يلتزمه الداعية المسلم تجاه الأمة، وضرورة الوعي الإسلامي قضية من المسلمات لدى كل مؤمن، إلا أن الكلام حول الوعي الإسلامي يقع في حدود نقطتين:

الأولى: في تحديد المفهوم من الوعي الإسلامي:

فهناك انقسامات في الفكر الإسلامي حول ما يمكن أن يعرف به الوعي الإسلامي وهي تتمثل فيما يلي:

أ ـ هناك من يرى أن الوعي الإسلامي

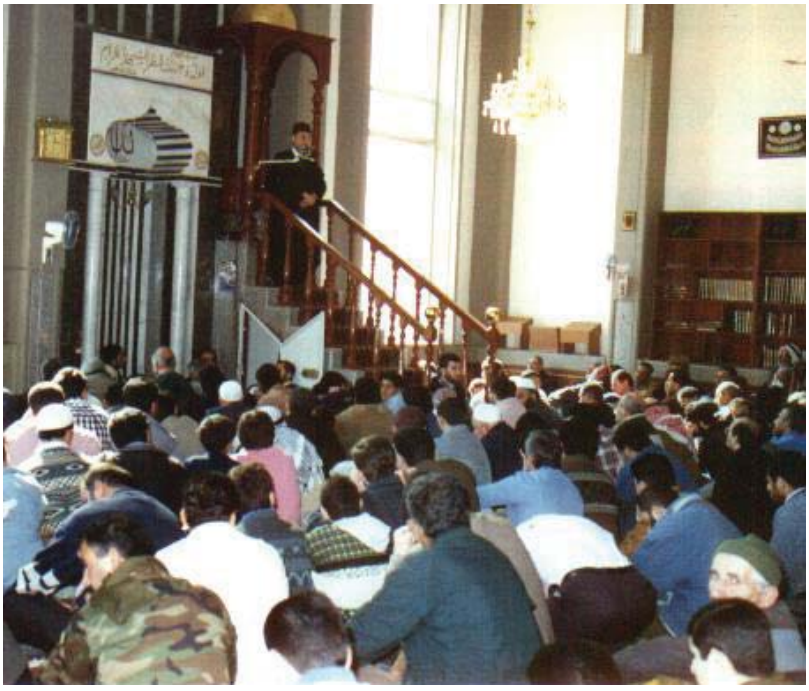

هو: (رد الفعل الإسلامي المواجه للتيارات الفكرية الأجنبية الأوربية وغيرها)، ولكن المحذور من وراء هذا التحديد، أن هناك أناساً نقضوا على تلك التيارات الفكرية وكتبوا حول سلبيات الثقافة الأوربية، ولكنهم وقعوا في الاعتراف بهذه التيارات من حيث لا يشعرون، فما قاموا به هو رد فعل إسلامي، لكنه واجه الحضارة الإسلامية من جهة أخرى، وأمثلة هذه الخفقات كثيرة في أقلام البعض لمن يريد أن يستقرئ واقع الكتاب المسلمين.

ب ـ هناك من حدد الوعي الإسلامي بأنه (معرفة الإسلام معرفة صحيحة وشاملة)، إلا أن هذا التحديد للوعي الإسلامي من ناحية قد ينصرف إلى المستوى النظري، فيبقى المستوى العملي مهملاً في هذا التحديد، بينما المفروض أن يكون العمل والاستعداد لبذل الجهد على أساس هذا الفهم الشامل هو الجزء المكمل لحقيقة الوعي الإسلامي، ومن ناحية أخرى، إن معرفة الإسلام معرفة شاملة، لا يعتبر أساساً في تحقيق الوعي بالنحو المتعارف، لأن ذلك من وظيفة القادة المفكرين المستنتجين الذي يمثلون مركز الصدارة في المجتمع الإسلامي.

ج ـ هناك من يرى أن الوعي الإسلامي هو: (النظرة الإسلامية عن الكون والحياة)، وهذا التحديد يعتبر صحيحاً من جهة فقط، وذلك: لأن الوعي مجال يمكن أن يملأ بأي نظرة عن الكون والحياة، سواء كانت النظرة مادية أو غير مادية، حيث أن لكل نظرته الخاصة

عن الكـون والحياة، وبما أن النظرة هنا مقيدة بكونهـا إسـلامية، فالوعي يبقى العمل خارج هذا التحديد ـ كسـابقه ـ في الوقت الذي يعتبر العنصر المكمل لهذه النظرة ليكون التحديد شاملاً.

د ـ يمكـن تحديد الوعي الإسـلامي بأنه: (معرفة وفهم مجموعة من الأحكام الإسلامية الهامة فهماً صحيحاً والاستعداد للعمل بها).

وهـذا التحديـد لمفهـوم الوعـي الإسـلامي، يعتبـر مقبـولاً لكونـه مـن زاويـة: لـم يهمل عنصر العمـل على ضوء هذا الفهم، باعتباره جزءاً رئيسـياً يؤكد فاعلية الوعي الإسلامي في حياة الإنسان المسلم.

ومـن زاويـة أخـرى: فإنه حـدد بفهم ومعرفـة مجموعـة مـن الأحـكام إذ أن الإنسـان قـد يكـون واعيـاً لجملـة مـن الأحـكام الهامة وعاملاً بها، وهو كاف فـي توفـر الوعـي الإسـلامي الضروري لعامة المسلمين.

الثانية: الانقسامات الداخلية للوعي الإسلامي:

بما أن الإنسان الواعي إسلامياً، ليس ملـكاً مـن الملائكـة أو معصومـاً مـن المعصومين المنتجبين، وإنما يوجد عنده الوعـي مـن مسـبقات ذهنية مكتسـبة، لذا فـإن منهج التربية الإسـلامية، يهدف إلـى إعداد أنـاس متفاعلين مـع المجتمع على أسـاس ما يحملونه مـن فهم ومعرفة لأحـكام رسـالتهم، وملتزميـن بالاتجاه الصحيـح للوعـي الإسـلامي، ومـن هنا يبقـى علينـا أن نعـرض عـدة اتجاهـات للوعي الإسـلامي، لمعرفة ما هو الاتجاه الصحيـح والكامـل للوعي الإسـلامي؟

وهذه الاتجاهات هي:

الأول: اتجـاه الوعـي الإسـلامي المتحنث، الذي يعني أن المجتمع المتحنث المنقطـع إلـى الله عز وجـل، والمتقاطع مـع الحياة العامة، هـو المجتمع الصحيح الصالح، لأن الحيـاة العامة مملوءة باللهو والبعد عن الله تعالى.

وصاحـب هـذا الاتجـاه، وإن كان تصوره هذا ناتجـاً من منطلق الإيمان بأن الدين دين خضوع وانقياد مطلق لأمر الله عـز وجل، إلا أنه لا يمثل نظرية الإسـلام الشـاملة للحياة، التي تؤكد أن المجتمع الصالـح هو المجـد والمجتهـد في طاعة الله عـز وجـل، وفـي نفـس الوقـت هو المجتمع المتعـاون المتضافر الجهود في هداية بعضه ووعي مشاكله وعياً كاملاً وتقديـم الحلـول الناجعـة لهـا مـن واقع رسالته.

الثانـي: اتجـاه الوعـي الإسـلامي المتطرف، وهو الوعي الذي يكون فوق الواقع برتبة، حيث يضع الإنسـان نفسـه على الخط الإسلامي بما يملك من معرفة شـاملة لواقـع رسـالته وضـرورة العمـل بها، ولكنه في سـلوكه العملي الفردي والاجتماعي قد يتجاوز الممكن، ويطلب فوق ما يقتضيه الواقع، ويحاول الوصول إلى المستحيل عادة، في الوقت الذي عليه أن يدرك: أن العمل لكل شيء لا يصل بنا إلى كل شيء.

وقد وقع الكثير من الواعين العاملين للرسـالة فـي هذا الخطأ، وذلـك بتحميل واقع الطريق فوق ما يستحق من الحركة، ممـا أدى إلى العطب في خطـوات العمل الإسلامي.

الثالث: اتجاه الوعي الحضاري، الذي

يعني القدرة على رد الفعل الإسلامي ضد الحضارات والثقافات المنحرفة، وتفنيد الأفكار الباطلة، وهذا الاتجاه وإن كان يمثل وعياً إسلامياً صحيحاً، إلا أنه لابد أن ينظر من زاويتين:

١- زاوية المشكلات الحضارية والاطلاع عليها، فتارة يكون الوعي محصوراً بالمشكلات الكلية الرئيسية لتلك الحضارات للرد عليها، وهذا غير كاف لأن يسمى وعياً حضارياً، وتارة يشمل الوعي المشكلات الحضارية بالملاحظة التامة والدقيقة، بحيث يكون الإنسان المسلم الواعي جامعاً لعامة أجوبة الإسلام على المشاكل الصغيرة والكبيرة، ما كان وما استجد من تلك الحضارات والثقافات، وهذا هو الموقف الصحيح للوعي الإسلامي الحضاري.

٢- زاوية تبرير الواقع الحضاري، فقد يقف الوعي الإسلامي على حافة الانحراف، من خلال إخضاع الإسلام للمشاكل الحضارية لا العكس، فترى البعض مستوعباً للأفكار والحضارات المنحرفة، ويرى ضرورة عرض تلك الحضارات على الإسلام، ولكنه قد يعكس الأمر، ويحاول القول: بأن الإسلام متجاوب مع هذه الحضارات والأفكار ويقرها، وهذا من باب تبرير الواقع الحضاري وتخطئة الإسلام، في الوقت الذي يقتضي الإيمان برصانة وأصالة الفكرة الإسلامية، وعدم إخضاعها أو امتزاجها مع أفكار العالم المنحرف.

الرابع: اتجاه الوعي المذهبي، الذي يعني كون الإنسان المسلم عارفاً بأحكام وتفاصيل مذهب معين، يتعصب له ويتجاوب معه، ولكنه على غير استعداد للتجاوب مع الإسلام الجامع المشترك، ودراسة الأفكار المذهبية الأخرى.

وهذا الاتجاه، وإن كان صحيحاً على مستوى القناعة التامة بالمذهب، إلا أنه لا ينبغي الانغلاق عن المذاهب الأخرى وتهميش دورها المشترك في علاج القضايا، كما عليه بعض المذاهب الإسلامية، التي اقتصرت على حدود مذهبية معينة، وتجاهلت دور المذاهب الإسلامية الأخرى، بل حكمت عليها بالكفر - مع شديد الأسف - كما يجري في الوقت الحاضر مع حاجة الأمة إلى الموقف المشترك.

الخامس: اتجاه الوعي الإسلامي الكامل، وهو خلاصة المخاض في هذه الاتجاهات، والذي يعني الفهم الواضح والشامل لأدلة الإسلام من الكتاب والسنة، في مختلف الحقول والمجالات، من المبدأ، والمعاد، والفلسفة، والأخلاق، واستغراق جميع الحوادث الصغيرة والكبيرة.

فالإنسان الواعي إسلامياً، هو الملم بقسم كبير من الأحكام والمفاهيم الإسلامية، والعامل بها على صعيد الحياة في كافة مجالاتها، والقادر على مواجهة التيارات الفكرية المتطرفة، والثقافات المنحرفة، والعقائد الضالة، بما يملك من رصيد فكري إسلامي لا يقهر.

وما أحوج الأمة الإسلامية في هذا الظرف إلى الكادر المؤمن الواعي، القادر على مواجهة الغزو الفكري والعقائدي والأخلاقي، الذي يحاول حرفها عن خط عقيدتها ومنهج رسالتها ■

علم الاجتماع..
تعريفه، والموضوعات التي يدرسها

د. حمزة جابر سلطان الأسدي •
كلية الآداب/ جامعة الكوفة

تمهيد

يعد علم الاجتماع من أهم العلوم التي تحتاجها المجتمعات الإنسانية، نظراً لفاعليته في فهم طبيعة النظم والمؤسسات التي ينتمي إليها الإنسان ويتفاعل معها، والعلاقات الاجتماعية والسلوك الاجتماعي، فضلاً عن دوره في دراسة المشكلات الاجتماعية دراسة تحليلية تهدف إلى معرفة أسبابها وآثارها وعلاجها، بمعنى إنه لا يقتصر على دراسة جانب واحد من جوانب الحياة الاجتماعية، وإنما يمكنه أن يدرس الكيان الكلي أي أنه يمكنه أن يكون علماً خاصاً مستقلاً يتخذ المجتمع وحدة للتحليل، لذلك عرّف بعض علماء الاجتماع هذا العلم بأنه العلم الذي يدرس المجتمع دراسة علمية ويعمل على كشف الصلات التي تربط النظم التي تكوّن المجتمع في ظل الأنساق الاجتماعية المختلفة، لأنه يهتم بدراسة النظم الاجتماعية أي العلاقات التي تربط بين عناصر المجتمع، وإن هذه النظم تشمل: الأسرة، والدين، والتربية، والسياسة، والاقتصاد.

تلك النظم هي موضوعات علم الاجتماع، إذ عرف العالم الفرنسي إميل دور كمايم (١٨٥٨- ١٩١٧) علم الاجتماع بأنه دراسة النظم لأنها تمثل الحجر

الأساس في تركيب وبناء المجتمع، لأن المجتمع عبارة عن نسيج من علاقات متشابكة متبادلة بين الأفراد والجماعات وتتضمن هذه العلاقات مراكز وأدواراً متعددة والتي بدورها تتضمن حقوقاً وواجبات مشتركة وعليه فقد وجدت هذه المجتمعات أن من الضروري وجود قواعد وأساليب محددة أي معايير محركة لتنظيم الحياة الاجتماعية ولإشباع الحاجات البشرية العامة، فكل نظام بالضرورة يظهر لإشباع حاجات حيوية أساسية.

فلو أخذنا المؤسسة الدينية على سبيل المثال فإننا سنجد أن الدين في جميع المجتمعات من أهم النظم الأساسية المكونة للنظام الاجتماعي العام (المجتمع) ويرتبط مع النظم الاجتماعية الأخرى بروابط متبادلة ولا يمكن الفصل بينهما، لأنه لا يمكن أن يفصل عن الحياة اليومية بمظاهرها الاقتصادية والسياسية والعائلية والتربوية، فإن الدين يهتم بالعلاقة بين الإنسان والخالق من خلال تنظيم العقائد والطقوس والشعائر الدينية، والعمل على تحريك قدر كبير من التواصل والتكافل الاجتماعي ولأهمية هذه المؤسسة ينبغي التركيز عليها في عمليات التربية والإعلام والترشيد الاجتماعي لكي تسهم في الإصلاح وتستطيع أن تؤثر بعمق في مفاهيم الأفراد، وعليه فقد أصبحت للدين أهمية خاصة في الحياة الاجتماعية، لإهتمامه بالروابط والعلاقات البشرية وكونه

مصدراً أساسياً ودعامة للنظام الاجتماعي العام فهو جزء لا يتجزأ منه - كما إن هناك ترابطاً مستمراً بينه وبين المجتمع من الناحية المادية والمعنوية، فهو يتأثر بالدين ويؤثر فيه وهما في تفاعل مستمر.

لذلك عرف علم الاجتماع بأنه (العلم الذي يدرس طبيعة العلاقات الاجتماعية وأسبابها ونتائجها) تلك العلاقات التي تنشأ بين الأفراد الذي يضمهم مجتمع ما، ولا يمكن لأي هيئة أو مؤسسة أن تنجح مهمتها أو أن تشق طريقها دون أن تنظم علاقاتها وتدرس الاتجاهات النفسية للأفراد والظروف المحيطة بهم وطرق التعامل معهم والتأثير فيهم فالعلاقات الاجتماعية في كافة مظاهر الحياة تبدأ مع الفرد منذ طفولته وتستمر معه ما بقي في الحياة، وهو مضطر لذلك لأنه كائن اجتماعي.

وهذه العلاقات الاجتماعية لها آثار واضحة في سلوك الأفراد داخل المجتمع، ولهذه العلاقات جوانب اجتماعية وأخلاقية ونفسية، فالجانب الاجتماعي ينصرف إلى ماترمي إليه هذه العلاقات من مساعدة الفرد على الإندماج السوي في الجماعة والتكيّف تبعاً لحاجاته ومطالبه والتقيد بالنظم التي يفرضها عليه المجتمع، ويهتم الجانب الأخلاقي بإقامة مباديء إنسانية تعتمد على احترام الفرد وتقديس حرياته وتقدير القيم الاجتماعية والمشاركة الوجدانية ومباديء التكافل الاجتماعي، والجانب النفسي يتمثل في مبلغ التأثيرات المتبادلة بين نفوس الأفراد ومشاعرهم وقيادة الجماهير والسيطرة عليهم وكيفية خضوعها للقيادة والزعامة، وهذه الجوانب تُرد إلى عوامل اجتماعية.

ونظراً لذلك جاء اهتمام علماء الاجتماع المعاصر بالعلاقات واعتبروها مهمة لأن دراستها تتطلب فحص المجتمع برمّته بغية التعرف على أنماط علاقاته الاجتماعية المتنوعة الأهداف والمقاصد، كما يهتم الاجتماع بالقوانين والأحكام التي تنظم السلوك الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية بين أعضاء المجتمع ويدرس نظم المعرفة والمعتقدات مع الإهتمام بالقوى والعوامل التي تنظم سكونها وحركتها على ذلك فإن موضوع علم الاجتماع هو (بنو الإنسان في وجودهم الذي يقوم على الاعتماد المتبادل) وليس معنى ذلك أن موضوعه هو جسم الإنسان وما تقوم به أعضاء هذا الجسم من وظائف، وإنما يقوم موضوعه على الاهتمام بما يحدث عندما يقابل إنسانٌ إنساناً آخر أو عندما يشكل الناس جموعاً أو جماعات أو عندما يتعاونون ويتصارعون أو يتحكم بعضهم ببعض أو يحاكي بعضهم البعض الآخر.

ولما كان علم الاجتماع يبحث في ألوان النشاط الإنساني ككل بما في ذلك سلسلة العلاقات الاجتماعية وتشابكها وظروفها لزِم أن ننبه إلى أهمية دراسة العلائقية التي يقوم بها علم العلاقات الاجتماعية مع الإرشاد والتوعية الاجتماعية، ولعل من بين علماء الاجتماع المعاصرين الذين درسوا ذلك العالم البلجيكي (ديبريل) وخاصة في كتابه الموسوم (العلاقة الاجتماعية) حيث درس ما يترتب على اجتماع الأفراد من حالات نفسية ونماذج سلوكية تكون وليدة شعور هؤلاء الأفراد باعتماد بعضهم على البعض الآخر، وإحساسهم بوجود علاقات متبادلة تنظم تلك الحالات والأعمال، وقد

قسم ديبريل العلاقات الاجتماعية على قسمين:

علاقات إيجابية: وهي تلك التي تؤدي إلى الملائمة والوفاق بين رغبات أفراد الجماعة الواحدة، أو تلك التي تجمع بين مصالح الجماعة ككل والجماعات الأخرى الخارجة عن نطاقها الداخلي والمشتركة معها في إطار المجتمع العام. وهذا النوع من العلاقات يعمل على إيجاد نوع من التعاطف والمشاركة الوجدانية والألفة والتضامن الجماعي والتعاون في كافة مظاهر النشاط الاجتماعي ويرمي إلى الإبقاء على مقومات الجماعة وأسس تكوين المجتمع، فالمجتمع في نظره مجموعة من الأفراد الذين تربطهم علاقات إيجابية متكاملة تميزهم عن غيرهم من أفراد المجتمعات الأخرى. وطبيعة هذه العلاقات الإيجابية أن بعضها يكمل البعض الآخر لتحقيق الإستقرار الاجتماعي.

ولا بد أن نعرف بأن المجتمع ليس مجرد جمع الأفراد المترابطين بل المهم أن نعرف إن لكل فرد وضعاً اجتماعياً خاصاً به، بحيث إن الواحد لا يحل محل الآخر، والوحدات الاجتماعية التي يتألف منها المجتمع لا يمكن أن تحل واحدة منها محل الأخرى لأن لكل فرد في كل وحدة مركزه ودوره الاجتماعي ووظيفته التي ترتبط ارتباطاً تكاملياً وكلياً بالجماعة أو المجتمع.

أما القسم الثاني من العلاقات فيسمى بالعلاقات السالبة وهي التي تقوم على عناصر التفرقة والخلاف والشقاق وتعمل على التباعد والانعزال بل والاشمئزاز والكراهية وعدم الثقة والمجافاة والتسلط والاعتداء... فهي ترمي إلى هدم وتقويض دعائم التنظيم الاجتماعي.

ويرى ديبريل أن العلاقات الاجتماعية بقسميها الإيجابي والسلبي يوجدان جنباً إلى جنب في كل مجتمع ولذلك يجب أن يكون موضوع علم الاجتماع منطوياً على كليهما، فدراسة العلاقات الإيجابية من شأنها أن تفيد في تقوية دعائم التوحيد والترابط الاجتماعي ودراسة العلاقات السالبة تساعد في الوصول إلى أفضل الوسائل وأنجح الطرق المؤدية إلى تخفيف آثارها أو التخلص من نتائجها الهادمة، وذلك إذا استغل البرنامج الإرشادي للقضاء على فاعلية القسم السلبي من القيم والأنماط الحضارية التي تشكل العلاقات الإنسانية.

ويعد العلامة الألماني ماكس ثير من أبرز علماء الاجتماع الذين درسوا العلاقات الاجتماعية دراسة تحليلية ومن الداعين إلى ضرورة بحث التأثيرات المتبادلة بين النظم الاجتماعية وخاصة الدينية والاقتصادية والسياسية، ويعتقد أن موضوع علم الاجتماع يجب أن يكون مقصوراً على دراسة العلاقات الاجتماعية، فالعلاقات الاجتماعية إنما تنتج بناء على تصرف الأفراد بعضهم إزاء البعض الآخر. وكل تصرف أو سلوك يقوم به الفرد بشكل متعمد وعن وعي وتعقل لرد فعل المتوقع ممن يستجيبون له، يعتبر تصرفاً اجتماعياً، وهذه العلاقات الاجتماعية التي تنشأ استجابة لنشاط أو سلوك أو رد فعل اجتماعي مقابل في الدعامة الأساسية للدراسات الاجتماعية. غير أن المرشد الاجتماعي يجب أن يدرس العلوم الاجتماعية الجزئية المتصلة بالعلاقات

التي يدرسها لأن تلك العلاقات إنما تتشكل في مظاهر متعددة، ودراستها تتطلب فهماً في صورها المجردة المنعزلة عن تجسداتها الاجتماعية.

هذا ويعتبر العالم فون فيز دعامة من دعائم هذه المدرسة فهو يدعو إلى دراسة المجتمع من صورته المجردة باعتبارها تنظيماً لعلاقات التقارب والتباعد بين الأفراد، فهو بنى وجهة نظره على أساس تأثر كل فرد بالأفراد الآخرين ويُنتج هذا التأثير مسافة اجتماعية تختلف عن المسافة المادية التي تفصل بينهما، وهذه المسافة الاجتماعية تعبر عن مدى التقارب والتلائم الاجتماعي بين الأفراد أو تعبّر عن مدى التباعد والنفور بينهم. ودراسة شبكة المسافات والأبعاد الاجتماعية عن طريق نوعين من العمليات الاجتماعية: النوع الأول يتكون من عمليات تقارب أو تواصل، مثل: عمليات التكيف الاجتماعي والتمثل الاجتماعي والتعاون، والنوع الثاني يتكون من عمليات انفصال وإبعاد، مثل: الصراع أو التصادم والمنافسة.

وأيضاً يمكن تعريف علم الاجتماع بأنه العلم الذي يدرس الإرشاد والتوجيه الاجتماعي من أجل حل المشكلات الاجتماعية التي يتعرض لها المجتمع الإنساني. والإرشاد بصفة عامة عملية ووظيفة اجتماعية تهدف إلى تنوير الرأي الجماهيري وتبصير الجماعات على اختلاف مستوياتها وتنوع اهتماماتها لفهم مشخصاتها الذاتية وتفسير المواضيع والمواقف التي تمس مجالات حياتها في مختلف أبواب نشاطها السياسي والديني والاقتصادي والعلمي والخُلُقي والتربوي، كما إنها تقدم التبرير العقلي والعاطفي أو الوجداني لإتجاهات الدولة أو مواقفها إزاء الأحداث الخارجية والعمل على ربط الأفراد والهيئات الاجتماعية بالمجتمع الذي تنتمي إليه يشعر كل فرد بدوره وواجبه إزاء مجتمعه، ويستحسن ضرورة مشاركته الإيجابية في العمل على تقدمه وتطويره.

بمعنى أن الإرشاد ينطوي أساساً على عنصر التوجيه بقصد تحقيق هدف أسمى هو صالح الأمة وما يجلب لها من رفاهية داخل حدودها وما يرفع من شأنها ومكانتها في علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية في المجالات كافة بمعنى أنه لا يكون مخصصاً لتحقيق مصالح هيئة معينة أو شريحة خاصة من شرائح المجتمع إلا بالقدر الذي يفيد المصلحة العامة ويحمي التنظيم السياسي أو الاقتصادي أو الديني أو الخلقي من الوهن والإنحراف.

أما ماكس ثير فيعرّف علم الاجتماع في كتابه (نظرية التنظيم الاجتماعي والاقتصادي) بالعلم الذي يفهم ويفسر السلوك الاجتماعي يعني أية حركة أو فعالية مقصودة يؤديه الفرد وتأخذ بعين الإعتبار وجود الأفراد الآخرين، وقد يكون سببها البيئة أو الأحداث التي تقع فيها أو الأشخاص الذين يلازمون الفاعل الاجتماعي الذي يقوم بعملية الحدث أو السلوك، والسلوك الاجتماعي يعتمد عادة على ثلاثة مقاييس أساسية:

١- وجود شخصين أو أكثر يتفاعلان معاً ويكوّنان السلوك أو الحدث الذي نريد دراسته.

٢- وجود علاقات اجتماعية متساوية أو مختلفة يشغلها الأفراد الذين يقومون

بالسلوك.

٣- وجود علاقات اجتماعية تتزامن مع عملية السلوك.

الأهداف التي يرمي إليها علم الاجتماع

يرمي علم الاجتماع من دراسة المجتمع وظواهره ونظمه ومشكلاته إلى نوعين من الأهداف: أهداف نظرية وأخرى عملية.

وتتلخص الأهداف النظرية في النقاط الآتية:

١- دراسة طبيعة الحقائق الاجتماعية وما يتصل بها للوقوف على نشأتها وعلى المباديء العامة للحياة الاجتماعية والدعائم التي ترتكز عليها.

٢- دراسة تطور الظواهر الاجتماعية واختلاف أنماطها باختلاف العصور باختلاف الشعوب وتشمل هذه الدراسة كذلك الأشكال والنماذج الاجتماعية وتصنيف المجتمعات وخصائص كل شكل منها ومحاولة الكشف عن ديناميات المجتمع والقوى المؤثرة في تغيره وتقدمه.

٣- دراسة العلاقات الاجتماعية بين ظواهر المجتمع ومدى انطباع هذه العلاقات في الأفراد ودراسة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد أنفسهم.

٤- الكشف عن الوظائف الاجتماعية التي تؤديها الظواهر والنظم الاجتماعية والوقوف على تطور الوظائف بتطور مناشط الحياة الاجتماعية.

٥- الوصول إلى القوانين الاجتماعية التي تخضع لها ظواهر المجتمع لأن هذه الظواهر كغيرها من ظواهر العلوم تسير وفق قوانين وقضايا كلية يمكن الكشف عنها بالدراسة العلمية.

أما الأهداف العملية لعلم الاجتماع فهي الاهتمام بالناحية النظرية فضلاً عن الناحية التطبيقية أي إنه من الممكن الإنتفاع بحقائق هذا العلم والاهتداء في ضوء قوانينه على ما ينبغي عمله في الحياة الاجتماعية للإرتقاء بأحوال المجتمعات وحل مشكلاتها فإنه يعمل على دراسة مشكلات المجتمع والوصول إلى أنسب الطرق كلها والتخفيف من خطرها، إذ تعد المشكلات الاجتماعية وعدم التكافؤ بين الفئات الاجتماعية الموزعة على السلم الاجتماعي أو عدم توزيع المصادر الاقتصادية على الشرائح الاجتماعية بشكل عادل، والتفكيك الأسري والهجرة وعدم قدرة بعض المؤسسات على القيام بوظائفها والتصادم القيمي والاختلاف بين الواقع والطموح لدى الأفراد، وقد تجلى دور علم الاجتماع في حل المشكلة من خلال ما يلي:

١- معرفة طبيعة المشكلة وحدودها ومدى انتشارها.

٢- معرفة أسباب المشكلة المختلفة.

٣- العمل من منطلق بيان أن المشكلة الاجتماعية لها أكثر من سبب وقد تكون بعض الأسباب أقوى من غيرها في التأثير.

٤- استخدام أساليب البحث العلمي من خلال الدراسة الميدانية.

٥- يقوم الباحث الاجتماعي بعد دراسته لطبيعة المشكلة وأسبابها بتحديد اقتراحاته ونصائحه لحل المشكلة وتقديمها إلى المختصين ■

الزيارة..
عقيدة وممارسة

طالب علي الشرقي •

تمهيد

الزيارة: تعني الحضور عند المزور، أي مزور، فلا خصوصية لنوعه أو مكانه. فبمجرد الذهاب إليه يقال عنها زيارة، كأن تزور إنساناً أو مدينة أو أثراً تاريخياً أو متحفاً أو مرقداً أو حديقة... وإلى آخر ما يخطر على بال. ولكن:

عند إطلاق اللفظة ينصرف الذهن - عند المسلمين - إلى الحضور في المشاهد المقدسة كقبر الرسول محمد صلى الله عليه وآله ومراقد الأئمة عليهم السلام ومراقد الصالحين رضي الله عنهم.

ويرى بعضهم أن (حقيقة الزيارة عند الشيعة حضور روحي، وأن الروحانية الكبرى للمزور ونفسيته الممتازة وصفاته القدسية تفيض على نفسية الزائر فتكتسب منها لتطمئن بعد اضطراب ولتسعد بعد شقاء وترجو بعد قنوط وتشرق بعد تجهم. وربما يحصل ذلك الانتعاش الروحي بمجرد تصور نفسية المزور واستعراض صفاته الممتازة في طواف حول تلك الشخصية الروحية طوافاً ذهنياً بدون خصوصية للمكان، ولكن الشيعة لا يكتفون بذلك بل لا تعد الزيارة الروحية إلا إذا كانت عند تربة المزور)[1] وهذه هي الحقيقة.

فقد ورد أن الصحابي الجليل (الضرير) جابر بن عبد الله الأنصاري قال لقومه عندما زار قبر الإمام الحسين عليه السلام في (٢٠) صفر عام (٦١هـ) مع جماعة من أهل المدينة، قال: (ألمسوني القبر)[2]، وظاهر الخبر أنه لا يجد في الزيارة طعماً

دون أن يضع يده على القبر الشريف.

إن الزيارة ممارسة قديمة يدل عليها أمر الله تبارك وتعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام بقوله جل جلاله: (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)[٣] والحج زيارة لبيت الله الحرام اقترنت بالمناسك التي أوحاها الله تعالى لأنبيائه عليهم السلام.

وتناول الدكتور جواد علي ممارسة الزيارة في العصر الجاهلي فقال: (وتزار قبور السادات والأشراف... ويذبح عندها ويحلف بها ويلجأ إليها طلباً للأمان والسلامة)[٤].

وقبيل الإسلام كانت والدة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله آمنة بنت وهب تزور قبر عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول صلى الله عليه وآله. وكانت آخر زيارة لها يوم عاد النبي محمد صلى الله عليه وآله من البادية... خرجت به لتزور الفقيد الراحل في مثواه وتحسبه مشوقاً تحت أطباق الأرض إلى رؤية الوليد الذي لم تبصره عيناه تحت شمس النهار، وكذلك تزير الوليد اليتيم أباه فلما قضت حق الزيارة... قفلت بوليدها راجعة إلى مكة فماتت ودفنت في الطريق[٥].

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يزور قبر عمه حمزة رحمه الله. وروي أنه صلى الله عليه وآله كان يخرج في ملأ من الناس كل خميس إلى البقيع فيقول: (السلام عليكم أهل الديار - ثلاثاً - رحمكم الله - ثلاثاً -)[٦].

وزارت سيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام

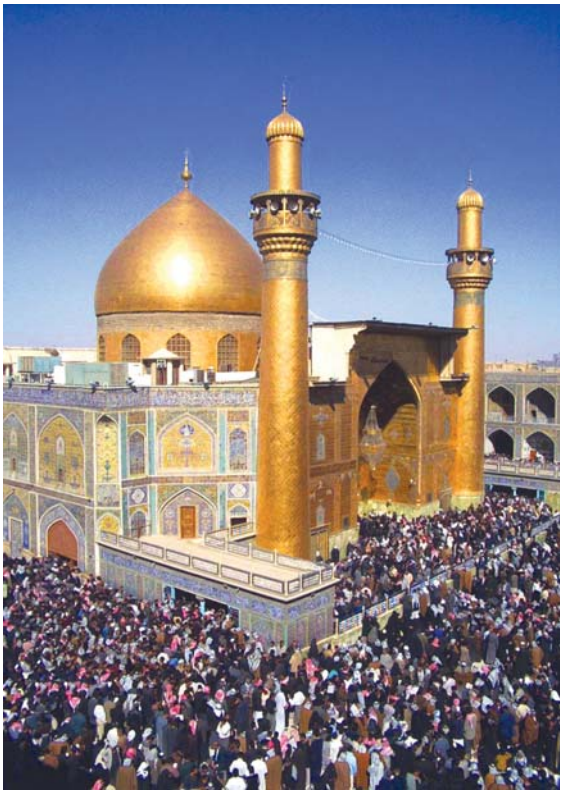

قبر أبيها صلى الله عليه وآله. وزار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وقبر فاطمة عليها السلام.

ودارت عجلة الزمن بالاتجاه المعاكس وصار الطلقاء والمطرودون بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وأبناؤهم أمراء المؤمنين وقادة وحكاماً يتصرفون بشؤون الرعية وفق رغباتهم وأهوائهم، وسلطوا السيف والإرهاب على من يذكر علياً وأبناءه بخير، فكيف يكون الأمر مع من يشد الرحال لزيارة مراقدهم؟! كل ذلك لم يثن أئمة أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم عن زيارة مراقد الشهداء، ولم تقف كل أساليب الجور والتعسف دون تجمع المحبين والموالين في المشاهد المطهرة حتى

وصل الأمر إلى التضحية بالنفس والنفيس لأن الانقطاع عن الزيارة يعني قطع الصلة بمنابع الفضيلة ومشارق العلوم والأخلاق والاستقامة.

ففي لقاء أبي حمزة الثمالي بالإمام زين العابدين عليه السلام في مسجد الكوفة وقوله للإمام عليه السلام: يا ابن رسول ما أقدمك إلينا؟ قال: ما رأيت، ولو علم الناس ما فيه من الفضل لأتوه ولو حبواً. هل لك أن تزور معي قبر جدي علي بن أبي طالب عليه السلام؟ قلت: أجل، فسرت في ظل ناقته حتى أتينا الغريين في بقعة بيضاء... فنزل ومرغ خديه عليها... ثم ودعه ومضى إلى المدينة[٧].

وزار الإمام محمد بن علي بن الحسين الباقر عليه السلام قبر جده أمير المؤمنين عليه السلام ومثله فعل الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وبقية الأئمة عليهم السلام وجملة من الملوك والخلفاء والوزراء والعلماء والأعيان...

يقول ابن قولويه: في عهد بني أمية وضع على قبر الحسين عليه السلام المسالح لكي لا يؤم أحد من الزائرين مثواه، وكان القبر مطوقاً بمخافر تتولى ذلك وبقي كذلك حتى أواخر عهد بني أمية عندما زاره الحسين بن أبي حمزة الثمالي - صاحب الدعاء المعروف - ويروي أنه كان مطوقاً بالجنود[٨].

وفي عهد أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس فسح المجال لزيارة قبر الحسين عليه السلام ومثله في عهد المأمون، أما المتوكل العباسي (٢٣٦هـ - ٢٤٧هـ) فقد أعلن العداء لأئمة أهل البيت عليهم السلام وأمر بهدم قبر الحسين عليه السلام وحرث أرضه وأرسل الماء عليه... فسلط الله عليه من يذبحه. فخلفه ابنه المنتصر فسمح بالزيارة واتسع نطاق زيارة المراقد المطهرة وأعمارها وإعلاء شأنها في فترة البويهيين ولم تقتصر زيارة المسلمين الموالين لأهل البيت عليهم السلام على مرقد الإمام الحسين والإمام علي عليهما السلام بل شملت كافة مراقد الأئمة المعصومين عليهم السلام وقبور الصالحين وأبنائهم وأصحابهم.

لقد جعل الشيعة مواسم للزيارة سموها الزيارات المخصوصة - مع أن الزيارات تجري في أي وقت - إلا أن هذه المواسم تشهد أعداداً كبيرة من الزائرين. فكانت لكربلاء زيارة أربعينية الإمام الحسين عليه السلام وزيارة النصف من شعبان وزيارة عرفة. وللنجف زيارة المبعث وزيارة عيد الغدير وزيارة وفاة النبي صلى الله عليه وآله في (٢٨) صفر.

قال العلامة المجدد المغفور له الشيخ محمد رضا المظفر: ومما امتازت به الإمامية العناية بزيارة قبور النبي والأئمة عليهم الصلاة والسلام وإقامة العمارات الضخمة عليها... ومرد ذلك إلى وصايا الأئمة وحثهم شيعتهم على الزيارة فيما لها من الثواب الجزيل عند الله تعالى باعتبار أنها خير المواقع لاستجابة الدعاء والانقطاع إلى الله تعالى. وجعلوها أيضاً من تمام الوفاء بعهود الأئمة... فمن زارهم رغبة وتصديقاً بما رغبوا فيه كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة. وفي الزيارة زيادة رابطة الولاء للأئمة وتجدد ذكر مآثرهم وأخلاقهم وجهادهم في نفوس الزائرين، وتجمع في مواسمها أشتات المسلمين المتفرقين على صعيد واحد ليتعارفوا ويتآلفوا. إن زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله وقبور الأئمة عليهم السلام لا تعني زيارة أموات فهم (أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)[٩].

وبعد الفراغ من الزيارة يصلي الزائر ركعتين - على الأقل - تطوعاً وعبادة لله

تعالى ليشكره على توفيقه إياه ويهدي ثواب الصلاة إلى المزور. وفي الدعاء المأثور الذي يدعو به الزائر بعد هذه الصلاة ما يفهم الزائر أن صلاته وعمله إنما هو لله وحده وأنه لا يعبد سواه، فيقول: (اللهم لك صليت ولك ركعت ولك سجدت، وحدك لا شريك لك ولا تكون الصلاة والركوع والسجود إلا لك لأنك أنت الله لا إله إلا أنت. اللهم صل على محمد وآل محمد، وتقبل مني زيارتي وأعطني سؤلي بمحمد وآله الطاهرين)[١٠].

وحين يطرق سمع المحبين القول المشهور: الأجر على قدر المشقة، يذهب البعض إلى الإمعان في تحمل المشاق والجهد الاستثنائي طمعاً في زيادة الأجر، ويعقد بعضهم نذراً بأن يؤدي الحج أو زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله أو مراقد الأئمة عليهم السلام مشياً على الأقدام. فقد ورد أن الإمام السبط الحسن عليه السلام حج خمساً وعشرين حجة ماشياً[١١].

وفي معرض الحديث عن جلال الدولة البويهي أنه زار مرة مشهد علي وولده الحسين عليهما السلام وكان يمشي حافياً قبل أن يصل كل مشهد منهما نحو فرسخ يفعل ذلك تديناً[١٢]. وفي سنة (١٠١٠هـ/١٦٠٢م) مشى الشاه عباس الكبير على قدميه من أصفهان حتى طوس - وهي مسافة تبلغ ٨٠٠ ميل - بغية التبرك بزيارة المرقد الرضوي[١٣].

ويذكر معمرو النجف عن آبائهم أنهم شاركوا بعض علماء البلدة في السير على الأقدام لزيارة مرقد الإمام الحسين عليه السلام وكان ذلك يحدث ولكن على نطاق ضيق قد لا يحس به الآخرون، ولا يترك أثراً في البلد المقصود منه أو إليه[١٤]. أما في العقود الثلاثة المنصرمة فقد تنامى العدد من مئات الألوف إلى الملايين، والأسباب متعددة ومتداخلة مما يستدعي التأمل..

في القرون الخالية لم يكن ثمة إحصائيات لعدد الزائرين للعتبات المقدسة عدا ما كره بعض الرحالة الأوربيين، ففي سنة (١١٧٩هـ/١٧٦٥م) قدر الرحالة الألماني (كارستن نيبور) عدد الزوار الذين كانوا يقصدون العتبتين في المشهدين (النجف وكربلاء) بحوالي خمسة آلاف زائر في السنة. وهذا العدد كبير بالنسبة للفترة الزمنية ووسائط النقل فيها[١٥]. وفي عام (١٢٢٢هـ/١٨٠٧م) ذكر السائح الفرنسي (ادريين دوبريه) أن عدد الزوار الذين كان يمرون إلى زيارة النجف وكربلاء كان يتراوح بين خمسة عشر ألف وعشرين ألف نسمة[١٦]. وقال (فونتانييه) عام (١٢٤٠هـ/١٨٢٤م) أن مائة ألف أجنبي يمرون سنوياً للذهاب إلى زيارة ضريح الإمام علي[١٧]. وفي سنة

> عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال:
>
> «بينما الحسين بن علي (عليهما السلام) في حجر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، إذ رفع رأسه فقال له: يا أبة، ما لمن زارك بعد موتك؟
>
> فقال: يا بني من أتاني زائراً بعد موتي فله الجنة، ومن أتى أباك زائراً بعد موته فله الجنة، ومن أتى أخاك زائراً بعد موته فله الجنة، ومن أتاك زائراً بعد موتك فله الجنة».
>
> كامل الزيارات ص:٣٩

(١٢٧٠هـ/١٨٥٣م) قدر (لوفتس) عدد الزوار بـ(٨٠٠٠٠) شخصاً[١٨].

وفي عصر تقدم وسائط النقل وكثرتها وصلاحية الطرق وانتشارها وعدم وجود عوائق سياسية بين العراق والدول الإسلامية، يزداد عدد الزوار بشكل ملحوظ (وقد دلت الإحصاءات الرسمية على أن متوسط أعداد الزائرين للنجف في المواسم المخصوصة يتجاوز نصف مليون نسمة[١٩] وفي الأعوام الأخيرة، وبعد سقوط النظام الطائفي الجائر في العراق سنة (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) وما بعدها قفزت أعداد الزائرين للعتبات المقدسة في كربلاء والنجف في السنة إلى عدة ملايين.

وذكر أنها في سنة (١٣٢٧هـ/٢٠٠٦م) تجاوزت السبعة ملايين. ورافقها انفجار بشري باتجاه مرقد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في إيران، وكنت من بين تلك الجموع الهائلة وذلك عام (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م). ويوم دخلت الحرم الطاهر وحاولت الوصول إلى شباك المرقد المقدس لأقبله لم أستطع وعلى مدى ثلاثة أيام واكتفيت بلمسه بيدي ولمرة واحدة. وكررت الزيارة في عام (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ولمدة خمسة أيام وكدت أيأس من تحقيق رغبتي في لثم شباك الإمام عليه السلام لولا معونة أكثر من زائر إيراني، فتَحوا لي طريقاً بين الجموع المتدافعة فحققت أمنيتي. ومن وحي تلك الزيارة قلت في قصيدة مطلعها:

لا تبلغ القصد بل لا تبلغ الأربا
إن لم توثق بآل المصطفى السببا

ومنها:

فتحت عيني على صرح حسبت له
مثلاً فلم أحسن التقدير والطلبا
فليس في الأرض قبر قد أحاط به
صحن، صحون تضم الفرس والعربا
وليس في الأرض قبر قد أحاط به
ما يعجز الحصر ممن ناء أو قربا
لصقاً بشباك مثواه الطهور غدوا
كالنحل مجتمعاً طوراً ومنسحبا
في لجة الموج لم أحمل على قدم
حتى لمست بكفي المرقد العجبا
أحسست أن يدي قد لامست بشراً
وإن قلبي غدا لا يعرف العطبا

ومازلنا مع الشعر فقد ورثنا كنوزاً غالية منه. نذكر أمثلة تناولت موضوعة الزيارة، ونبدأ بأبيات من قصيدة الحسين بن الحجاج قالها في الاحتفال بتدشين بناء الحرم العلوي الجديد في القرن الرابع الهجري:

يا صاحب القبة البيضاء على النجف
من زار قبرك واستشفى لديك شفي
زوروا أبا الحسن الهادي لعلكم
تحظون بالأجر والإقبال والزلف
زوروا لمن تسمع النجوى لديه ومن
يزره بالقبر ملهوفاً لديه كفي
إذا وصلت فاحرم قبل تدخله
ملبياً واسع سعياً حوله وطف
حتى إذا طفت سبعاً حول قبته
تأمل الباب تلقا وجهه فقف
وقل سلام من الله السلام على
أهل السلام وأهل العلم والشرف[٢٠]

وقال دعبل بن علي الخزاعي:

سلام بالغداة وبالعشي
على جدث بأكناف الغري

إلى قوله:

لئن حجوا إلى البلد القصيّ
فحجي ما حييت إلى عليّ[٢١]

وللصاحب بن عباد أرجوزة يذكر فيها جميع المراقد الطاهرة بدءاً بمرقد

رسول اللهﷺ ماراً بالبقيع والعراق وطوس. ومنها:

يا زائرين اجتمعو جموعا
وكلهم قد أزمعوا الرجوعا
إذا حللتم تربة المدينة
بخير أرض وبخير طينة
فأبلغوا محمد الزكيا
عني السلام طيباً زكيا
حتى إذا عدتم إلى الغري
فسلموا مني على الوصي
وبعد بالبقيع في خير وطن
أهدوا سلامي نحو مولاي الحسن
وأبلغوا القتلى بأرض الطف
تحيتي ألفين بعد ألف[٢٢]

وهكذا يأتي على بقية المراقد المطهرة.

وأخيراً مع الشاعر العمري في ترياقه وهذه الأبيات المنتخبة:

ولما سرينا للغري عشية
لمن قد ثوى فيه احتراماً وتبجيلا
ربطنا باخفاف المطي ثغورنا
فأشبعت البيداء لثماً وتقبيلا[٢٣]

وله أيضاً هذه الأبيات المختارة:

بنا من بنات الماء للكوفة الغرا
سبوح سرت ليلاً فسبحان من أسرى
تمد جناحاً من قوادمه الصبا
تروم بأكناف الغري لها وكرا
نؤم ضريحاً ما الضراح وإن علا
بأرفع منه، لا وساكنه، قدرا
حوى المرتضى سيف القضا أسد الشرى
علي الذرى بل زوج فاطمة الزهرا
تطوف من الأملاك طائفة به
فتسجد في محراب جامعه شكرا
جدير بأن يأوي الحجيج لبابه
ويلمس من أركان كعبته الجدرا[٢٤] ■

---

(١) علي الشرقي، الأحلام، ص٥٠-٥١.
(٢) سلمان هادي آل طعمة، تراث كربلاء، ص٢٧.
(٣) سورة الحج، الآية: ٢٧.
(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٧٦/٥.
(٥) عباس محمود العقاد، مطلع النور، ص١٩٨-١٩٩.
(٦) إبراهيم جمال الدين، وحي الإنسانية، النشرة ٣، السنة ١، ص٢٥.
(٧) عبد الكريم بن طاووس، فرحة الغري، ص٣٦.
(٨) سلمان هادي آل طعمة، تراث كربلاء، ص٢٧ نقلاً عن كامل الزيارات لجعفر بن قولويه.
(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(١٠) محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، ص١٠١-١٠٦.
(١١) علي محمد علي دخيل، الإمام الحسن بن علي، ص٢٤، نقلاً عن كشف الغمة ص١٦٤.
(١٢) محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان، ص١٤٦.
(١٣) الدكتور علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٦٧/١.
(١٤) طالب علي الشرقي، النجف الأشرف عاداتها وتقاليدها، ص٢٥١.
(١٥) موسوعة العتبات المقدسة، قسم النجف ١، بحث جعفر خياط، ص٢٢٤.
(١٦) المصدر نفسه، ص٢٣٢.
(١٧) المصدر نفسه، ص٢٣٢.
(١٨) المصدر نفسه، ص٢٣٦.
(١٩) المصدر نفسه، بحث الدكتور حسين علي محفوظ، ص١٨٤.
(٢٠) المصدر نفسه، ص٩٧.
(٢١) المصدر نفسه، ص٩٩.
(٢٣) ابن شهراشوب، مناقب آل أبي طالب، ٣٢٠/١-٣٢١.
(٢٤) عبد الباقي العمري، الترياق الفاروقي، ص١٢٥.
(٢٥) المصدر نفسه، ص١٠٠.

أضواء
على مصطلح الرفض والرافضة

السيد عامر الحلو •
خطيب مسجد الإمام علي عليه السلام / فيننا

بدايةً كثر في الآونة الأخيرة وعلى لسان بعض الموتورين والحاقدين تكرار مصطلح الرافضة وبشكل مقصود ومنفر للطباع بقصد الإساءة إلى أتباع أهل البيت عليهم السلام في العراق لأهم تنفسوا الصعداء بعد سنين الظلم والاضطهاد والدكتاتورية وشعروا بحريتهم قليلاً فاستكثر البعض عليهم ذلك فجرى ما جرى لهم من قتل علمائهم وهدم ضرائح أئمتهم وتهجير عوائلهم واستهداف مراكز العبادة لديهم إضافة إلى التصريحات النارية التي نسمعها هذه الأيام كثيراً من رميهم بالصفوية والبويهية والقرامطة وغير ذلك من الأكاذيب التي ليس لها من الواقع والحق نصيب. ومن ذلك تسميتهم بالرافضة فما المقصود بذلك فنقول:

١ـ الرفض لغة هو الترك ورفض الشيء بمعنى تركه.

٢ـ والرفض اصطلاحاً يطلق في الأعصار المتأخرة على مطلق محبي أهل البيت عليهم السلام وهو اصطلاح سياسي طائفي حاقد وبغيض أطلق على الشيعة حيث قال الرازي في مختار الصحاح: (والرافضة فرقة من الشيعة قال الأصمعي سموا بذلك لتركهم زيد بن علي)[1].

٣ـ يظن البعض خطأ أن هذا المصطلح أطلقه زيد بن علي بن الحسين الشهيد عليه السلام سنة (١٢٠هـ) بالكوفة على الذين بايعوه ثم قالوا له أبرء من الشيخين نقاتل معك فأبى وقال: (كانا وزيري جدي فلا أبرء منهما) فرفضوه وأرفضوا عنه فسموا رافضة وهذا غير صحيح تاريخياً للأسباب التالية:

١ـ ورد هذا المصطلح على لسان معاوية في وصف شيعة عثمان بن عفان الذين لم يخضعوا لحكومة علي بن أبي طالب عليه السلام وسلطته بالرافضة وقال يكتب لعمرو بن العاص بفلسطين (أما بعد فأنه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك وقد نزل إلينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة) فهذا المصطلح موجود في هذا النص قبل ثورة زيد عليه السلام.

٢ـ وورد هذا المصطلح قبل ذلك وزيد بن علي عليه السلام بعد لم يتحرك على لسان الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام فقد روى أبو الجارود عن أبي جعفر أن رجلاً يقول: إن فلاناً سمّانا باسم. قال: وما ذاك الاسم؟ قال: سمّانا الرافضة. قال أبو جعفر عليه السلام مشيراً بيده إلى صدره: وأنا من الرافضة وهم مني قالها ثلاث.

٣ـ روى أبو بصير قال قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: جعلت فداك اسم سمينا به استحلت به الولاة دماءنا وأموالنا وأعراضنا، قال عليه السلام: ما هو؟، قلت: الرافضة، قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: أن سبعين رجلاً من عسكر فرعون رفضوا فرعون وأتوا موسى فلم يكن في قوم موسى أحد أشد اجتهاداً وأشد حباً لهارون منهم فسماهم قوم موسى الرافضة. وهذه التعابير عن الباقر عليه السلام أصدق شاهد على أن مصطلح الرفض ليس وليد فكرة زيد عليه السلام بل كان مصطلحاً سائداً في أقوام قبل ذلك فكل من لم يخضع للحاكم القائم والحكومة السائدة سمي رافضياً وأن كلمة الرفض والرافضة ليست من خصائص الشيعة وبما أن الشيعة منذ تكونها لم تخضع للحكومات القائمة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فكانت رافضة بحسب هذا الاصطلاح[٢].

ولكن أعداء آل محمد صلى الله عليه وآله أطلقوها على من ينتمي إليهم في مختلف العصور لغرض الوقيعة بهم والتأشير عليهم من أجل رصدهم ومراقبتهم والنيل منهم وأخذوا يحذرون من الإنسان لكونه شيعياً فصار يضايق في معيشته ووظيفته وتعليمه ولا يزال ذلك إلى يومنا هذا، وأضرب أمثلة قديمة وحديثة لإلقاء الضوء على ذلك:

١ـ كان عبد الرحمن بن صالح الشيعي يأتي أحمد بن حنبل فاعترض عليه أصحابه قائلين إنه رافضي فكان جواب أحمد بن حنبل أنه رجل أحب قوماً من أهل بيت النبي نقول له لا تحبهم إنه ثقة[٣].

٢ـ يقول هاني الفكيكي عضو المجلس الوطني لقيادة الثورة عام (١٩٦٣م) إن عبد السلام عارف رئيس الجمهورية العراقية آنذاك كان يقول حين يدخل هاني الفكيكي وزميله محسن الشيخ راضي: (لقد دخل الروافض) وهو الاسم الذي يطلقه الغلاة الطائفيون على الشيعة وكانا يضحكان[٤].

٣ـ عين سعدون حمادي رئيساً لشركة النفط الوطنية العراقية عام (١٩٧٢م) وعين علي هادي الجابر نائباً له وهما من الشيعة فسميت شركة النفط (حسينية النفط) بدلاً من شركة النفط لأن رئيسها

ونائبه من الشيعة.

٤ـ كان الدكتور أحمد عبد الستار الجواري وحماد شهاب التكريتي في حديث عن المحافظات وذلك في مبنى القصر الجمهوري وهما ينتظران مقابلة أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية آنذاك، فقال حماد شهاب للجواري: (إن جميع سكان المنطقة التي تقع بين المحمودية وجنوب العراق هم عجم ولابد من التخلص منهم لتنقية الدم العربي في العراق) فرد عليه وزير التخطيط العراقي آنذاك الدكتور جواد هاشم قائلاً: (أنا من مدينة عين التمر التابعة لكربلاء وحامد علوان الجبوري من مدينة الحلة فهل يعني أننا عجميان أم أنك تقصد شيئاً آخر).

٥ـ قال سعدون غيدان بعد فشل محاولة ناظم كزار عام (١٩٧٣م) المزعومة: (قلت للبكر وصدام أن يحترسا من هذا العجمي مدير الأمن العام) وأضافت زوجته قائلة: (زوجي لا يتآمر على البكر وصدام هذا العجمي والمتآمر). علماً أن ناظم كزار لم يكن مسلماً لا شيعي ولا سني وإنما هو من الصابئة[٥].

مصطلح الرفض في الأدب العربي

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي إمام المذهب المعروف المتوفى سنة (٢٠٤هـ) وكان شديد الحب والولاء لأهل البيت عليهم السلام[٦]:

يا راكباً قف بالمحصب من منى
واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى
فيضاً كملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حب آل محمد
فليشهد الثقلان أني رافضي

وقال:

قالوا ترفضت قلت كلا
ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت دون شك
خير إمام وخير هادي
إن كان حب الوصي رفضاً
فإنني أرفض العباد

وقال:

هربت إلى المهيمن من أناس
يرون الرفض حب الفاطمية
على آل الرسول صلاة ربي
ولعنة لتلك الجاهلية

وقال الصاحب بن عباد:

أنا رجل يرمونني الناس بالرفض
فلا عاش حربي يدب على خفض
ذروني وآل المصطفى خيرة الورى
فإن لهم حبي كما لكم بغضي
ولو أن بعضي مال عن آل أحمد
لشاهدت بعضي قد تبرأ من بعضي

وهكذا نجد أن هذا المصطلح يلصق بكل من يعرف عنه حب أهل البيت عليهم السلام.

وختاماً أرجو أن أكون قد أعطيت فكرة مختصرة عن هذا المصطلح السياسي والذي استغل استغلالاً بشعاً ووظف توظيفاً غير موفق خصوصاً في الأيام الأخيرة ضد الشيعة ■

---

(١) الرازي، مختار الصحاح، ص٢٥٠
(٢) محمد الكثيري المغربي، السلفية بين الإمامية والوهابية، ص٨٦.
(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٢١١/١٠.
(٤) حسن العلوي، الشيعة والدولة القومية في العراق، ص٢٠٥.
(٥) الدكتور جواد هاشم، مذكرات وزير عراقي مع البكر وصدام.
(٦) الفخر الرازي، مناقب الشافعي، ص٥١.

الحلقة الثانية:

إشارات قرآنية
في نشوء وتمدد الكون

- **د. عامر عمران الخفاجي**
  كلية التربية/ جامعة بابل
- **د. فيصل علي البصام**
  كلية العلوم/ جامعة بابل

المبحث الثالث
اللمحة القرآنية في نشوء الكون

ينابيع

إن الله تعالى قد أبدع الأشياء بقدرته، ولولا إرادته بقول (كن) لما وجد شيء أبداً، إذ أن الخلق هو المقدر والمسوّى، والطاقات الهائلة التي اكتشفت أخيراً في الكون إنما تعود في حقيقتها إلى قول (كن) فهو الأساس في تكون العالم، مما انفرد به تعالى بقوله في (سورة يس، الآية: ٨٢): (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) أي إنما شأنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون من غير امتناع أو توقف، كذلك قوله في (سورة النحل، الآية: ٤): (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)، أي أن حدوث الكون حاصل عقب قوله (كن) فتكون كلمة (كن) متقدمة على حدوث الكون بزمان واحد والمتقدم على المحدث بزمان واحد يجب أن يكون محدثاً، إذ أن الحدث لازم للزمان وعند بدايته يبدأ الزمن وينتهي زمن الحدوث بانتهاء الحدث بأمر المحدث.

إن إيجاد الأشياء وتغيراتها بعد النشوء تمثل بالطاقة والمادة، وحسب القانون الثاني للديناميكا الحرارية إن الحرارة تنتقل من المناطق الحارة إلى الباردة بطرق التوصيل والحمل والإشعاع، لذلك فالنظريات المذكورة سابقاً مازالت تعدل من وقت إلى آخر، لأنها قد لا تفسر ما يعثر عليه من ظواهر كونية جديدة اعتماداً على ما يصل إلينا من بصيص الضوء المنطلق قبل ملايين السنين من المجرات البعيدة، لأن الباحثين لم يقفوا على جميع ما أودعه الله من قوانين في علم الميكانيك الفلكي.

إن ما طرح من محاولات علمية، تكشف عن بعض ما أودعه الله من قوانين ميكانيكية وخواص طبيعية في هذا الكون الواسع المتمدد كما جاء في قوله تعالى في (سورة الذاريات، الآية: ٤٧): (وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)، فكان نشوء الكون الأحدب في مفهوم النسبية وكون (دي سيتر) المتمدد ووصف (لي ميتر) لكون منفجر قبل عشرة آلاف مليون سنة وآخرون غيرهم.

إن هذا الكون لم ينشأ كرة فارغة، وإنما كان كرة كثيفة جداً، ثم جعلت تنتفخ شيئاً فشيئاً كأنما فيها قوة تدفع أجزاؤها بعضها عن بعض خارج محيطها حتى فرغت من الداخل فأصبحت أشبه بالمطاط المضغوط أو فقاعة الصابون ما تزال تنتفخ حتى انفجرت وتساقطت كسفاً، وبعد انفصال الكتلة الكثيفة جداً إلى المجرات ومنها تكون الماء بعد انخفاض درجة الحرارة، واتحاد العناصر المنفردة التي أساسها الهيدروجين، ثم صار كل شيء حي بسبب الماء، وقد جاء ذلك في اللمحة القرآنية وهي تتوافق مع نظرية الانفجار الأعظم التي أيدتها نتائج الارصادات الفلكية والتحليلات الطيفية بقوله تعالى في (سورة الأنبياء، الآية: ٣٠): (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)، قال: (أَوَلَمْ يَرَ) أي أو لم يعلم ولم يقل (أو لم يروا) لأن نشأة الكون لم يشهدها غيره سبحانه وقال: (أَوَلَمْ) للتنبيه والتنويه ولتعريف الإنسان بالخلق الأول، وقال: (الَّذِينَ كَفَرُوا) ولم يقل الكافرون للدلالة على تجدد الكفر و(أن) هنا تحول المادي إلى معنوي وهي أداة نصب لأن نشوء الكون لم يقف عليه أحد فصار معنوياً بقوله كلمة (كن) وقال: (السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) جمع السماء وأفراد الأرض للدلالة على سعة الكون وعلو بعضها بعضاً لأن السماء في اللغة ما علا لاشتقاقها من السمو وهو العلو و(السَّمَاوَاتِ) جمع يفيد الحدوث وهي صفة للكون المادي، كذلك لم يقل السماء لأن الوصف يتضمن الكون بمجراته وهي (السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، وذكر الأرض بعد السماء لأنها شظية من الشظايا تطايرت نتيجة للانفجار الهائل، ويحتمل أن كل أرض في مجرات الكون تحوي حياة، إذ انتهى الفلكي السويدي (هانس) من بحث حول المجالات المغناطيسية ودورها في تكتل السدم التي تكون الكواكب في معظم الشموس هو الحال الطبيعي لها، وقال: إن الحسابات الفلكية تشير إلى أن نجماً بحجم شمسنا يكون له كواكب، ثالثها

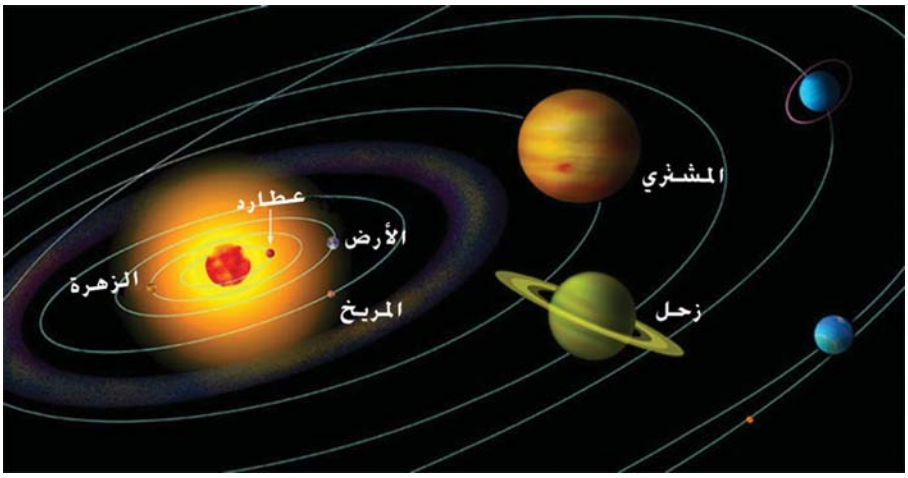

يكون بمثل حجم الأرض، ومكوناً من عناصرها وعلى حال كحالها، قال في (سورة الطلاق، الآية: ٦٢): (اللَّه الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَات وَمنَ الْأَرْض مثْلَهُنَّ) فقد قيل: ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه.

وقال (كانتا) ولم يقل (كانا) للدلالة على أنهما جنسان أو صنفان مختلفان ومعناها (وجدتا) هكذا أو خلقتا هكذا. وقال (رتقاً) إذ (الرتق) في اللغة (السد) يقال رتقت الشيء فأرتتق، أو أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما أو كانت السماوات متلاصقات وكذلك الأرضون لا فرج بينهما، أو أنها ذات رتق أو مرتوقتين تعني الضم والالتحام، أي كانتا شيئاً واحداً أو حقيقة متحدة أو أن الكون كان أمراً واحداً، (ففتقناهما) أو ففصلا بأمره بدلالة الفاء التي تفيد التعقيب بلا مهلة والفتق الفصل بين الشيئين الملتصقين، أو فتقهما بالتنويع والتمييز أو كانت السماوات والأرض واحدة ففتقت بالتحريكات المختلفة، فجاء الرتق قبل الفتق، فعند الوجود والتكون تميز بعضه عن بعض وانفصلت أجزاؤه بعد أن كان ملتحماً ومضموماً إلى بعضه، ثم تناثر قطعاً كثيرة في الفضاء أجراماً وشموساً وكواكباً وأقماراً ونيازك وشهباً وسدماً وغازات.

وقد اتضح أن كلمة (رتق) تعني طبقة من مادة متجانسة الخواص والأجزاء أطلق عليها علماء الجيولوجيا (الطبقة السديمية)، وهي التي نشأ منها الكون بانفصال أجزائها وتطورها وهذا الإبداع في شق الرتق يقتضي تغيراً في طبقة السديم عما كان عليه، قال تعالى في (سورة الأنعام، الآية: ١٤): (قُلْ أَغَيْرَ اللَّه أَتَّخذُ وَليًّا فَاطر السَّمَاوَات وَالأَرْض)، إذ أن أصل الفطر شق الشيء عند ابتدائه، وعملية انفصال أجرام السماء عن بعضها بعد أن كانت دخاناً يملأ الفضاء، ثم سدماً ثم مجرات تكدست فيها النجوم والكواكب، وذلك بفعل الدوامات التي احتاجت الغاز الكوني والجاذبية والقوى الطاردة المركزية، أي أن الفضاء الكوني الذي يقع بين أجرام السماء ليس فراغاً خالياً من كل شيء كالمادة ومعالمها، وإنما

تنتشر فيه أيضاً جسيمات غير مرئية، والغاز الكوني بين النجوم والمجرات هو في حالة تخلخل شديدة جداً، قال تعالى عن هذه السدم في (سورة المائدة، الآية: ١٧): (وَلِلَّه مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وإنما قال: (وَمَا بَيْنَهُمَا) يعني الوسط الذي بين المجرات والنجوم والكواكب الذي هو غاز الهيدروجين أو الدخان الكوني الذي كثافته ثابتة تقريباً على الرغم من تولد المجرات الجديدة، والمتفق عليه في علوم الفلك أن أصل هذا الكون بدأ حين انتشر غاز الهيدروجين، أعقب ذلك سلسلة من التطورات التي صحبها ازدياد تركيزه رويداً رويداً بفعل الجاذبية بين الأجسام قبل أن يظهر في صوره السدم والمجرات فالنجوم ثم الكواكب، وعند نفاد الهيدروجين في مركز النجم يستمر القلب المركزي بالتقلص بصورة أسرع، بينما تبدأ القشرة الخارجية بالتمدد وتستمر عملية تحوّل الهيدروجين إلى هليوم وتزداد درجة حرارته، مما تنشط ظاهرة التحوّل هذه التقلص والتثاقل الجذبي أكثر من السابق، وقد أنبأنا الله تعالى عن هذا الدخان في مرحلة تكون الكون بقوله في (سورة فصلت، الآية: ١١): (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ)، والدخان ما هو إلا ذرات ملتهبة في الفضاء تشبه السديم في شكلها وأحجام دقائقها تختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً، فمنها تظهر بشكل منتظم كروي أو لولبي أو عدسي، ومنها يظهر على أشكال غير منتظمة لا يمكن حصر أشكالها الهندسية.

أما الأرض فكانت سديماً، وهي غاز عالق به مواد صلبة وذلك لاختلاف نقطة انجمادها على ما ثبت من علم طبقات الأرض، ثم جعلت كالبيضة بقوله تعالى في (سورة النازعات، الآية: ٣٠): (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) والدحية الشكل القريب من الشكل البيضوي وقال: (بَعْدَ ذَلِكَ) أي فيما بعد، ودحوها هنا متقدم على خلق الجبال من فوقها، كذلك قوله في (سورة البقرة، الآية: ٢٩): (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)، قال هنا (استوى) والاستواء: الاعتدال والاستقامة و(فسواهن) عدلهن وخلقهن مصونة من العوج والفطور، بلا معالجة ومعاناة رغم سعة حجمها، في دقة وانتظام بأمره كما في قوله تعالى في (سورة البقرة، الآية: ٥٠): (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) أي كلمة واحدة سريعة التكوين، ويعيده كما بدأه سبحانه قال تعالى في (سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤): (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ) أي نعيد الخلق كما بدأناه تشبيهاً للإعادة بالابتداء على السواء، كذلك فقوله في (سورة الزمر، الآية: ٦٧): (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أي أن السماوات حال كونها مطوية تكون موجودة وأجزاء الأرض باقية لكنها جعلت غير الأرض بقوله تعالى في (سورة إبراهيم، الآية: ٤٨): (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ).

المبحث الرابع
تمدد الكون

إن المحدثين من الباحثين قد توصلوا

من خلال جملة بحوث فلكية إلى كيفية عمل الأجرام فرادى وهي تجري مع أعداد هائلة من الأجرام الأخرى في حركتها ودورانها وطبيعة تكوينها وصلتها بما يجاورها والبعيدة عنها، وكذلك حركة المجاميع منها في مواقعها وأهمية عمل كل منها ولقد تبين لفلكيي العصر بما اكتشفوا بمراصدهم الفلكية أن هناك جزراً نجمية في السماء متوزعة على شكل مجاميع كل منها اصطلح على تسميتها (مجرة) وأن المجرة تضم حوالى مائة مليار جرم في المعدل العام وأن ثمة أعداد كبيرة منها في قبة السماء.

ولقد رفض الفلكيون (فرضية الكون الثابت غير المتغير) ويعتقدون جازمين أن الكون لم يكن فكان، وأخذ يتكور تأثير نظام وحساب دقيق وتدبير عميق منذ بضعة ملايين من السنين وأن الكون في الماضي البعيد كان أقل تعقيداً مما هو عليه الآن ويذكر أن الفضاء الكوني وما فيه من ملايين المجرات في حالة انتشار سريع وأن كل جزء من أجزائه يبتعد بعضه عن بعض في سرعة شديدة، وحينما يفترض أن الكون مفتوح لا حدود له فإنه سيستمر حتماً في التمدد إلى ما لا نهاية. أما إذا كان مغلقاً على نفسه فتوجد عدة احتمالات هي: ربما يستمر في التمدد إلى الأبد ولكن معدل التمدد سوف يتلاشى تدريجياً بمرور الزمن بسبب قوى الجذب المعيقة التي تعتمد على كثافة الكون، فإذا كانت كثافة الكون عالية فربما تتمكن قوى الجذب من أن توقف عملية التمدد هذه، وبهذا يبدأ الكون بالتقلص بدلاً من التمدد ويعتقد العديد من الباحثين بفكرة رجوع الكون إلى مرحلته الأولية أي يصبح كرة من مادة ساخنة وربما ينفجر بعد ذلك مرة أخرى ويبدأ الكون مرحلة جديدة هذه النظرية سميت بنظرية الكون المتذبذب (Oscillating Universe) والتي يمكن اعتبارها مرحلة وسيطة بين نظرية الانفجار الأعظم والكون المستقر، ولكن لا توجد دلائل واضحة لاحتواء الكون على مادة كافية تجعله مغلقاً، أو إيقاف تمدده وربما الطريقة الوحيدة لمعرفة فيما إذا كان الكون في تمدد تسارعي أو تباطئي هي قياس ثابت (هابل) بصورة دقيقة ولأزمان مختلفة.

لقد اعتقد العديد من علماء الفلك بأن الكون ربما يكون من النوع المفتوح أي لا حدود له، فلهذا فسرت عملية التمدد هذه بأنه تستمر إلى أن يصل الكون إلى المراحل النهائية والتي هي مرحلة فناء الكون، وهذا يعني أن الإشعاعات تستمر في فقدان الطاقة خلال عمليات الزحزحة نحو الأحمر، وبذلك فإن جميع المادة الكونية ستتمركز داخل نجوم المراحل الأخيرة من تطورها مثل الثقوب السوداء وعندئذ سيصل الكون إلى مرحلة انتقال الحرارة وفيها سيبقى الكون المتزن ساكناً إلى الأبد.

لقد تم اكتشاف عدد من أجرام سماوية غريبة الأطوار ذات مصادر قوية للإشعاعات الراديوية عام (١٩٦٠م) والتي تظهر في الصور الفوتوغرافية على شكل نقط مضيئة زرقاء اللون تشبه النجوم سميت بالكويزرات أو أشباه النجوم على مسافات بعيدة جداً ذات طاقة عالية جداً وقد تمت عملية قياس بعدها بواسطة قياس الأطياف النجمية

باستخدام ظاهرة دوبلر وقانون هابل، فلقد لوحظ أن النجم الراديوي ذا القدر الضوئي (١٦) والذي تبلغ سرعته حوالي (٣٧٪) من سرعة الضوء له زحزحة نحو الأحمر بحدود (٣٧٪) أيضاً، والقدر الضوئي هو مقدار ما ينبعث من إشعاع في الثانية الواحدة.

إن الفضاء الذي يقع ما بين النجوم في مجرتنا ليس نهاية هذا الكون، فوراءه ملايين المجرات الأخرى، وهي تندفع جميعاً، كما يبدو مبتعدة عن بعضها البعض بسرع فائقة تبلغ نصف سرعة الضوء، كما تمتد حدود الكون الذي تمكن رؤيته بالمجاهر الحالية مسافة (٢٠٠٠) مليون سنة ضوئية على الأقل في كل اتجاه فهذا الكون الأحدب ـ كما وصفه أينشتاين ـ لا يمكن أن يسبر غوره، وأنه يتوسع يوماً بعد يوم كما أنه كلما تقدمت تقنيات منظومات الرصد وعلمي الفلك اللاسلكي والإشعاعي، عثر على شموس أخرى وكواكب ومجرات وسدم أعدادها كبيرة جداً لا يمكن أن يعبر خلالها عن المسافة في الكون بمفهوم رياضي معلوم المقدار لعدم تناهي الأبعاد نسبياً.

لقد وجد أن هناك تحولاً في الطاقة إلى مادة حسب قانون أينشتاين (الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء) يربو على مئة مليون طن في الثانية الواحدة وتحدث هذه المادة ضغطاً وحركة تدفعه إلى التمدد وجعل مجراته تتباعد عن بعضها بسرعة شديدة، هذا من جانب ومن جانب آخر زيادة كتل المجرات في الزمن البعيد تجعل جاذبيتها في تزايد وبالتالي يتحول التمدد تدريجياً إلى التقلص حتى يرجع الكون كما بدأ أول مرة.

إن هذا الكون يتسع من كل جوانبه، وشمسنا وهي تدور حول نفسها، تدور أيضاً على الحافة الخارجية للمجرة وهي في حركتها تتباعد عن هذه الحافة بمقدار (١٢ ميل/ثا) تتبعها في ذلك جميع الكواكب الداخلة في النظام الشمسي وهكذا جميع النجوم تسير إلى جانب أو آخر مع دورانها الخاص طبقاً لنظامها فمنها ما يسير بسرعة (٨ميل/ثا)، ومنها ما يسير بسرعة (٣٣ميل/ثا) وبعضها يسير بسرعة (٤٨ميل/ثا)، وجميعها تبتعد في كل ثانية بسرعة فائقة عن مكانها، وهذه الابتعادات تحدث طبقاً لنظام وقواعد فيزيائية دقيقة بحيث لا يصطدم بعضها ببعض ولا يحدث اختلاف في سرعتها.

يقول العالم بليفن: (إن الكون أرحب وأعظم مما كنا نتخيله وإن الأجزاء الذاتية من الكون تندفع في الفضاء بعيداً بسرعة مخيفة).

لذلك فإن الكون بنجومه المختلفة الأحجام التي تندفع في كل الاتجاهات، آخذ في الزيادة شيئاً فشيئاً وكلما ازداد حجمه ازدادت المسافة بين أجرامه وهو في الحقيقة آخذ في التوسع منذ انفجار كرة الكون وكلما اتسع هبطت درجة حرارته وقلت كثافته حتى أن النيوترونات والبروتونات والالكترونات والنيوترينو ومضاده كانت بحالة مستقلة عن بعضها وصارت لها حرية الحركة، ثم بدأت بعد ذلك سلسلة من التفاعلات النووية السريعة والكثيفة اتبعتها تحولات من المادة إلى الطاقة ومن الطاقة إلى المادة حيث أنه منذ الوهلة الأولى للانفجار الأعظم

ارتفعت درجة الحرارة إلى ما يقارب (١٠)١٠ كلفن خلقت أجزاء الذرات التي يتألف منها الكون حالياً ومنها تألفت سحب الغازات ومن السحب تكونت المجرات وهكذا فالكون أخذ بالاتساع منذ الوهلة الأولى لخلق الكون وإن جميع مكوناته من الذرة إلى المجرات في حالة حركة مستمرة منذ أن خلقت وبسرعات كبيرة جداً وبحركات معقدة وباتساع مذهل أخذ فيما بعد يبطئ قليلاً بسبب مقاومة الجاذبية للتوسع، فقد دأبت على جمع المجرات وجذبها نحو نقطة واحدة، فالتصادم قائم بين قوة الجاذبية وتوسع الكون، فإذا استمر التوسع فالكون عندئذ سيكون مفتوحاً وسيقل التوسع تدريجياً وتبدأ عندها المجرات بالتقهقر والعودة إلى التجمع في نقطة واحدة كما كانت في البدء وهذا ما يعرف بالكون المغلق كما في قوله تعالى في (سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤): (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهاً للإعادة بالابتداء.

إن كلاً من التوسع الكوني وقوة الجاذبية مرتبطان بالكثافة الحالية للكون فلو كانت هذه الكثافة تبلغ ما نطلق عليه اسم الكثافة الحرجة، فمعنى ذلك أن هناك قوة جاذبية تكفي لإيقاف توسع الكون، فإذا كانت هذه الكثافة أقل من الكثافة الحرجة فمعنى هذا أن الكون سيتسع دون توقف وقد تم حساب هذه الكثافة بمقدار (٧ ،٤×١٠-٣٠ غم/سم٣) وهي بقيمة هيدروجين في كل متر مربع من الفضاء والكثافة الحالية تبلغ أجزاء المائة من هذه الكثافة.

إن التمدد المستمر للكون يحصل مع الاحتفاظ بالمسافة نفسها بين أجرامه، علماً بأنه لا يوجد مركز لهذا التمدد، لهذا فإن أية نقطة في الكون يمكن أن تصلح مركزاً للتمدد كمجرتنا مثلاً.

ولقد دلت بحوث التحليل الطيفي للمجرات الخارجية أنها تتباعد عنا وعن بعضها البعض باستمرار وبسرعات قدرت بآلاف الأميال في الثانية الواحدة وقد قدر هذا التمدد بـ(١٠٥ميل/ثا) لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية، وقد أمكن باستعمال أجهزة رصد خاصة معرفة نجوم قد أرسلت ضوءها منذ ملايين السنين الأرضية، ولكنه لم يصل إلينا إلى الآن وقد تم اكتشاف مجرات وكواكب تبعد عنا آلاف الملايين من السنين الضوئية وأنها تتباعد بعضها عن بعض بسرعة كبيرة جداً، لذلك يجب

أن تمضي آلاف الملايين من السنين حتى تصل إلينا.

لقد صرح الباحث هابل عام (١٩٢٩م) أن المجرات تبتعد عنا في جميع الاتجاهات وتخضع لعلاقة طردية مباشرة بين المسافة والزحزحة الطيفية نحو الأحمر وتمكن من إيجاد قانون ينص على أن سرعة ابتعاد المجرات الخارجية تتناسب طردياً مع بعدها عنا، ومعنى ذلك أن الضوء القادم من المجرات البعيدة يصبح شديد الاحمرار أو أن خطوط الطيف كلها قد أزيحت نحو الأحمر والمجرات الأبعد لها زحزحة أكبر نحو الأحمر ولكن أينشتاين أراد أن يجعل كونه ساكناً بتحويل معادلاته بإضافة حد للتنافر المسمى بالثابت الكوني لكن (دي سيتر) و(فريدمان) و(لي ميتر) عام (١٩٢٧م) حلوا معادلات المجال ووجدوا حلولاً غير ساكنة للكون وبرهنوا أن النظرية النسبية العامة تتطابق مع كون متمدد، ولا حاجة إلى ثابت كوني الذي اعترف أينشتاين بخطأ إضافته.

لقد تم تعديل ثابت هابل من قبل (والتربيد) لأن مدلوله يفرض بأن الانفجار الكوني الأول بدأ منذ (١،٨) بليون سنة وهو أقل عمراً من بعض أحجار القشرة الأرضية وذلك من خلال الأبحاث التي أجريت في مرصد بالومار ما بين (١٩٥٨-١٩٦٨م) خصوصاً بواسطة الأجهزة الراديوية التي اكتشفت أجرام غريبة عرفت بالكويزرات والتي سجلت بدلالة الإزاحة الحمراء سرع قطرية كبيرة تتفاوت ما بين (١٠٠-١٤٠ ألف ميل/ثا) وهي تقرب من (٨٠٪) من سرعة الضوء ومن خلالها تضاعفت أمامهم أبعاد الكون واتسعت مقاييسه إلى حد لم يكن متوقع.

كما خرج الباحث الفلكي (ساندج) ببحث عام (١٩٦٨م) عن حل يفترض ثابت نسبي جديد للسرع بقيمة (٢٤ كم/ثا) لكل مليون سنة ضوئية. وكما اكتُشف جرم آخر بلغت سرعته القطرية حسب مفهوم الإزاحة الحمراء أكثر من (٩٥٪) من سرعة الضوء ويظهر من هذا الثابت أن الأجرام التي تزيد مسافاتها عن (١٢،٥) ألف مليون سنة ضوئية ستصل سرعة انطلاقها إلى ما يعادل سرعة الضوء أو أكثر بقليل وهذا أمر غير ممكن لأن الضوء المنبعث منها سيفقد جميع طاقته.

لقد أثبتت ظاهرة الإزاحة الحمراء صحتها ومتانتها وكفاءتها فقد كشفت لنا سر تحركات النجوم ضمن أنظمتها وأرشدتنا إلى تقدير مسافاتها واكتشاف حركاتها وتقدير السرعات القطرية لها فقد عززت بما حققه الباحثان (وليم) و(نيلسن) في أبحاثهما في مرصد لويل الأمريكي المتضمن منظار (٧٢ بوصة)، صحة نظرية التمديد بدلالة ظاهرة الإزاحة الحمراء، فقد تضمن بحثهما الضوء المنبعث من المجرات القريبة والبعيدة من خلال موجات الضوء القصيرة المركزة للطول الموجي (٥٢٣٤) انكستروم تقنية أنبوبة الإضاءة المتعددة (Photomultiplier Tube) التي من شأنها توفير القياس المباشر لتوزيع طاقة الإلكترونات الضوئية، ومن خلال ذلك تمكنا من الإثبات بأن الفوتونات القديمة المنبعثة من المجرات النائية كانت تحمل نفس طاقة الفوتونات الحديثة المنبعثة على نفس الموجة من المجرات القريبة.

ولم يكتفيا باختبار واحد بل أجريا سبعة اختبارات على مجرات نائية وفي مدى (٢٥٠٠) مليون سنة ضوئية وكلها أكدت نفس النتيجة.

اللمحة القرآنية في تمدد الكون

أشار الله سبحانه وتعالى في كتابه المجيد بآية واحدة من (سورة الذاريات، الآية: ٤٧) إلى تمدد الكون بقوله: (وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) فـ(السماء) مفعول به متقدم على الفعل (بنينا) والتقدير بنينا السماء بدليل تقديمها للاهتمام بها وقد أفردها لأن الحديث يدور حولها على متانتها وإحكام بنائها وقال (بنيناها) ولم يقل بنيتها لعظمتها بذاتها وقال (بِأَيْدٍ) أي بقوة ولم يقل بيد أو بيدين للدلالة على عظمة السماء وبنائها التي تحتاج إلى قوة عظيمة للبناء (وَإِنَّا) الواو هنا حال و(إن) توكيد وقال (إِنَّا) وليس (إننا) وذلك للإدغام وللإشارة إلى أن الكون وجد دفعة واحدة بدليل تأكيد الخبر بتوكيدين هما (إن) و(اللام) والتقدير بنيناها موسعين لها وأن التوسع دائم بدليل الإخبار بالجملة الإسمية للدلالة على الثبوت والدوام ولم يذكر المفعول (الموسع) مع أنه صالح للعمل لأنه جاء خبراً للدلالة على أن (التوسع) مبهم لا يمكن حصره فقال (لَمُوسِعُونَ) ولم يقل (لموسعوها) للإبهام لأنه توسع متعدد الجوانب وشائع في جميع الكون كذلك لم يقل لسوف نوسعها أو سنوسعها لأنها بدأت بالتوسع حال نشوئها وإن فعل التوسع مستمر ومتجدد لأن الفعل (يوسع) يفيد التجدد والحدوث فالتوسع حاصل متجدد وهو مستمر في السعة، قال أحد المفسرين (بِأَيْدٍ) أي بقوة والأيد القوة (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) أي قادرون على الوسع وهي الطاقة وهذا ما توصل إليه علماء الفلك في نتائج أبحاثهم إلى أن الكون يتمدد باستمرار، وان تمدده يحصل مع الاحتفاظ بالمسافة نفسها بين أجرامه وأن حجم الفضاء الحالي الآن يبلغ نحو عشرة أمثال حجمه منذ بداية تمدده أي أن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً على ضعف ما كان عليه أولاً.

إن السماء بأجزائها المترابطة بعضها ببعض، محكمة الخلق متماسكة لا يخرج فيها أي جرم عن مساره بمرور الأزمان كما قال تعالى في (سورة النبأ، الآية: ١٢): (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) وقوله أيضا في ذكر البناء في (سورة البقرة، الآية: ٢٢): (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاءً)، و(اللّه الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء) (سورة غافر، الآية: ٦٤) و(أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا) (سورة النازعات، الآية: ٢٧) و(وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا) (سورة الشمس، الآية: ٥).

ولعل الحكمة في تكرار لفظ (البناء) للدلالة على سعة الكون وامتداده وعظمة بنائه ويجد ذلك الباحث الفلكي حينما يسدد مرقبه (التلسكوب) إلى قبة السماء ويتوغل في أعماق الفضاء ويمكنه أن يتنبأ عن الماضي السحيق، لأن الأجهزة الحديثة حالياً قادرة على كشف بصيص الضوء المنبعث عن عوالم تبعد عنا ما يقرب من (٥٠٠) مليون سنة ضوئية والتي بدأت رحلتها قبل ظهور الفقريات على سطح الأرض، كما يظهر في الأجهزة تباعد العوالم القديمة عن مجرتنا بسرعة

فائقة جداً تبلغ (١٧٠ كم/ثا).

لقد كان يظن إلى عهد قريب أن الكون استاتيكي (راكد) ذو حجم ثابت لا يتغير إلى أن ظهر عالم رياضي بلجيكي هو القس (لي ميتر) بكون ديناميكي وفحوى نظريته أن نطاق الكون يتسع وحيزه آخذ بالانتفاخ وليس له حجم ثابت والمجرات التي تسبح في الكون على مسافات واحدة بعضها عن بعض مع اختلاف سرعتها وأشكالها وقد تم تقدير سرعة المجرة من خلال ظهور خطوط الطيف لمصدر الضوء وظاهرة دوبلر في الطيف، فإذا كان الطول الموجي أطول فإن المجرة في حالة الإدبار أي في اتجاه الأحمر الطويل الموجة وقد تحقق (هابل) أن جميعها في حالة تمدد في الاتجاه الخارجي للكون أي أن هذه المسافات تنفرج شيئاً فشيئاً وقد أثبتت دراسة الضوء المنبعث من هذه المجرات أن سرعة تباعدها تزداد بازدياد المسافة بيننا وبينها أي أن المجرات القريبة منا تتباعد عنا بسرعة أقل من المجرات البعيدة وهذه أقل من التي تليها في البعد وهكذا. فتباعد المجرات الموجودة مثلاً في مجموعة العذراء يبلغ (٧٠٠ميل/ثا) والحقيقة أنها تتباعد عنا بسرعة واحدة ولكن يخيل إلينا أن النقط البعيدة تبتعد عنا بسرعة أكبر من النقط القريبة، وأنه كلما زادت المسافة زادت السرعة ويخيل هذا لسكان كل بقعة في الكون فالكون في تمدده المتواصل يشبه الكرة التي يتابع النفخ فيها حتى إذا انفجرت تطايرت أشلاؤها فكذلك الكون يكبر بتباعد مجراته حتى ينفجر في النهاية ويتطاير كسفاً ويتناثر حطاماً حيث ليس للكون نهاية معروفة ومع أن بعض المجرات تزيد سرعتها على سرعة الضوء نفسه خلافاً لنظرية (أينشتاين) في النسبية بشأن السرعة والكتلة لجسم متحرك ما، وبذلك لا يمكن أن تصل الأضواء المنبعثة من تلك المجرات أي أنها في الكون اللامرئي.

إن الحد الفاصل بين ما يمكن أن نراه من الوجود المادي وما لا يمكن أن نراه من المجرات التي تتباعد عنا بسرعة الضوء تبعد مثل هذه المجرة عن مجرتنا حتى لحظة اكتشافها بنحو (٤) ملايين سنة ضوئية كفيل بإنشاء تصور لما حصل وسيحصل لهذا الكون الواسع المتمدد الذي بناه العالم الخبير.

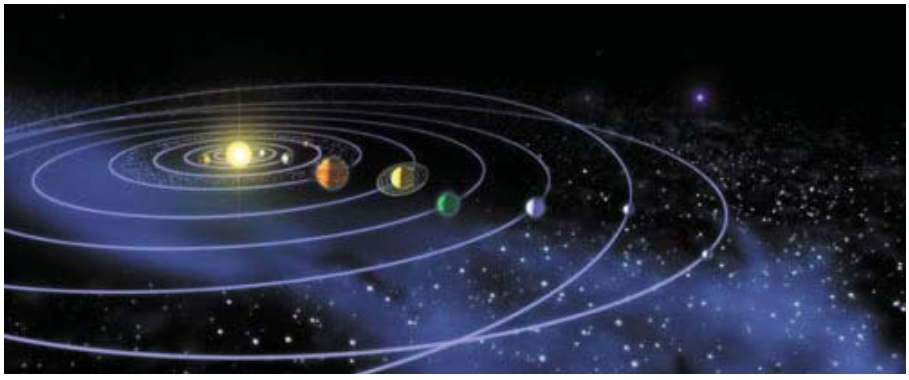

الخلاصة

إن هـذا الكون لا يمتد إلى ما لا نهاية وليس أزلياً ولو حدث ذلك لاستهلكت جميع الطاقات فيه بمرور الزمن، ولتوقف كل نشاط في الوجود، فمن وجهة نظر الديناميكا الحرارية، إن لهذا الكون بدءاً لا يمتد إلى ما لا نهاية، وإنما هي بداية محدودة بلحظة قدرها العلماء بنحو (١٤-١٥) بليون سنة، ولها نهاية ولكنها بعيدة جداً اعتماداً على وجهات نظر علمية عديدة وهي فرضيات قائمة على نفاد الطاقة تدريجياً، رغم تولد مجرات عديدة فيه، إذ كلما اختفت مجرة وجدت أخرى من الدخان الكوني كما وجدت المجرات القديمة.

إن نظريات الكون المتطور المعتمدة على النسبية هي نظريات تفترض بعض النماذج لكون متمدد الى ما لا نهاية مبتدءاً بانفجار أعظم، يؤدي فيما بعد الى انخفاض كثافة المادة تدريجياً، التي لقيت قبولاً من نظرية الكون المتذبذب بتأثير الجاذبية التثاقلية التي تعيق التمدد وذلك لأن الانخفاض بالتمدد يجعل الجاذبية التثاقلية غير قادرة على إعاقة تمدده، أو أن الزحزحة الطيفية نحو الأحمر تؤدي الى خفض شدة الضوء الذي يصلنا وهذا يتطلب كوناً ممتداً لا يتعارض مع تجانس الكون.

إن ما جاء في كتاب الله العزيز لا يمثل إلا لمحة في كيفية نشأة الكون المتطور وتمدده والتي يشهدها غيره سبحانه. لقد لوحظ أن بعض النظريات الفلكية والجيولوجية تقترب الى حد ما مع ما ورد من الآيات القرآنية من حيث حقيقة عدد ومواقع ومعاني الكلمات المطلقة بكل تفصيلات الوقائع المادية ذاتها وحركتها وقوانينها بقوله تعالى في (سورة فصلت، الآية: ٥٣): (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ■

المصادر:

(١) فيزياء الجو والفضاء والفلك، د. فياض النجم، د. حميد مجول النعيمي، بغداد، ج٢، ط١، ١٩٨٥م.

(٢) الموسوعة الفلكية المبسطة، د. ميخائيل عبد الأحد، البحث العلمين، ط١، ١٩٧٧م.

(٣) التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الفكر، بيروت، ط٣١، ١٤٠٥هـ.

(٤) التكامل في الإسلام، أحمد أمين، دار المعرفة، ج١- ج٥، بيروت.

(٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دار الجيل، ١٣٢٩هـ.

(٦) شهادة الكون، عبد الودود رشيد محمد، ط١، بغداد، ١٩٧٨م.

(٧) الكشاف، الزمخشري، دار المعرفة، بيروت.

(٨) القرآن والعلم، أحمد محمد سليمان، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.

(٩) ملامح كونية في القرآن، شاكر عبد الجبار، ط١، بغداد، ١٩٨٥م.

(١٠) الكون والقرآن في علم الفلك، محمد علي حسن، ط٣، بغداد، ١٩٧٨م.

(١١) أينشتاين والنظرية النسبية، محمد عبد الرحمن مرحبا، النهضة، بغداد، ط١، ١٩٨٤م.

(١٢) الطبيعة في القرآن الكريم، كاصد ياسر الزيدي، سلسلة دراسات (١٣٦) العراق، ١٩٨٠م.

(١٣) القرآن محاولة لفهم عصري، مصطفى محمود، دار المعارف، مصر، ١٩٧٦م.

أجوبة مسابقة العدد (١٧) وأسماء الفائزين

السؤال الأول: ب. أبو أيوب الأنصاري

السؤال الثاني: أ. الفضل بن الحسن الطبرسي

السؤال الثالث: ب. الإمام الرضا عليه السلام

السؤال الرابع: ج. سنة واحدة

السؤال الخامس: ب. السيد عبد الزهراء الحسيني

السؤال السادس: أ. ٣١٧ هـ

السؤال السابع: أ. المراسم

السؤال الثامن: ب. مسجد البيعة

السؤال التاسع: أ. ٤ أولاد

الفائز بالجائزة الأولى: علي حسين حسن / كربلاء ـ طويريج ـ حي الجمعية.

الفائز بالجائزة الثانية: محمد راضي عبد السادة / النجف ـ الجديدة الرابعة.

الفائز بالجائزة الثالثة: باسم بچاي جويد / الديوانية ـ الحي العسكري.

على الفائزين مراجعة مقر المؤسسة لاستلام جوائزهم

مسابقة العدد (١٩)

١ جابر بن حيان مفخرة الكيمياء، درس على الإمام الصادق عليه السلام حتى عرفه الشرق والغرب، وكان جابر يفتخر بتلمذته على الإمام فلقبه بقلب ينم عن سمو مقامه. فما هو؟

أ ـ ينبوع الحكمة

ب ـ كنز الحكمة

ج ـ معدن الحكمة

٢ تتلمذ على المفيد وتولى نقابة النقباء وإمارة الحج، عرف بالمرتضى وإضافة لهذا اللقب عرف بلقب آخر جاء من سنيّ عمره. فما هو؟

أ ـ الثمانيني

ب ـ السبعيني

ج ـ الستيني

٣ قاد الثورة العراقية ضدّ الانكليز وأوقد شارتها الأولى، ولد سنة ١٢٧٠هـ وتوفي سنة ١٣٣٨هـ من مراجع التقليد المعروفين في كربلاء المقدسة. فمن هو؟

أ ـ السيد كاظم الرشتي

ب ـ السيد محمد علي الطباطبائي

ج ـ الشيخ محمد تقي الشيرازي

٤ **بلغ العلا بكماله**
كشف الدجى بجماله
حسنت جميع خصاله
صلوا عليه وآله

أبيات طالما تغنى بها عشّاق الرسول صلى الله عليه وآله. لمن هذه الأبيات؟

أ ـ محمد إقبال

ب ـ سعدي الشيرازي

ج ـ محمد بن طلحة الشافعي

كوبون مسابقة

ينابيع

العدد (١٩) رجب ـ شعبان ١٤٢٨هـ

	أ	ب	ج
جواب السؤال الأول			
جواب السؤال الثاني			
جواب السؤال الثالث			
جواب السؤال الرابع			

٥ جاء في البحار عن الصادق عليه السلام: «قبل قيام القائم خمس علامات محتومات: اليماني، والسفياني، والخسف بالبيداء، و . . . ».

أ ـ خروج الشمس من المغرب

ب ـ الصيحة في السماء

ج ـ المطر المستمر لسبعة أيام

٦ أدرك الإمام زين العابدين جدّه أمير المؤمنين عليهما السلام وقد نصّ عليه بالإمامة حين كان حاضراً ليلة استشهاده، فكم كان عمره حين استشهاد جدّه؟

أ ـ سنتان

ب ـ أربع سنوات

ج ـ ست سنوات

٧ الحياء والإيمان مقرونان في قرن فإذا ذهب أحدهما تبعه الآخر. قول يؤثر عن إمام من أئمة أهل البيت. فمن هو؟

أ ـ الإمام السجاد عليه السلام

ب ـ الإمام الباقر عليه السلام

ج ـ الإمام الصادق عليه السلام

٨ إلهي هذه أزّمة نفسي قد عقلتها بعقال مشيئك، وهذه أعباء ذنوبي درأتها بعفوك ورحمتك.. فقرة من أدعية الأيام. فما هو؟

أ ـ دعاء الصباح

ب ـ دعاء العشرات

ج ـ دعاء الفرج

٩ صحابي جليل كان صاحب سر النبي صلى الله عليه وآله في المنافقين لم يعلمهم أحد غيره، توفي سنة ٣٦هـ. فمن هو؟

أ ـ عمّار بن ياسر

ب ـ حذيفة بن اليمان

ج ـ خبّاب بن الأرت

	أ	ب	ج
جواب السؤال الخامس			
جواب السؤال السادس			
جواب السؤال السابع			
جواب السؤال الثامن			
جواب السؤال التاسع			

جوائز المسابقة

الجائزة الأولى: ٧٥،٠٠٠ دينار.
الجائزة الثانية: ٥٠،٠٠٠ دينار.
الجائزة الثالثة: ٢٥،٠٠٠ دينار.
يتعين الفائز بعد إجراء القرعة.

شروط المسابقة

* **الإجابة عن ثمانية أسئلة فقط.**
* **يوضع الكوبون في ظرف ويكتب عليه (مسابقة مجلة ينابيع) مع الاسم الثلاثي الصريح والعنوان الكامل ورقم الهاتف بوضوح ويرسل على عنوان المؤسسة. وبخلافه تهمل الإجابات.**
* **آخر موعد لاستلام الأجوبة هو ١/شوال/١٤٢٨هـ.**